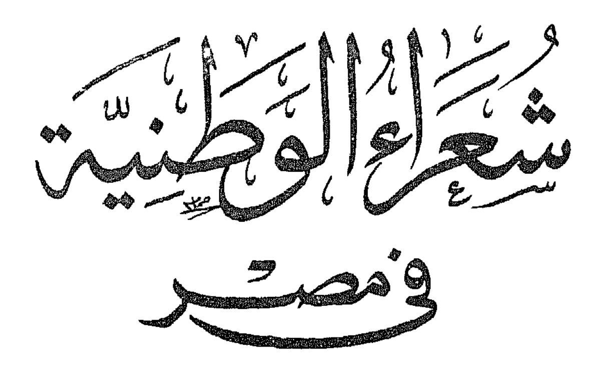
عبد الرحمن الرافعي



تراجمهم وشعرهم الوطني
والمناسبات التي نظموا فيها قصائدهم





شعراء الوطنية في مصر

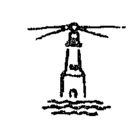
تراجمهم وشعرهم الوطني
والمناسبات التي نظموا فيها قصائدهم

بقلم

عبد الرحمن الرافعي

«أن فى قيثارة الشعر سلوى للقلب»
«وغذاء للروح، وأنها لتوحى إلى النفوس»
«أسمى معانى الانسانية، وما أجمل هذه»
«القيثارة حينما تغرد للناس ألحان الوطنية»

الطبعة الثالثة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.



عبد الرحمن الرافعي

ولد في ٨ من فبراير سنة ١٨٨٩ - وتوفي في ٣ من ديسمبر سنة ١٩٦٦

مقدمة الطبعة الثالثة

هذه هى الطبعة الثالثة من كتاب المغفور له والدنا عن شعراء الوطنية فى مصر تطابق تماما الطبعة الأولى التى ظهرت سنة ١٩٥٤ ، ولاشك أن جهد دار المعارف بأعضائها جميعا كان له أثره فى ظهور الطبعة الثالثة التى هى الآن فى متناول القارئ ..

والله ولى التوفيق ..

كريمات المؤلف

عبد الرحمن الرافعى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

أقدم الطبعة الثانية لهذا الكتاب طبق الأصل للطبعة الأولى التى أخرجتها سنة ١٩٥٤ وهى ضمن ما أخرجته من سلسلة تاريخ حركتنا الوطنية – أحمد الله وأشكره على نعمائه، وكم كنت أتمنى أن أضيف إلى تراثنا الشعرى الوطنى ما جادت به قرائح شعرائنا الجدد فى المناسبات الوطنية تمشيًا مع روح الاشتراكية والتطور فى عهدنا الحديث خاصة وقد لابست الأمة المصرية ظروف وضحت فيها معالم القومية والوطنية والكفاح والجهاد، وليس أدل على ذلك مما ظهر عقب الاعتداء الثلاثى من قصائد لشعراء وطنيين وغير ذلك من المناسبات الوطنية المعروفة لولا – مرضى الذى منعنى عن جمع وتسجيل قصائد هؤلاء الشعراء فلهم منى صادق اعتذارى.

والله ولى التوفيق..

يوليه سنة ١٩٦٦

عبد الرحمن الرافعى

مقدمة

عندما أرخت الحركة القومية فى أدوارها المتعاقبة، تبينت مبلغ ما للشعر الوطنى من أثر عميق فى التمهيد لها وبعثها، وإذكاء الروح الوطنية فى نفوس المواطنين، وتسجيل الحوادث الهامة فى تاريخ مصر القومى، ومن يومئذ وأنا توّاق إلى أن أخصص لشعراء الوطنية سفرًا منفردًا، يجمع معظم ماجادت به قرائحهم من الشعر الوطنى، مع التعريف بشخصياتهم، وذكر المناسبات التى أنشأوا فيها قصائدهم الوطنية.

ولقد كنت أرجو أن أُضَمِّن ما أخرجته من سلسلة تاريخ الحركة الوطنية قصائد أولئك الشعراء، وعنيت فعلا بأن أقتبس فى شتى المناسبات، ولكننى وجدت أن هذا الاقتباس لا يكفى للتنويه بفضلهم، وإبراز مبلغ مساهمتهم فى غرس الشعور الوطنى فى نفوس الأجيال المتعاقبة، فواعدت نفسى أن أتفرغ يوما لإخراج كتاب خاص بهم وبأشعارهم الوطنية، وها أنذا أوفى بوعدى.

وإنى لأشعر أنى باخراج هذا الكتاب، أؤدى واجبا نحو أولئك الشعراء، ونحو الحركة الوطنية ذاتها، فالشعراء الذين استلهموا وحى الوطنية فى قصائدهم، واهتزت لها مشاعرهم، واستجابوا إلى نداء الوطن فى عالم الشعر والفن والخيال، وتجاوبوا مع الحركة الوطنية، وكانوا مرآة صادقة لعصرهم، ومصدر إلهام وتوجيه لمواطنيهم، وترجمانا لهم فى آمالهم وآلامهم، وأحاسيسهم وأهدافهم، هؤلاء خليقون جميعًا بتقدير الوطن وثنائه، وإن من أبسط علامات التقدير لهم أن تجمع قصائدهم فى سجل واحد.

على أنى لا أقصد تقديرًا لهم فحسب، بل أقصد إلى تغذية الروح الوطنية بمدد من شعرهم وإلهامهم، وإذا كان مما تعمد إليه الأمم أن تغذى نفوس أبنائها بالأناشيد الوطنية، فأجدر بنا أن نشيع الشعر الوطنى ونجعله فى متناول المواطنين جميعًا، رجالا ونساء، شيبا وشبانا، فكلنا فى حاجة إلى أن نستذكر تلك القصائد الغر التى تملأ النفوس وطنية وإيمانا، وتغرس فيها فضائل الصدق والإخلاص والشجاعة، والتفانى فى أداء الواجب الوطنى، فلعلها تدفعنا إلى السير دائما إلى الأمام، غير متوانين ولا متنابذين، مستمسكين بالمثل العليا فى حياتنا القومية.

إن حياة هؤلاء الشعراء وقصائدهم الوطنية - إلى جانب أنها عماد للأدب وتاريخه - هى قطعة من تاريخ الحركة الوطنية، وعنصر من عناصر بعثها وتطورها، ولا غرو فالشعر فرع من دوحة الأدب، والأدب الوطنى له الأثر الذى لا ينكر فى تكوين المواطن الصالح، والشعر بما

بطبع فى نفس الشاعر من التحليق فى سماء الخيال، والتطلع إلى المثل العليا، يمهد للنهضات الوطنية ويبعثها ويغذيها، إذ يهيب بالأمة أن تتمسك بالحرية والكرامة، ويستحثها على النفور من الذل، وإباء الضيم، ويحبب إليها الثورة على الاستعمار والاستبداد، وشعراء الوطنية فى مصر لهم فى هذه الناحية فضل عميم، فكم ناصروا الحركة الوطنية فى مختلف عهودها، وغذوها بقصائدهم وروائع شعرهم، وسجلوا حوادثها الهامة، وأشادوا بمفاخر الشعب، وأهابوا به أن ينهض ويستعيد مجده القديم، وكم استصرخوا الإنسانية أن تهب لنصرته، وتنتصف له من المظالم التى حاقت به، وإن كثيرًا من روائع الأدب التى جادت بها قرائح أولئك الشعراء كانت معالم للحركة الوطنية، وكان الشباب يحفظها عن ظهر قلب، فتذكى فى نفوسه روح الوطنية والإخلاص والإقدام والتضحية.

وكم من قصيدة أو بيت من الشعر قد حركت المشاعر فى نفوس المواطنين وستحركها على الدوام، مهما تقادمت عليها الأعوام، ألست ترى إلى نشيد المارسلييز؟ كيف أنه رغم تقادم العهد على وضعه لا يزال يلهب شعور الفرنسيين ويثير فى نفوسهم روح الجهاد والفداء، ويقدرون له قدسيته الفنية والوطنية.

ولعل فى جمع عيون الشعر الوطنى فى كتاب واحد ما يبرز لنا فضل أولئك الشعراء فى إمدادهم الروح الوطنية بغذاء معنوى يتجدد على تعاقب العهود والعصور، ولعلنا بذلك نكون أكثر عرفانًا لفضلهم، وتقديرًا لذكرياتهم، وما أجمل وفاء الأمم للمجاهدين السابقين من بنيها، فى مختلف الميادين، ولا غرو فالحركة الوطنية ليست وليدة الجيل الحاضر، ولا هى وقف عليه، بل هى ثمرة الجهود المتواصلة التى يتوارثها المواطنون جيلا بعد جيل، وما أضعف الروح الوطنية إذا حدد مولدها بجيل واحد، لأنها بذلك تكون رخوة البناء، مقفرة المعالم، أما الوطنية الوطيدة الأساس، العالية الذرى، فهى التى تجمع بين مجد الماضى، وجهاد الحاضر، وأمل المستقبل.

إن فى قيثارة الشعر سلوى للقلب، وغذاء للروح، وإنها لتوحى إلى النفوس أسمى معانى الإنسانية، وما أجمل هذه القيثارة حينما تغرد للناس ألحان الوطنية.

هذه المعانى والخواطر هى التى ألهمتنى إخراج هذا الكتاب، وكم يطيب لى أن أنشر فيه صفحات لشعراء تكاد أحداث الزمان تنسينا شعرهم، بل تنسينا أسماء بعضهم، فى حين أن فضلهم لا يصح أن ينسى وآثارهم فى بعث الوطنية لا تمحى، والأدب فى حاجة إلى استذكار أشعارهم، فإنها حقًا عماد الأدب الرفيع وكيانه، وهذه الأشعار هى فى ذاتها سبيل لنشر الثقافة الوطنية بين أفراد الشعب فى مختلف طبقاته.

من أين نبدأ

لقد ساءلت نفسى قبل أن أرسم. خطوط الكتاب: من أين نبدأ تاريخ الشعر الوطنى ؟ أنبدأه من يوم أن قرأنا قصائد سوقى وحافظ وسمعناها ووعيناها وكان لها صداها فى أحياء مشاعرنا الوطنية؟ إننا إذ نحدد هذه البداية نكون قد اجتزأنا تاريخ الشعر الوطنى، وأغفلنا مرحلة سبقت شوقى وحافظ، وهذا ما لا يقره الحق والإنصاف ولايرضاه شوقى وحافظ، على علو كعبهما وبلوغهما الذروة بىن سعراء الوطنية.

فلنبحث إذن عن بداية سابقة على سوقى وحافظ.

إننى عندما أرخت مصطفى كامل بحثت فى بداية الحركة الوطنية الحدينة، وتساءلت هل تبدأ هذه الحركة بظهور مصطفى كامل فيكون تأريخه تاريخًا لها، أم أن لها بداية سبقت ظهوره؟ وعلى أننى تلميذ لمصطفى كامل وكان تتلمذى له هو من البواعث على إخراجى لتاريخه، كما نوهت إلى ذلك فى مقدمة كتابىَ عنه، فإنى قد وجدت من الإنصاف أن أبحث عن الأدوار التى تقدمت عصر مصطفى كامل، لأقف عند حدّ يصح اعتباره مبدأ الحركة القومية الحدينة، وانتهى بى البحث إلى أن بدايتها – فى تاريخ مصر الحديث – ترجع إلى أواخر القرن التامن عشر وأوائل التاسع عسر، وأن أول دور من أدوارها هو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر، ومن ثم تطورت الفكرة عندى من تأريخ لمصطفى كامل إلى تأريخ للحركة القومية، وعلى هذا الأساس أخرجت سلسلة هذا التاريخ.

وأرانى فى تأريخ الشعر الوطنى أميل إلى سلوك متل هذا المنهج، فرجعت فى بدايتـه إلى الماضى، ووجدت أن روح الوطنية – بمعناها الحديث – قد بدأت تدخل الشعر المصرى، وتبعث فيه من حياتها وبهائها، وتضفى عليه من جمالها، وجلالها منذ أوائل القرن التاسع عشر، وأول رائد لهذه النهضة هو رفاعة رافع الطهطاوى، فالى هذا العهد يجب أن نرجع ظهـور الشعر الوطنى فى مصر، وهكذا يبدو التقارب بىن ظهور الحركة الوطنية وظهور الشعر الوطنى فى تاريخنا الحديث.

فلنبدأ إذن برفاعة رافع الطهطاوى ولندرس تطور الشعر الوطنى من بعده إلى وقتنا الحاضر.

ويطيب لى فى صدد التنويه بشعراء الوطنية، أن أعتذر عما فاتنى من تـأريخهم، وأعوزنى الحديث عنهم، فأنى أقصد من شاعر الوطنية من تغلب عليه النزعة الوطنية فى شعره، فإذا كان فاتنى أن أتحدث عن بعض الشعراء الممتازين، فالأمر لا يعدو أن يكون رأيًا تقديريًّا، وأن يكون شعرهم الوطنى قد بدا لى مغمورًا فى بحر شعرهم الفياض، وهذا لا يغض بداهة من

منزلتهم فى عالم الشعر والأدب، وحسبى عذرا لى أن رأيى التقديرى فى تخيّر شعراء الوطنية كان نتيجة دراسات مستفيضة، عكفت عليها سنين عديدة، ولم أقتصر على ما وعتـه ذاكراتى من الشعر الوطنى فى مختلف المناسبات، ولا عـلى دواوين الشعراء، بـل ذهبت أستقصى الشعر الوطنى فى مجاميع الصحف والمجلات، عاما بعد عام، قرابة نصف قـرن من الزمـان، بحيث اكتملت لدى مجموعة من أشعار الوطنية، بعضها لم ينشر من قبل فى كتاب أو ديوان، ومع ذلك فإذا نبهنى القارئ الكريم إلى شاعر فاتنى الحديث عنه، ضمن شعراء الوطنية، فانى على أتم الاستعداد لتدارك هذا النقص فى الطبعة التالية من الكتاب، لأنى أود حقًّا أن أستكمل أى نقص بدا منى فى هذه الناحية، وليس أحب إلى نفسى من أن أسجل فى كتابى كل قصيدة بل كل بيت من الشعر الوطنى.

والله أسأل أن يكون فى هذه الدراسة ما يعين على نشر الأدب الوطنى وإذاعته، وتعميمه بين المواطنين، والحمد لله أولا وأخيرًا.

[illegible] سنة ١٩٥٤

عبد الرحمن الرافعى

رفاعة رافع الطهطاوى

١٨٠١ - ١٨٧٣



مصرىٌّ صميم، من أقصى الصعيد، نشأ نشأة عادية، من أبوين فقيرين، قرأ القرآن، وتلقى العلوم الدينية كما يتلقاها عامة طلبة العلم فى عصره، ودخل الأزهر كما دخله غيره، وصار من علمائه كما صار الكثيرون، ولكنه بذّ الأقران، وتفرد بالسبق عليهم، وتسامت شخصيته إلى عليا المراتب، ذلك أنه كان يحمل بين جنبيه نفسًا عالية، وروحًا متوثبة، وعزيمة ماضية، وذكاء حادًا، وشغفًا بالعلم، وإخلاصًا للوطن وبنيه، تهيأت له أسباب الجدِّ والنبوغ، فاستوفى علوم الأزهر فى ذلك العصر، ثم صحب البعثة العلمية الأولى من بعثات محمد على، وارتحل إلى معاهد العلم فى باريس، واستروح نسيم الثقافة الأوربية، فزادت معارفه، واتسعت مداركه، ونفذت بصيرته، لكنه احتفظ بشخصيته، واستمسك بدينه وقوميته، فأخذ من المدنية الغربية أحسنها، ورجع إلى وطنه كامل الثقافة، مهذب الفؤاد، ماضى العزيمة، صحيح العقيدة، سليم الوجدان، عاد وقد اعتزم خدمة مصر من طريق العلم والتعليم، فبرّ بوعده، ووفى بعهده، واضطلع بالنهضة العلمية تأليفًا وترجمة، وتعليما وتربية، فملأ البلاد بمؤلفاته ومعرباته، وتخرج على يديه جيل من خيرة علماء مصر، وحمل مصباح العلم والعرفان يضىء به أرجاء البلاد، وينير به البصائر والأذهان، وظل يحمله نيفًا وأربعين سنة، وانتهت إليه الزعامة العلمية والأدبية فى عصر محمد على، وامتدت زعامته إلى عهد اسماعيل، ذلك هو رفاعة رافع الطهطاوى[1].

ولد فى طهطا بمديرية جرجا سنة ١٨٠١ (١٢١٦ هـ)، وبدت عليه مخايل الذكاء والنباهة منذ صباه، ودخل الأزهر سنة ١٨١٧، ولم يمض عليه به بضع سنوات حتى صار من طبقة العلماء، وتولى التدريس فيه سنتين، وصنف وألف ودرس وهو فى الحادية والعشرين من سنه، ثم عين واعظًا وإماما فى أحد ألايات الجيش المصرى، ولما جاء عهد البعثات العلمية كان من حسن

---

(١) عن ترجمته فى كتابنا تاريخ الحركة القومية الجزء الثالث - عصر محمد على.

التوفيق أن اختاره محمد على ضمن أعضاء البعثة الأولى التى سافرت إلى فرنسا سنة ١٨٢٦، فجمع إلى ثقافته الأزهرية ثقافة أوروبا وعلومها وآدابها، فاقتبس منها الشيء الكثير، وازدهرت روحه الأدبية على ضوء الحضارة الغربية، ولما عاد إلى مصر سنة ١٨٣١ تولى عدة مناصب فى التعليم، وأنشأ مدرسة الألسن سنة ١٨٣٦، وكانت أشبه ما تكون بكلية الآداب والحقوق فى مصر، وكان رفاعة يتولى نظارتها ويلقى فيها دروسه على الطلبة، فكانت أكبر معهد لنشر الثقافة فى مصر، وتنقل فى المناصب العلمية، وكان لا يفتأ يؤلف ويخرج من حين لآخر مصنفاته ومعرباته فى العلوم والآداب إلى أن أدركته الوفاة سنة ١٨٧٣[٢].

وهو أول رائد لنهضة العلم والأدب فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، كان شاعرًا رقيقًا بالقياس إلى عصره، أشربت نفسه الوطنية منذ نعومة أظفاره، تلقاها من إيمانه الصادق (وحب الوطن من الإيمان)، ومن فطرته السليمة، وخلوص نيته، وقد استثار رحيله عن مصر إلى فرنسا عاطفته الوطنية العميقة المتأصلة فى نفسه الحساسة، فجادت قريحته وهو فى باريس بقصيدة عبرٍ فيها عن الحنين إلى الوطن وأهله، والإشادة بمفاخره، قال فى مطلعها:

ناح الحمامُ على غصون البانِ	فأباح شيمةَ مغرمٍ وَلْهانِ

وانتقل إلى التغنى بمصر وذكر محاسنها وقال:

هذا لعمرى إن فيها سادة	قد زُيِّنوا بالحسن والإحسان
يا أيها الخافى عليك فخارها	فإليك أن الشاهد الحسنان
ولئن حلفتُ بأنَّ مصر لَجَنَّةٌ	وقطوفها للفائزين دوان
والنيل كوثرها الشهى شرابه	لأبرُّ كلَّ البرِّ فى أيمانى

وله قصائد ومنظومات وطنية قالها فى مناسبات مختلفة.

فانظر إلى القصيدة الآتية تجدها تعبرِّ عما يجيش فى نفسه من أكرم العواطف وأنبلها، وقد قدمها هو بقوله «وقلت أيضًا وطنية»، فالروح الوطنية تتمشى حتى فى تقديمه لقصائده، قال:

ياصاحِ حُبُّ الوطن	حِلْيةُ كل فَطِنِ

* * *

مَحبَّةُ الأوطان	من شُعَب الإيما

(٢) راجع ترجمته تفصيلا فى كتابنا الحركة القومية الجزء الثالث – عصر محمد على

فى أفــخـر الأديـان　　آيـة كـل مـؤمـن

* * *

مسـاقـط الـرؤوس　　تـلـذ لـلـنـفـوس
تـذهب كـل بـوس　　عـنـا وكـلَّ حـزن

* * *

ومصـر أبهى مولـدٍ　　لـنـا وأزهى محـتـد
و مـربـعٍ ومعهدٍ　　لـلروح أو لـلبـدن

* * *

شُـدَّت بها العـزائم　　نيـطت بها التمـائمُ
لـطبعنـا تـلائـم　　فى السّر أو فى العلن

* * *

مـصـرُ لَهـا أيـاد　　عُليـا عـلى البـلاد
وفخـرهـا ينـادى　　مـا المجد إلاَّ ديـدنى

* * *

الكـونُ من مصر اقتبسْ　　نـورًا ومـا عنـه احتبس
فـخـرٌ قـديمٌ يؤثـرُ　　عـن سادة و يُنـشـرُ
زهـور مجـد تـنـُـر　　منهـا العـقـول تجتـنى

* * *

دارُ نـعـيـم زاهيـهْ　　ومعـدن الـرفـاهيـهْ
آمـرةٌ ونـاهـيـهْ　　قـدمْـاً لـكـل المـدن
قـوة مصر القـاهـرهْ　　على سـواها ظـاهَرَهْ
وبـالـعـمـار زاهـره　　خُصَّت بذكـرٍ حسن

* * *

أبنـاؤهـا رجـال　　لم يـسـنهـم محـال

وجُنْدُهم صَنديد وقلبه حديد
وخصمه طريد بل مُدْرَجٌ فى كفن

وقال من قصيدة أخرى يدعو إلى افتداء الوطن بالنفس والمال:

وعزيز الموطن نخدمه برضا فى النفس تحكمه
مالُ المصرى كذا دمهُ مبذول فى شرف الوطن
تفديه العين بناظرها والنفس بخير ذخائرها
تهدى فى نيل نظائرها بشرا العليا أعلى ثمن

وقال يصف الجيش المصرى ويشيد بمفاخره:

تُنَظِّمُ جندَنا نَظْما عجيبا يُعجز الفهما
بأُسْدٍ تُرْعبُ الخصما فمن يقوى يناضلنا ؟

* * *

رجالٌ مالها عددُ كمال نظامها العُددُ
حُلاها الدرع والزردُ سنان الرمح عاملنا

* * *

وهل لخيولنا شَبهٌ كرائم ما بها شُبَهٌ
إليها الكل منتبهٌ وهل تخفى أصائلنا؟

* * *

لنا فى الجيش فرسان لهم عند اللِّقا شان
وفى الهيجاء عنوان تهيم به صواهلنا
فها الميدان (والشقرا) سَقَتْ أذن العدا وَقْرا
كأنا نرسل الصقرا فمن يبغى يراسلنا

* * *

مَدَافِعنا القضا فيها وحُكْم الحتف فى فيها
وأهونُها وجافيها تجودُ به معامُلنا

* * *

لنا فى المدن تحصين وتنظيمٌ وتحسين
وتأييدٌ وتمكين منيعاتٌ معاقلُنا

وهذه الأبيات لمن خير ما قيل فى وصف الجيش المصرى، ولا شك أن رفاعة قد استلهم شعره من مفاخر الجيشفى عهده، فهو يصور العصر الذى عاش فيه تصويرًا صحيحًا، لا مبالغة فيه ولا إغراق، وإن قصيدته لتشبه أن تكون لوحة فنية يخيل لمن ينظر إليها أنه يلمح فيها كتائب الجيش المصرى تسير إلى ميادين الحرب، تحف بها أعلام النصر والظفر، تخوض غمار القتال، بقلوب ملؤها الشجاعة والإقدام، وتجابه الأخطار قوية الإيمان، ثابتة الجنان، مجهزة بالسلاح والمدافع «تجود به معاملنا»، ولو لم يشهد رفاعة مفاخر الجيش المصرى فى ذلك العصر، لما جادت قريحته بهذا الشعر، وهكذا يتأثر الشاعر والأديب بالعصر الذى يعيش فيه، والبيئة التى تحيط به، ويصور الحياة على عهده فكأنما هو قطعة من عصره، أو مرآة تنطبع فيها مشاهد الحياة السياسية والاجتماعية، ومظاهر الحالة الفكرية والأخلاقية.

وإنك لتلمح أيضًا عظمة الجيش المصرى من قول رفاعة فى قصيدة أخرى يخاطب فيها الجنود:

يا أيها الجنودُ والقادة الأسود
إنْ أمَّكم حسودُ يعودُ هامِى المدْمَعِ
فكم لكُم حروبُ بنصركم تؤوبُ
لم تَثْنِكُم خُطوبُ ولا اقتحامُ مَعْمَعِ

* * *

وكم شهدتم منْ وغى وكم هزمتم مَنْ بغى
فمن تعدَّى وطغى على حِمَاكم يُصرَعُ

وتتجلى روحه الوطنية المتطلعة إلى الحرية فى تعريبه نشيد الحرية (المارسلييز)، فإن النفس لا تميل إلا إلى ما هو محبب إليها، فهذا النشيد قد استثار ولا شك إعجاب رفاعة رافع، حتى مالت نفسه إلى تعريبه، وإظهار ما احتواه من العواطف الوطنية الفدائية فى حلة عربية قشيبة.

وإذا تأملت فى شعر رفاعة رافع الذى نقلنا طرفا منه وجدت فيه تقدمًا نسبيًا إذا قارنته بأسلوب شعراء المدرسة القديمة التى سبقته، كالشبراوى والعطار والخشاب وغيرهم، ويعد شعره دور الانتقال إلى دولة الشعر الحديثة التى حمل لواءها البارودى، وإسماعيل صبرى، وشوقى، وحافظ.

حقًا إننا إذا وضعناه إلى جانب شعر شوقى مثلا، لجاء فى المرتبة الثالثة، أو الرابعة، ولكن يجب ألا ننسى أن رفاعة رافع نشأ فى عصر كانت اللغة العربية وآدابها فى دور تأخرها واضمحلالها، فله على نهضة الشعر والأدب فضل لا ينكر.

* * *

عبد الله نديم

١٨٤٥ - ١٨٩٦



ظل الشعر فى مصر بعد وفاة رفاعة رافع الطهطاوى خلوًا من المعانى الوطنية، إلى أن تجددت فى شعر عبد الله نديم.

هو خطيب الثورة العرابية، وهو أيضًا شاعرها، انطبعت فى خطبه وقصائده روح الوطنية المتدفقة، وروح الثورة.

ولد سنة ١٨٤٥ بالإسكندرية، وبدت عليه منذ صباه مخايل الذكاء اللامع، وظهرت مواهبه فى الترسل فى الكتابة والشعر والزجل، والقدرة الخطابية، مع خفة فى الروح، وميل إلى الفكاهة، وجرأة وإقدام، واستخفاف بأحداث الزمان.

ولما ظهرت الثورة العرابية أوائل ١٨٨١، انضم إليها بطبعه، إذ كانت نفسه تتأجج وطنية، وتتطلع إلى الحرية والمجد، وتجلت مواهبه الخطابية، فصار خطيب الثورة العرابية.

ومما يذكر عنه فى صدد الحديث عن شعره الوطنى أنه لما سافر الألاى السودانى الذ كان يقوده الأميرالاى عبد العال حلمى أحد زعماء الثورة من القاهرة إلى دمياط، فى أوائل أكتوبر سنة ١٨٨١. كان سفره يومًا مشهودًا، فاحتشدت الجموع فى محطة العاصمة لتحية الآلاى حين سفره. وكان من بين المودعين عرابى والبارودى وعبد الله نديم، فوقف النديم وسط هذا الجمع الحاشد وألقى خطبة حماسية فياضة، بدأها بقوله مخاطبًا رجال الجيش:

«حماة البلاد وفرسانها!

«من قرأ التواريخ وعلم ما توالى على مصر من الحوادث والنوازل عرف مقدار ما وصلتم إليه من الشرف وما كتب لكم فى صفحات التاريخ من الحسنات.

إلى أن قال: وهذا وطنكم العزيز أصبح يناديكم ويناجيكم ويقول:

إليكم يُـرَدُّ الأمر وهـو عـظيم ... فـإنى بكم طـول الـزمـان رحيم
إذا لم تكـونـوا للخـطوب وللردى ... فمن أيـن يـأتى للديـار نعيم؟
وإن الفتى إن لم ينـازل زمـانـه ... تـأخـر عـنـه صـاحبٌ وحميم
فـرُدُّوا عنـان الخيـل نحـو مخيم ... تـقلبـه إبـين البـيـوت نـسيم
وشدوا له الأطراف من كل وجهة ... فمشدود أطـراف الجهـات قـويم
إذا لم تكن سيفًـا فكن أرض وطأة ... فـليس لمغلول اليـدين حـريم

وختم خطبته بقوله: وأحسن ما يؤرخ به اسم الجهادية عند النوازل أن يقال (مات شهيد الأوطان!)، فنادى الجميع (رضينا بالموت فى حفظ الأوطان!).

ولما شبت الحرب العرابية لازم النديم عرابى كفر الدوار ثم فى التل الكبير، وكانت مجلته (الطائف)، تصدر فى معسكر الجيش المصرى.

وبعد أن وقعت الهزيمة، ظل مخلصًا للثورة فى محنتها، فبرهن على وفاء نادر ووطنية أصيلة عميقة، وكان ممن أمرت الحكومة باعتقالهم، وعجزت عن التعرف إلى مقره والقبض عليه، وظل مختفيًا عن عيونها وجواسيسها نحو تسعة أعوام، وأعيا الحكومة أمره، وجعلت ألف جنيه لمن يرشد عنه، ولكنها لم تهتد إليه.

وقد وصف ما لقيه من الشدائد أثناء اختفائه فى قصيدة تفيض وطنية وإيمانًا وفخرًا وشجاعة، وهى من غرر قصائده. قال:

أتحسبنـا إذا قلنـا بـلينـا ... بلينـا أو يـروم القلب لـينـا
نعم للمجـد نقتحم الـدواهـى ... فيحسب خـامـل أنـا دُهينـا
تنـاوشنـا فتقهـرنـا خـطوب ... تـرى ليث العرين لها قـرينـا
سـواء حـربهـا والسلم إنـا ... أنـاس قبـل هـدنتهـا هـدينـا

إلى أن قال:

إذا مـا الدهـر صافـانا مـرضنا ... فـإن عدنـا إلى خـطب شفينـا
لنـا جلد عـلى جـلد يقـينـا ... فـإن زاد البـلا زدنـا يقينًـا
ألفنـا كـل مكـروه تفـدى ... لـه فـرسـانـه بـالـراجلينـا
فـأعيـا الخـطب مـا يلقـاه منـا ... ولكنـا صحـاح مـا عيـينـا

* * *

سلينـا يا خـطوب فقد عـرفنـا — بـأنـا الصلب صلنـا أو صلينـا
وقـرى فـوق عـاتقنـا وقـولى: — نـزلت اليوم أعـلى طـور سينـا
عـلينـا لـلعـلا دين وضـعنـا — عليـه الروح لا الـدنيـا رهينـا
فهـل يمسى رهـين فى سـرور — وهـل تلقى بـلا كـدر مـدينـا؟
إذا مـا المجـد نـادانـا أجبنـا — فيـظهـر حـين ينـظرنـا حنينـا
يـغنـينـا فـيلهـينـا الـتـغنـى — عن البـاكى وينسينـا الحـزينـا
ولسنـا السـاخـطين إذا رزئنـا — نعم يلقى القضـا قلبـا رزينـا
فـإنـا فى عـداد النـاس قـوم — بمـا يـرضى الإلـه لنـا رضينـا
إذا طـاش الزمـان بنـا حلمنـا — ولـكـنـا نُهيـنـا أن نهينـا

إلى أن قال:

سلوا عنـا (منـابـرنـا) فـإنـا — تـركنـا فى منصتهـا فـطينـا
لحكمتنـا تـقـول إذا هـذرتم — ألا هبى بصحيتك فـاصبحينـا
سَـرىً فينـا من الآبـاء سِـرٌ — يسـوق الـبر نحـو المعـوزينـا
فـإن عشنـا منحنـا سـائلينـا — وإن متنـا نفحنـا الـزائـرينـا

وقال يصف إحاطة الجند بالمنزل الذى كان فيه يريدون اعتقاله فنجاه الله من شرهم:

أأنسى يـوم مصـر والبـلايـا — تـطاردنى ولا ألـقى مـعـينـا
فكنت[1] الغـوث فى يوم كـريه — أخـاف الشهم والحـبر السمينـا
مُـدحنا فيـه فى إشـراق شمس — فلما جـاء مغـربـه هُجينـا!
وهـل أنسى هجوم الجنـد عمرًا — بـلا علم وقـد كنـا فجينـا
أحـاطوا بى وسدوا كـل بـاب — وصـرنا بـين أيـدى البـاحثينا
وكـان السـطح مملوءًا بجنـد — وخلف البيت كم وضعـوا كمينا
فـأدركت الوحيـد وكان صيـدًا — قـريبًـا من فخـاخ الـطالبينـا
وأرشـدت النـديم إلى مكـان — رآه بعـد حيـرتـه مـكينـا
وأعمى الله عنـا كـل عـين — وكنـا للعسـاكـر نـاظـرينا
وصـرنا فـوق سـطح فيـه علو — يحـطم هـاويًـا منـه متينـا

(١) الخطاب هنا وفى الأبيات التالية موجهة إلى الرسول ﷺ، والنديم شريف النسب

فلم أرهب ونوبى من طمار ولم أنظر شمالا أو يمينا
ويوم الغيظ كنت لنا مجيرا بسطوته من البلوى حمينا
فقد كنا بلا ستر يرانا أمام العين كل القاصدينا
وكم سرنا بلا خوف جهارا ركبنا الخيل أو جئنا السفينا
وإنى الآن فى خطب عظيم أرى فى طيِّه داء دفينا
أتانا مخبرٌ عن قوم سوء أرادوا وصفنا للحاكمينا
وخاف الضُّرَّ أحبابى جميعًا وقالوا لى بالوشاية قد رمينا
فعجل بالرحيل بلا توان ولا تخبر صديقا أو خدينا
فأدرك يا أبى نجلا دهاه من الأهوال ما يوهى البدينا
فما خفت المنون ولا الأعادى نعم خفت انشراح الشامتينا

* * *

فسرتُ الليل يصحبنى نبات لخِلّ نحو منزله دُعينا
ورافقنى خليل كان قبلا يوافى حين كنا ظاهرينا
وأدركنا القطار بغير خوف وكنا بالثياب منكرينا
وألقى الله ستر الحفظ فضلا فلم ترنا عيون المبلسينا
وكان الخل منتظرًا قدومى بخيل أوصلتنا سالمينا
ونجىّ الله بعد اليأس عبدا يرى الرحمن خير المنقذينا

وإنك لترى هذا الشعر أقوى فى الروح والأسلوب من شعره فى إبان الثورة. وهكذا يبدو أن الهزيمة لم تنل منه، بل زادته قوة وحيوية، وصلابة وبلاغة، وأن الشدائد صقلت مواهبه كما تصقل المعادن وتجلى جواهرها فى لهب النار، فاحتفظ النديم فى سنى المحنة بما حباه الله من إيمان صادق، وعزم ثابت، وصمود على الأيام، وكذلك الشدائد والمحن، يختلف أثرها فى نفوس الناس، فبينما تبعث اليأس والجزع فى النفوس الضعيفة، نراها على العكس تزيد النفوس الكبيرة ثباتًا وصبرًا، وشجاعة وإيمانًا، ومن هنا جاء شعر النديم بعد هزيمة الثورة أقوى منه فى أوج انتصارها.

وفى الحق أن النديم هو الزعيم الوحيد بين الزعماء العرابيين الذى استمر فى جهاده ضد الانجليز ونضاله عن مصر فى عهد الاحتلال، وتلك لعمرى ميزة كبرى جديرة بأن تحيط اسمه بهالة من المجد والخلود، وقد اهتدت الحكومة إلى مكانه سنة ١٨٩١ وقررت نفيه إلى خارج

القطر، وفى أوائل عهد الخديو عباس الثانى عَفى عنه ورخص له بالعودة إلى مصر، فعاد إليها، وأنشأ مجلة (الأستاذ) سنة ١٨٩٢ فتجلت فيها روحه الوطنية التى لم تضعفها الهزيمة ولم تنل منها الشدائد، مما أحفظ عليه الإنجليز وصنائعهم، فتدخل اللورد كرومر، وأمر بإبعاده عن مصر ثانية، فاضطر إلى تعطيل صحيفته سنة ١٨٩٣، وودع قراءه وداعًا مؤثرًا فى آخر عدد صدر منها (فى ١٣ يونيه سنة ١٨٩٣) قال:

«ما خلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ومصادمة النوائب، والعاقل يتلذذ بما يراه فى فصول تاريخه من العظمة والجلال، وإن كان المبدأ صعوبة وكدرا فى أعين الواقفين عند الظواهر، وعلى هذا فإنى أودع إخوانى قائلا:

أودعكم والله يعلم أننى ... أحب لقاكم والخلود إليكم
وما عَنْ قِلى كان الرحيل وإنما ... دَواعٍ تبدَّت فالسلام عليكم!

وانتهى به المطاف فى منفاه إلى الآستانة حيث توفى سنة ١٨٩٦، وشيعت جنازته فى احتفال مهيب مشى فيه كثير من العلماء والكبراء، يتقدمهم السيد جمال الدين الأفغانى، ودفن هناك.

بالأمس كان غريبًا فى ديارهم ... واليوم صار غريب اللحد والكفن!

* * *

محمود سامى البارودى

١٨٤٠ - ١٩٠٤



محمود سامى البارودى هو إمام الشعراء المحدثين قاطبة، وباكورة الأعلام فى دولة الشعر الحديث، وأول من نهض به وجارى فى نظمه فحول الشعراء المتقدمين، فبعث النهضة الشعرية من مرقدها بعد طول الخمود.

ولد سنة ١٨٤٠، وهو ابن حسن بك حسنى من ضباط المدفعية فى الجيش المصرى، وحفيد عبد الله الجركسى أحد الكشاف فى عهد محمد على، وسمى البارودى نسبة إلى إيتاى البارود التى كان أحد أجداده الأمير مراد البارودى ملتزمًا لها فى عهد الالتزام.

وقد تلقى العلم أول ماتلقاه على أيدى أساتذة خصوصيين فى سراى والده بغيط العدة (القريبة من باب الخلق) والمعروفه بسراى البارودى. ولما بلغ الثانية عشرة من عمره انتظم فى المدرسة الحربية، وتخرج منها سنة ١٨٥٥، والتحق بخدمة الجيش المصرى، وأخذ يترقى حتى بلغ رتبة أميرالاى، وخاض غمار الحروب فى ثورة كريد سنة ١٨٦٦، إذ كان ضابطًا فى الجيش الذى أنفذته مصر لإخماد تلك الثورة وانتصر على الثوار فى مواقع عدة.

ولما شبت الحرب بين تركيا والروسيا سنة ١٨٧٧ أنفذت مصر جيشًا لنجدة تركيا كان البارودى من ضباطه، وأبلى فى الحرب بلاء حسنا، وصقلت المعارك مواهبه الشعرية، ولما عاد إلى مصر رقى إلى رتبة اللواء، وعين مديرًا للشرقية، وكان محافظا للعاصمة حين ألف شريف باشا وزارته الثانية سنة ١٨٧٩ فى أوائل عهد الخديو توفيق، فاختاره فيها وزيرًا للمعارف والأوقاف، واشترك فى حوادث الثورة العرابية، وكان من زعمائها المشار إليهم بالبنان، وتولى رآسة وزارة الثورة سنة ١٨٨٢، ثم كانت الهزيمة، ونفى مع زملائه إلى جزيرة سيلان (سرنديب) وظل فى منفاه نيفا وسبعة عشر عاما، واسبغ عليه النفى سمات التضحية والبطولة[١].

---

(١) راجع ترجمته تفصيلا فى كتابنا (الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى).

الحنين إلى الوطن

كانت حياة زعماء الثورة العرابية فى منفاهم حياة ألم وحزن، إذ انقطعت صلتهم بالناس، وطال اغترابهم عن أرض الوطن، وبعدت الشقة بينهم وبين أهليهم ومواطنيهم، ولم يكترث لهم أحد، ولم يعطف عليهم أحد (والناس مع الغالب!)، وجادت قريحة البارودى بشعر مؤثر فى الحنين إلى الوطن، والحزن على فراقه، مما يعد آية فى البلاغة، وبلغت سليقته الشعرية فى منفاه ذروة العظمة والجلال.

قال يصف الرحيل عن أرض الوطن:

مَحَا البينُ ما أبقت عيون المها منى ... فشبْتُ ولم أقض اللُّبانة من سنِّ
عَنَاءٌ ويأسٌ واشتياقٌ وغربةٌ ... ألا شَدَّ ما ألقاه فى الدهر من غبن

إلى أن قال:

ولما وقفنا للوداع وأسبلتْ ... مدامعنا فوق الترائب كالمزن
أهبت بصبرى أن يعود فبزَّنى ... وناديت حلمى أن يثوب فلم يغن
وما هى إلا خطوة ثم أقلعت ... بنا عن خطوط الحىّ أجنحة السفن
فكم مهجة من زفرة الشوق فى لظى ... وكم مقلة من غرزة الدمع فى دجن
وما كنت جربت النوى قبل هذه ... فلما دهتنى كدت أقضى من الحزن
ولكنى راجعت حلمى وَرَدَّنى ... إلى الحزم رأى لا يحوم على أفن
ولولا بنيات وشيب عواطل ... لما قرعت نفسى على فائت سنى

الصبر على الشدائد

وتجلت فى منفاه صفاته العالية من الشمم، وعلو النفس واحتمل آلام النفى بشجاعة وإباء، وصبر وإيمان، وله فى ذلك شعر يفيض بهذه المعانى السامية.

قال وهو فى سرنديب (سيلان):

لم أقترف زِلَّةً تقضى علىَّ بما ... أصبحت فيه فماذا الويل والحَرَب؟
فهل دفاعى عن دينى وعن وطنى ... ذنب أدان به ظلمًا وأغترب؟
فلا يظن بى الحساد مندمة ... فإننى صابر فى الله محتسب

أنــربت مجدًا فلم أعبــأ بمــا سلَبتْ ... أيــدى الحــوادث منى فهـــو مكتسب

لا يخفض البؤس نفسًــا وهى عـاليــة ... ولا يشيد بـذكـر الخـامـل النشب[1]

وقال متبيرًا إلى مصادرة أملاكه:

يــانـاصـــر الحق عـلى البــاطـل ... خُـذْ لى بحقى من يـدى مــاطـلى

أخــرجـنى عــما حـوتـه يـدى ... من كسبى الحـر بـلا نــاطــل[2]

من غـــير مـاذنب ســوى منـطق ... ذى رونق كـالصـارم القــاطـل[3]

فــإن أكـن جُــرِّدت من ثــروتى ... فـفضـــل ربى حـليـــة العـــاطـل

وقال من قصيدة أخرى فى مقاومة الظلم والصمود أمام المحن والخطوب:

إذا المـرء لم يدفـع يـد الجـور إن سَـطَتْ ... عـليــه فــلا يــأسف إذا ضــاع مجــدُهُ

ومن ذلَّ خـوف المـوت كــانت حيـاتــه ... أضـــرَّ عــليــه مـــن حمــام يــؤدُّهُ

وأقْـتــل داء رؤيـــة الــعـــين ظــالمــا ... يـسىء ويُـتْـلى فى المحــافــل حمـــده

عـلام يعيش المـرء فى الــدهـر خـامـلا ... أيـفـــرح فى الــدنـيــا بـيــوم يَـعــدُه؟

عَفـــاءٌ عـلى الــدنيـا إذا المـــرء لم يعش ... بهــا بــطلا يحـمـى الحـقـيـقـة شَــدُّه

وقال فى هذا المعنى:

أمـــطرى لؤلؤًا جبـال (ســرنـديـ ... ـب) وفيضى آبـار (تكـرور) تبـــرا

أنــا إن عشت لست أعـدم قـوتـا ... وإذا مــت لســـت أعـــدم قـبـــرًا

هِمَّـــتى همـــة الملـوك ونــفـــســـى ... نفس حـــرٍّ تـرى المــذلـة كفـــرًا

ومن قوله فى الحنين إلى الوطن والصبر على الشدائد:

فيـا دمـوع القـطر سيـلى دمًـا ... ويـا بنـات الأيـك نُـوحى معى

وأنت يـانَسْمَـة (وادى) الغضـا ... مُـرِّى بـريًّـــاك عـلى مـــربعى

وأنت يــا عصـفـــورة المنـحنَى ... بـــالله غَنِّى طـــربًـــا واسجـعى

وأنـت يـــاعـــين إذا لم تـفــى ... بــذمـه الــدمــع فــلا تهجعى

---

(١) النشب: المال والعقار.

(٢) الناطل: الشىء القليل.

(٣) القاطل: القاطع

أبيت أرعى النجم فى سدفة ... ضلَّ بها الصبح فلم يطلع

* * *

فهل إلى الأشواق من غاية ... أم هل إلى الأوطان من مرجع؟
لا تأسَ يا قلبُ على ما مضى ... لابد للمحنة من مقطع

يتمنى أن يرى مصر

وقال فى منفاه يتمنى أن يرى مصر:

يا حبذا جرعةٌ من ماء مَحْنِية ... وضجعة فوق برد الرمل بالقاع[١]
ونَسْمةٌ كسميم الخلد قد حملت ... ريَّا الأزاهر من مِيثٍ وأجراع[٢]
ياهل أرانى بذاك الحى مجتمعًا ... بأهل ودى من قومى وأشاعى؟

وقال فى هذا المعنى:

أبيت حزينًا فى (سرنديب) ساهرًا ... طوال الليالى والخَليون هُجَّدُ
إذا خطرت من نحو (حلوان) نسمة ... نَزَتْ بين قلبى شعلة تتوقد
شبابٌ وإخوانٌ رزئتُ ودادهم ... وكل امرئ فى الدهر يشقى ويسعد!

ومن قصيدة له فى هذا المعنى قالها فى منفاه يتشوق إلى الوطن:

هل من طبيبٍ لداء الحب أوراقى ... يشفى عليلًا أخا حزن وإيراق[٣]
قد كان أبقى الهوى من مهجتى رمقًا ... حتى جرى البَيْنُ فاستولى على الباقى

وفيها يقول:

ياروضة النيل لامَسَّتْكِ بائقةٌ ... ولا عدتك سماءٌ ذات إغداق[٤]
ولا برحت من الأوراق فى حُلَلٍ ... من سندس عبقرىٍّ الوشى برَّاق
يا حبذا نَسمٌ من جوها عَبِقٌ ... يسرى على جدول بالماء دفَّاق
مَرْعَى جيادى ومأوى جيرتى وحِمَى ... قومى ومنبتُ آدابى وأعراقى

---

(١) المحنيه. ما انحنى من الأرض
(٢) الميث. جمع ميثاء الأرض اللينة
(٣) الراقى. اسم فاعل من رقاه يرقيه أى عوده فهو راق.
(٤) البائقة الداهية والبلية ولا عدتك أى لا تجاوزتك

أصبــوا إليـهــا عــلى بُعــدٍ ويعجبنى　　أنى أعــيش بهــا فى ثــوب إمــلاق
وكيف أنـسى ديــارًا قــد تــركـتُ بهــا　　أهــلًا كــرامًــا لهم ودى وإشفــاقــى

* * *

فيــا بــريــدَ الصَّبــا[1] بلِّغ ذوِى رحمى　　أنى مقيم عــلى عـهــدى وميـثــاقــى
وأنــت يــا طــائــرًا يبكى عــلى فَنَنٍ　　نـفسى فـداؤك مـن ســاقٍ إلى ســاق
أذكــرتنى مــا مضى والشمــل مجتمــعٌ　　بمصــر والحــربُ لم تنهض عــلى ســاق

وقال أيضًا فى منفاه:

رُدُّوا عــلىَّ الصبا من عصــرى الخــالى　　وهــل يعــود ســوادُ اللمــة البــالى؟
مــاض مــن العيش مــالاحت مخــايـله　　فى صفحــة الـفكــر إلا هــاج بلبــالى
أدهى المصــائـب غــدر قبــله ثـقــة　　وأقبــح الـظلم صَــدٌّ بـعــد إقــبــال

* * *

لا عـيب فىّ سـوى حـريـة مـلكت　　أعـتنى عــن قبــول الــذل بــالمــال
قـلبى سليـم ونـفـسى حـرة ويــدى　　مــأمــونــة ولـســانى غـير خــتــال
بـلوت دهــرى فـما أحمــدت سيــرتــه　　فى ابــق مــن لـيــالــيــه ولا تــالى
حليت شــطريــه من يســر ومعســرة　　وذقـت طعـميــه من خـصب وإمحــال
لم يـبـق لى أرب فى الــدهــر أطــلبــه　　إلا صــحــابــة حــر صــادق الخــال
وأيــن أدرك مــا أبـغــيــه من وطــر؟　　والصدق فى الـدهــر أعيا كــل محتال
لا فى (ســرنــديـب) لى إلْــفٌ أجــاذبــه　　فضــل الحــديث ولاخــلّ فـيــرعى لى
أبـيت مــنـفــردا فى رأس شــاهــقــة　　مثــل القطامى فــوق المربــأ العــالى
إذا تــلفَّتُّ لم أبــصــر ســوى صــور　　فى الــذهن بــرسمهــا نقــاش آمــالى

* * *

عــلام أجــزع والأيــام تــشــهــد لى　　بصــدق مــا كــان من وسمى وإغفــالى
راجـعت فـهــرس آثــارى فــما لمحت　　بصيــرتى فيــه مــايُــزْرى بــأعمــالى
فكيف ينـكــر قــومى فـضــل بــادرتى　　وقــد ســرتْ حِـكَمى فيـهم وأمثــالى

---

(١) الصبا بالفتح. ريح معروفة.

أنـا ابن قـولى وحسبى فى الفخـار بـه ... وإن غـدوت كـريـم الـعـم والخـال
ولى مـن الـشـعـر آيـات مـفـصـلة ... تـلوح فى وجـنـة الأيـام كـالخـال
ينسى لهـا الفـاقـد المحزون لـوعتـه ... ويهـتـدى بـسـنـاهـا كـل قـوال
فـانـظر لقـولى تجـد نفسى مصـورة ... فى صـفـحـتـيـه فـقـولى خط تمثـالى
ولا تـغـرنـك فى الـدنـيـا مـشـاكـلة ... بـين الأنـام فليس النبـع كـالضـال
إن ابـن آدم لـولا عـقـلـه شَـبَـحٌ ... مـركـب مـن عـظام ذات أوصـال

ومن قصيدة له يتشوق إلى مصر:

خليـلىّ هـذا الشـوق لاشـك قـاتـلى ... فميلا إلى (المقياس) إن خفتـما فقدى
ففى ذلـك (الوادى) الـذى أنْبَتَ الهـوى ... شفـائى من سقمى وبـرئى من وجـدى

وقال فى هذا المعنى:

طـال شـوقـى إلى الـديـار ولـكـن ... أين من (مصـر) من أقام (بكنـدى)[1]
حبـذا (النيـل) حـين يجـرى فيبـدى ... رونـق الـسـيـف واهـتـزاز الـفـرنـد
تـتـثـنى الـغـصـون فى حـافـتـيـه ... كـالعـذارى يسحبـن وشى الـفـرنـد
قـلدتهـا يـد الـغـمـام عـقـودا ... هـى أبهـى مـن كـل عـقـد وبـنـد
كـيـف لا تهـتـف الحـمـام عـليـه ... وهـى تسـقى بـه سـلافـة قـنـد
كـلما صـورتـه نـفـسـى لـعـيـنى ... قـدح الـشـوق فى الـفـؤاد بـزنـد

الحنين إلى الأهل والولد

وقال فى منفاه وقد رأى فى المنام ابنته الوسطى:

تـأوَّبَ[2] طـيفٌ مـن (سمـيـرة) زائـرٌ ... ومـا الـطيف إلا مـا تُـريـه الخـواطـر
طـوى سُدْفَـة[3] الـظلماء والليـل ضـاربٌ ... بـأوراقـة والنجـوم بـالأفق حـائـر
فـيـالـك مـن طـيـفٍ ألم ودونـه ... محيط مـن الـبـحـر الجـنـوبى زاخـر
تخـطّى إلىّ الأرض وَجْـدًا ومـا لـه ... سـوى نـزوات الشـوق حـادٍ وزاجـر
ألمّ ولم يـلبـث وسـار ولـيـتـه ... أقـام ولـو طـالـت علىّ الـديـاجـر

---

(١) كندى مدينة صغيرة فى جزيرة سيلان (سرنديب).

(٢) تأوب. أى أتى ليلا.

(٣) السدفة. الستر.

تحمل أهوالَ الظلام مخاطرا ... وعهدى بمن جادت به لا تخاطر

«خماسية[١]» لم تدر ما الليل والسرى ... ولم تنحسر عن صفحتيها الستائر

فيا بُعْدَ ما بينى وبين أحِبَّتى ... ويا قرب ما التفتَّ عليه الضمائر

ولولا أمانى النفس وهى حياتها ... لما طار لى فوق البسيطة طائر

فان تكن الأيام فرّقن بيننا ... فكل امرىء يوما إلى الله صائر

إلى أن قال:

فلا يشمت الأعداء بى فلربما ... وصلتُ لما أرجوه بما أحاذر

فقد يستقيم الأمر بعد اعوجاجه ... وتنهض بالمرء الجدود العواثر

ولى أمل فى الله تحيا به المُنى ... ويُشرق وجه الظن والخطبُ كاشرُ

إذا المرء لم يركن إلى الله فى الذى ... يحاذره من دهره فهو خاسر

وإن هو لم يصبر على ما أصابه ... فليس له فى معرض الحق ناصر

ومن لم يذق حلو الزمان ومُرَّه ... فما هو إلا طائش اللب نافر

علَّى طِلابُ العِزِّ من مستقره ... ولا ذنب لى إن عارضتنى المقادر

إلى أن قال:

فان كنت قد أصبحتُ فَلّ[٢] رزية ... تقاسمها فى الأهل بادٍ وحاضر

فكم بطلٍ فلَّ الزمان شَبَاتَهُ ... وكم سيّد دارت عليه الدوائر

فسوف يبين الحق يوما لناظرٍ ... وتنزو[٣] بعوراء الحقود السرائر

وما هى إلا غمرة ثم تنجلى ... غيابتها والله من شاء ناصر

فقد حاطنى فى ظلمة الحبس بعدما ... ترامت بأفلاذ القلوب الخناجر

* * *

فمهلاً بنى الدنيا علينا فإننا ... إلى غاية تَنْفتُّ فيها المرائر

تطول بها الأنفاس بُهْرًا[٤] وتلتوى ... على فلكة الساقين فيها المآزر

(١) أى بنت خمس سنوات.
(٢) فل. أى منهزم.
(٣) تنزو: تطمح يقال: نزا به قلبه طمح.
(٤) بهرا بالضم تتابع الأنفاس من الإعياء فى اللسان.

هنـــالــك يـعـلو الحـق والحـق واضـحٌ ويـســفُـل كــعــب الــزور عــاثــر
وعــما قـلـيـل يـنـتـهـى الأمــر كـلـه فــما أولٌ إلا ويــتـلـوه آخــر

يشيد بعظمة الأهرام

قال يصف (الأهرام) ويشيد بعظمتها:

سل (الجيزة) الفيحـاء عن (هرمى) مصر لعلك تـدرى غيب مـا لم تـكن تـدرى
بـنـاءان رَدَّا صـولـة الـدهـر عنهـما ومن عجب أن يغلبـا صـولـة الـدهـر
أقــامــا عــلى رغم الخـطوب ليشهـدا لبـانيهـما بـين البـريـة بـالـفـخـر
فكم أمـم فى الــدهــر بــادت وأعصـر خلت وهمـا أعجـوبـة العـين والفكـر
تـلـوح لآثـار الـعـقـول عـلـيـهـما أسـاطـير لا تنفـك تتـلى إلى الحشـر
رمـوز لـو استـطلعت مكنـون سـرهـا لأبصـرت مجمـوع الخـلائق فى سـطر
فـما مـن بنـاء كـان أو هـو كـائـن يـدانيهـما عـنـد الـتـأمـل والخـبر

وختمها بقوله:

فيـا نسمـات الفجـر أدى تحيتى إلى ذلـك البرج المـطل على النهر
ويالمعات البـرق إن جزت بـالحمى فصـوبى عليها بـالنثار من القـطر
عـليهـا سـلام مـن فؤاد مـتـيـم بهـا لا بربـات القلائـد والشذر[١]
ولا برحت فى الدهـر وهى خوالـد خلود الدراى والأوابد من شعـرى

شعر القتال

ومن قصيدة له فى إحدى المعارك التى خاضها، ويبدو منها مبلغ شجاعته وصبره على أهوال القتال.

ولما تـداعى القـوْل واشتبـك القنـا ودارت كـما تهوى عـلى قطبهـا الحرب
وزُيّن للنـاس الـفـرار من الـردى وماجت صدور الخيـل والتهب الضرب
ودارت بنـا الأرض الفضـاء كـأننا سقينـا بكـأس لا يفيق لهـا شـرب
صبـرت لهـا حتى تجلت سمـاؤهـا وإنى صـبـور إن ألم بى الخـطب

---

(١) الشذر: صغار اللؤلؤ.

الفساد فى عهد إسماعيل

وقال من قصيدة يصف سوء الحكم وظلم الحكام فى عهد إسماعيل، وينصح قومه بالمطالبة بحقوقهم والمبادرة بإصلاح شؤونهم قبل أن تسوء العقبى، وهى من شعره السياسى الوطنى الرائع:

قامت به من رجال السوء طائفة — أدهى على النفس من بؤس على ثكل
من كل وغد يكاد الدست يدفعه — بغضًا ويلفظه الديوان من ملل
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت — قواعد الملك حتى ظل فى خلل

إلى أن قال:

فبادروا الأمر قبل الغوث وانتزعموا — شكالة الريث فالدنيا مع العجل
وطالبوا بحقوق أصبحت غرضًا — لكل منتزع سهمًا ومختتل
حتى تعود سماء الأمن ضاحية — ويرفل العدل فى ضفاف من الحلل

الجيش والدستور

وقال فى أوائل عهد الخديو توفيق يدعو إلى الشورى وتقوية الجيش:

أمران ما اجتمعا لقائد أمة — إلا جنى بهما ثمار السؤدد
(جمْع) يكون الأمر فيما بينهم — (شورى) وجند للعدو بمرصد

يندد بالدسائس

وقال من قصيدة يشكو فيها من الدسائس التى كانت تحاك حوله:

نقموا على حميتى فتألبوا — حزبا على وجمعوا ما أجمعوا
وسعوا بفريتهم فلما صادفوا — سمعا يميل إلى الملام توسعوا
لا عيب فىَّ سوى حمية ماجد — والسيف يغلبه المضاد فيقطع

يحث على الاعتدال، ويستنكر الذل

قال فى هذا المعنى:

إذا شئت أن تحيا سعيدًا فلا تكن — لدودًا ولا تدفع يد اللين بالقسر
ولا تحتقر ذا فاقة فلربما — لقيتَ به شهما يبرّ على المثرى

فـرُبَّ فـقـير يمـلأ الـقـلـب حـكـمـةً ورُبَّ غـنى لا يـريش ولا يـبـرى[١]
وكن وسطًا لا مشرئبًا إلى السُّهى ولا قانعًا يبغى التزلف للصُّفر[٢]
فأحمد أخلاق الفتى ما تكافأت بمنزلةٍ بين التواضع والكبر
ولا تعترف بالذل فى طلب الغنى فإن الغنى فى الذل شرٌّ من الفقر

العودة إلى الوطن

وقد عاد إلى الوطن سنة ١٩٠٠ بعد أن فقد نور عينيه فى منفاه، فاستقبل مصر بقصيدته التى مطلعها:

أبابل مرأى العين أم هذه مصر فإنى أرى فيها عيونًا هى السحر
فإن يك موسى أبطل السحر مرة فذلك عصر المعجزات وذا عصر

إلى أن قال:

وإنى أمرؤ تأبى لى الضيم صولة مواقعها فى كل معترك حمر
أبىٌّ على الحدثان لا يستفزنى عظيم ولا يأوى إلى ساحتى ذعر

عبرة الحوادث

ومن قصيدة له قالها بعد عودته من المنفى تفيض توجعًا لحالة البلاد بعد أن جثم الاحتلال على صدرها، وقد تذكر عندما مر بقصر الجزيرة أيام إسماعيل حين كان فى أوج سلطانة، وما انتهى إليه أمره من خلع وخسران، وتذكر أخطاءه التى كان لها أثرها فى التمهيد للاحتلال، فلم يترحم على عهده، ونظم هذه القصيدة معتبرًا ومذكرًا، وهى من آيات الشعر فى العظة والاعتبار، وقال:

هل بالحمى عن سرير الملك من يزع؟ هيهات قد ذهب المتبوع والتبع!
هذى (الجزيرة) فانظر هل ترى أحدًا يتأى به الخوف أو يدنو به الطمع؟
أضحت خلاء وكانت قبل منزلة للملك منها لوفد العز مرتبع
فلا مجيب يرد القول عن نبأ ولا سميع إذا ناديت يستمع
كانت منازل أملاك إذا صدعوا بالأمر كادت قلوب الناس تتصدع
عاشوا بها حقبة حتى إذا نهضت طير الحوادث من أوكارها وقعوا

---

(١) أى لا ينفع ولا يضر.

(٢) القانع هنا: السائل المتذلل، والصفر: الذهب.

لـو أنهم علمـوا مقـدار مـا فغـرت ... يـد الحـوادث مـا شـادوا ولا رفعـوا
دارت عليهم رحى الأيـام فـانشعبـوا ... أيـدى سبـا وتخلت عنهم الـشيـع
كـانت لهم عصب يـستـدفعـون بهـا ... كيـد العـدو فـما ضـروا ولا نـفعـوا

* * *

أين المعـاقـل بـل أين الجحـافـل بـل ... أيـن المنـاصـل والخـطيـة الـشـرع؟
لا شىء يـدفـع كيـد الـدهـر إن عصفت ... أحـداثـة أو بقى من شـر مـا يفـع
زالـوا فـما بكت الـدنيـا لفـرقـتهم ... ولا تـعـطلت الأعـيـاد والجـمـع
والـدهـر كـالبحـر لا ينفـك ذا كـدر ... وإنمـا صـفـوه بـين الـورى لمـع
لـو كـان للمـرء فكـر فى عـواقبـه ... مـا شـاب أخـلاقـه حـرص ولا طمع
وكيف يـدرك مـا فى الغيب من حـدث ... مـن لم يـزل بغـرور العيش ينخـدع
دهـر يـغـر وآمـال تـسـر وأعـ ... ـمـار تمـر وأيـام لهـا خـدع
يـسعـى الفـتى لأمـور قـد تضـر بـه ... ولـيس يعـلم مـا يـأتى ومـا يـدع

* * *

يـا أيهـا الـسـادر المـزورّ مـن صـلف ... مـهـلا فـإنـك بـالأيـام منـخـدع
دع مـا يـريب وخـذ فيـما خلقت لـه ... لعـل قـلبـك بـالإيمـان ينـتـفـع
إن الحـيـاة. لـثـوب سـوف تخـلعـه ... وكـل ثـوب إذا مـارت يـنـخـلع

وظل البارودى بعد عودته من المنفى فى عزلة من الناس، لا يجتمع إلا بالصفوة المختارة من الأدباء والشعراء والحافظين لعهده، إلى أن كانت وفاته سنة ١٩٤٠، فخلف مجدًا لا يبلى على الزمان.

* * *

اسماعيل صبرى

١٨٥٤ - ١٩٢٣



شاعر بطبعه وسليقته، وطنىٌّ بفطرته وحسن سريرته، أدرك عهد الاحتلال فى إبان قوته وسطوته، فتحركت شاعريته، تجاهد الاستعمار، وتمجد المعانى الوطنية، وتخلدها فى قصائد غرّ تشبه أن تكون تغاريد من نبع القلب الصافى وفيض الإحساس المرهف والذوق الرفيع.

كان شاعرًا رقيقًا مجيدًا، عميق الوجدان، مقلا فى شعره، محتاطًا فى نشر ما تجود به قريحته، كان علمًا من أعلام الطبقة الأولى من شعراء العصر الحديث، وثانيهم بعد البارودى.

ولد سنة ١٨٥٤ بمدينة القاهرة، والتحق بمدرسة المبتديان سنة ١٨٦٦، ثم بمدرستى التجهيزية والإدارة (الحقوق)، وأتم دراسته بمصر سنة ١٨٧٤، ثم ألحق بالبعثة المصرية إلى فرنسا، ونال شهادة الليسانس فى الحقوق من كلية «اكس» سنة ١٨٧٨، ولما عاد إلى مصر التحق بالمناصب القضائية حتى عين وكيلا لوزارة الحقانية (العدل) سنة ١٨٩٩، واعتزل الخدمة فى سنة ١٩٠٧.

ظهرت مواهبه السعرية منذ نعومة أظفاره، وظلت تنمو وتزدهر طول حياته، وكانت شاعريته ووطنيته عنوان مجده وموضع فخاره.

كان معاصروه يلقبونه (شيخ الشعراء)، واعترف له بذلك زملاؤه، شوقى وحافظ ومطران وعبد المطلب ونسيم وغيرهم، وإنك لتلمح تقدير شوقى لزعامته من قوله فى رثائه:

أيام أمرح فى غبارك ناشئًا ... تهج المهار على غبار خصاف[1]

أتعلّم الغايات كيف ترام فى ... مضمار فضل أو مجال قواف

---

(١) المهار: جمع مهرة وخصاف فرس مسهور فى العرب

ومن قول حافظ فى رثائه أيضًا:

لقد كنت أغشاه فى داره ونـاديه فيها زها وازدهر
وأعرض شعرى على مسمع لطيف يحس نبوّ الوتر

تتجلى فى شعره القومى روح الحب الخالص للوطن، والشجو الحزين على مآسيه، والاستمساك بالعزة والكرامة، والشمم والإباء، ولقد عبّر بأرق القصائد عن شعور مواطنيه، وترجم عن آمالهم وآلامهم.

كانت وطنيته عميقة الجذور، عاش حياته لم يزر إنجليزيًّا قط، ولم يذهب يوما إلى الوكالة البريطانية، فى حين أنها كانت مع الأسف مقصد الكبراء والعظماء فى ذلك العهد، وطالما استماله اللورد كرومر إلى زيارته ليكسبه إلى صف المناصرين للاحتلال، فاستعصم وأبى، ولما قيل له لعلك لو فعلت كنت اليوم رئيسًا للوزارة، قال: وماذا تفيدنى رآسة الوزارة غير اغضاب ضميرى وإرضاء ذوى المطامع وأصدقاء الجاه[1].

كان صديقًا صدوقا للزعيم مصطفى كامل، أيده فى جهاده منذ الساعة الأولى ولم يكن يكتم مناصرته إياه فى أى منصب تولاه.

كان محافظًا للاسكندرية سنة ١٨٩٦ – ١٨٩٩، وأراد مصطفى كامل أن يلقى بها خطبة من خطبه الوطنية الكبرى، فأوعزت إليه الحكومة أن يمنع إقامة الاجتماع الذى أعد لإلقاء الخطبة، بحجة المحافظة على الأمن والنظام، فأبى صبرى على الحكومة ما أرادت، ورخص بإقامة الاجتماع، وصارح الحكومة بأنه مسئول عن الأمن والنظام، وألقى مصطفى كامل خطبته.

ولما عين وكيلا لوزارة الحقانية (العدل) فى نوفمبر سنة١٨٩٩ ظل على مودته لمصطفى، وكان فى غالب الأيام يخرج من الوزارة ويعرج بدار اللواء المقابلة لها ليزور صاحب اللواء ويقضى معه الوقت الطويل، ولم يمنعه منصبه من المجاهرة بصداقته له ومناصرته إياه فى الوقت الذى كان الكبراء من الموظفين وغيرهم يخشون عواقب الاتصال به، وإلى ذلك يشير شوقى فى رثائه لاسماعيل صبرى إذ يقول:

ويّح الشباب وقد تخطر بينهم هل متعوا بتمسح وطواف؟
لو عاش قدوتهم ورب (لوائهم) نكس (اللواء) لثابت وقاف
فلكم سقاه الودّ حين وداده جَرَبٌ لأهل الحكم والاشراف

---

(١) ذكر هذه الواقعة الأستاذ أحمد الزين فى مقدمته لديوان إسماعيل صبرى ص ٣٢.

دعوته إلى الدستور

وإنك لتجد فى شعر إسماعيل صبرى انسجاما مع سياسة مصطفى كامل وتمجيدًا للوطنية ومناصرة للأمة فى جهادها للحرية والاستقلال.

قال فى قصيدة وجهها إلى الخديو عباس حلمى الثانى يوم عيد جلوسه سنة ١٩٠٨ يدعو إلى الدستور.

سدد سهام الرأى (بالشورى) يحط ... بـك منه فى ظُلم الحوادث فيلقُ
واسبق بهِ واضرب به وأفتح به ... ما شئت من باب أمامك يُغلق

حادثة دنشواى

وقال فيها يصور حادثة دنشواى ويصف فظائع الإنجليز فيها والعفو الذى أصدره الخديو عن مسجونيها.

وأقلت عثرة قرية حكم الهوى ... فى أهلها وقضى قضاء أخرقُ
إن أنّ فيها بائس مما به ... أو رنّ جاوبه هناك مطوّق[1]
وارحمتا لجُناتهم ماذا جنوا؟ ... وقضاتهم[2] ما عاقهم أن يتقوا؟
ما زال يُقذى كل عين ما رأوا ... فيها ويؤذى كلّ سمع ما لقوا
حتى حكمت فجاء حكمك آية ... للناس طىّ صحيفة تتألق
نزلت ترفرف حول كاتب نصها ... زمرًا ملائكةُ الرضى وتحلق
شكرتك مصرُ على سلامة بعضها ... شكرًا يغرب فى الورى ويشرق
ذكرت لك الصفح الجميل ولم تزل ... ترمى إلى أمر أجل وترمق[3]
قانون (دنشاواى) ذاك صحيفة ... تتلى فترتاع القلوب ونخفق
هل يرتجى صفو ويهدأ خاطر ... والموت حول نصوصها يترقرق؟
ومضاجع القوم النيام أواهلٌ ... بمعذب يردى وآخر يرهق

(١) المطوق. السجين.
(٢) قضاتهم أى قضاة المحكمة المخصوصة التى حكمت عليهم.
(٣) يريد الدستور.

لن تبلغ الجرحى شفاء كاملاً ... ما دام جارحها المهند يبرق
فاحكم بغير العنف واكسر سيفه ... فالحلم أجمل والمكارم أليق

رثاؤه لمصطفى كامل

وقد جزع لوفاة مصطفى كامل جزعًا شديدًا، وشيع جثمانه إلى مرقده الأخير (يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٨)، ووقف على قبره يلقى قصيدته فى وداعه، ولم يكد يلقى البيت الأول منها وهو:

أداعى الأسى فى مصر ويحك داعيًا ... هددت القوى إذ قمت بالأمس ناعيا

حتى ظهر عليه التأثر الشديد والإعياء، ولم يستطع أن يتم القصيدة، وقد ألقاها فى حفلة تأبينه، وتدل هذه القصيدة على مبلغ حبه له وإخلاصه لصداقته، وإعجابه به، وشدة حزنه عليه، فجاءت آية فى بلاغة الرثاء، ورقة التعبير عن الحزن والألم، وكأن كل بيت فيها دمعة وفاء تذرفها عين الصديق على صديقه الحميم. قال:

أجل أنا من أرضاك خلا موافياً ... وبرضيك فى الباكين لو كنت واعيًا
وقلبى ذاك المورد العذب لم يزل ... كما ذقت منه الحبّ والود صافيا
سِوى أنه يعتاده الحزن كلما ... رآك عن الحوض المهدَّد نائيا
ويعثر فى بعض الخطوب إذا مشى ... إلى بعض ما يهوى فيرجع داميا
وإن رامه سرب المسرات لم يجد ... محلا به من لاعج الهمّ خاليا
ألا عللانى بالتعازى وأقنعا ... فؤادى أن يرضى بهن تعازيا
وإلا أعينانى على النوح والبكا ... فشأنكما شأنى وما بكما بيا
وما نافعى أن تبكيا غير أننى ... أحبّ دموع البر والمرء وافيا

* * *

أيا (مصطفى) تالله نومك رابنا ... أمثلك يرضى أن ينام اللياليا
تكلم فإن القوم حولك أطرقوا ... وقلْ ياخطيب الحىّ رأيك عاليا
لقد أوشكت من طول صمت وهجرة ... تخالك أعواد المنابر فانيا
وتبكيك لولا أن فيها بقية ... تعللها من ذلك الصوت داويا
فهل ألقت ما بين جفنك والكرى ... محالفةٌ أم قد أمنت الأعاديا؟

* * *

فقـدنـاك فقـدان الكميّ سـلاحـه — وسارى الدياجى كوكب القطب هاديـا
وبتنـا وقـد بـاتت رفـاتـك فى الثرى — سقاها الحيا[1] نستبطىء الـدمع هـاميا
ولـولا تـرات من أمـانيـك عنـدنـا — كـريمٌ بكينـا إذ بكينـا الأمـانيـا
طـواك الـردى طىء الكتـاب تضمنت — صحـائفـه من كـل فخـر معـانيـا
مضـاءٌ إذا البيض انتمت لأصـولهـا — غضبنـا إذا سمّـاك قـوم يمـانيـا
ورأى يجـلى اليـأس واليـأس ضارب — عـلى الأفق ليـلا فـاحم اللون داجيـا
إذا مـا تقـاضينـا ولم تـك بيننـا — ذكـرنـاهمـا حتى نجيـد التقـاضيـا
فليتـك إذ أعييـت كـل مسـاجـل — قنعت فلم تعى الـطبـيب المـداويـا
وليتـك إذ ناضلت عن مصـر لم تفض — مـع الحـبر قلبًـا يعلم الله غـاليـا

* * *

لقـد ضاع إخـلاص الطبيب وحـذقـه — سدى فبكى الفخر الـذى كان راجيـا
ولم تنتهـز تلك العقـاقـير فـرصـة — ترى الناس فيها فضل (بقراط) باديـا
نحييـك سيفًا بـات فى التـرب مغمـدًا — تـقلّده فـيـهـا مضـى الحق مـاضيـا

مواساته لجرحى الحرب

ولقد كان له شعر حماسى يملأ القلوب أملا وشجاعة.

قال من قصيدة له مخاطبًا الأمير عمر طوسون يشكره على مواساته جرحى الحرب:

وكم تعهـدت جرحى من أسـود وغى — إن يكشر الدهـر عن أحداثـه كشروا
مستنجـدًا من بنى مـصـرٍ إلى شمـم — إذا رأوا ثلمـة فى حـوضهم جبَـرُوا
مستهميًـا هـاميًـا و (النيـل) فى وجـل — مـن أن تجـود بـه أيمـانكـم حـذر

الوحدة بين العنصريين

وقال داعيًا إلى الوحدة الوطنية بين عنصرى الأمة:

عينَى فيـك اليـوم قـبـطيَّـة — تروى الأسى عن مسلم موجَع
ويـأخـذ الـبر وآى الـوفـا — عن الكتـاب الـطيب المشْـرع

---

(١) المطر.

ومن قصيدة له حين اشتد الخلاف بين المسلمين والأقباط سنة ١٩١١ يدعو إلى الوحدة الوطنية:

خففوا من صياحكم ليس فى مصـــــــر لأبنـــاء مـصــر مــن أعــداء
دين عيسى فيكم ودين أخيه أحمد يأمراننا بالإخاء
مصر أنتم ونحن إلا إذا قا مت بتفريقنا دواعى الشقاء
مصر ملكٌ لنا إذا تماسكنا وإلا فمصر للغرباء

تنديده بصنائع الاحتلال

وقال فى نوفمبر سنة ١٩٠٨ يندد بسياسة مصطفى فهمى حين سقطت وزارته وكان مواليا للاحتلال خاضعا له:

عجبت لهم قالوا سقطتَ ومن يكن مكانك يأمنْ من سقوط ويسلم
فأنت امرؤ ألصقت نفسك بالثرى وحرمت خوف الذل ما لم يحرم
فلو أسقطوا من حيث أنت زجاجة على الصخر لم تصدع ولم تتحطم[1]

فى الإباء وعزة النفس

ومن قوله فى الإباء وعزة النفس، والزراية بالمتكبرين:

أيها التائه[2] المدلّ علينا ويك قل لى من أنت؟ إنى نسيت
لو فرشت الطريق درًّا لأخطو فوقه نحو داركم ما رضيت
أنا أغنى من أن يقال فلان وفلان تزاورا ما حييت!

وقال فى الاستمساك بالكرامة:

لكسرة من رغيف خبز تؤدم بالملح والكرامة
أشهى إلى الحرّ من طعام يُختم بالشهد والملامة

(١) أى أن مصطفى فهمى كان فى منزلة دانية لا يؤلمه السقوط منها، بحيث لو أسقطوا زجاجة من ذلك المكان المنخفض لم تكسر!.

(٢) التائة: المتكبر من التيه بكسر التاء.

يستنكر تعدد الزوجات

وقال يذم تعدد الزوجات:

يـا من تـزوج بـاثنتـين ألا اتئـدْ ألقيت نفسـك ظـالمـا فى الهـاويـةْ
مـا العـدل بـين الضـرتـين بممكن لـو كنت تعـدل ما أخـذت الثـانيـة!

التوحيد والحرية

وله فى تمجيد التوحيد والحرية كلمات بليغة وإن لم تكن شعرا إلا أنها تتشبهه فى النغم والرنين وقوة الأثر، وهى من الشعر المنثور البليغ. قال:

أحب التوحيد فى ثلاثة: الله. والمبدأ. والمرأة.
وأحب الحرية فى ثلاثة:
حرية المرأة فى ظل زوجها
وحرية الرجل تحت راية الوطن
وحرية الوطن فى ظل الله.

تنديده بالظلم والاستعمار

قال فى قصيدة له يخاطب (الدواة):

وإذا الـظلم والـظلام استعـانـا يـوم نحس بأجهـل الجـاهلينـا
واستمـدا من الشـرور مـدادا فـاجعليـه فى قسمـة الـظالمينـا

إلى أن قال:

وإذا كـان فيـك نقـطة سَـوء كـونت من خيـانـة تكـوينـا
فـاجعليها قسط الـذين استباحـوا فى السيـاسات حـرمـة الأضعفينـا!

تنديده بالمستعمرين

قال ينعى على إيطاليا عدوانها على طرابلس (ليبيا) سنة ١٩١١ ويندد بما فى فعلتها من الغدر ونقض العهود والمواثيق:

بـعضَ هـذا الجفـاء والـعـدوان راقـبـى الله أمـةَ الـطليـان!

قـد مـلأت الفضـاء غـدرًا وجهـلا ... وتـسـنـمـت غــارب الـطـغـيــان
وبعثت السفــين تـرمى طـرابـلـ ... ـس بحــرب مشبـوبـة النيـران
تخــرق البحــر والمــواثيق والـعـ ... ـهـدَ جـهــارا وذمــة الجيــران
سيَّــرتهــا أضغــان قــوم لقــوم ... سَلِمــوا من دنــاءة الأضغــان(١)
من رآهــا تجــرى تــوهم أن الـ ... ـقــوم همــوا للثــأر لــلأوطــان
لا وربِّ الأسـطول ما حمـل الأسـ ... ـطول جيشًـا إلى حمى الحبشـان(٢)
إن قـوم الطليـان أحـرص من أن ... يُـفضـحــوا مــرتــين فى ميــدان

الامتيازات الأجنبية

وقال فى هذه القصيدة يشير إلى الامتيازات الأجنبية التى منحتها الدول الشرقية للأوروبين فقابلوها بالغدر والعقوق واتخذوها وسيلة للعدوان على هذه الدول:

ويحهُم مــا لصنعهـم أبــطر القــو ... م فعقّــوا مـا كــان من إحســان؟
ولمــاذا تمـخض السـلم عـن حـر ... ب لظاها يشـوى الوجـوه عوان؟
منــحٌ قـد بــذرن فى نـسـر أيــدٍ ... كـن مــذكن منبـت الـكـفــران
هكــذا فلتـك المــروءات فى عصـ ... ـر البهـاليـل من بنى الــرومـانِ!

القوة سياج الاستقلال

وقال فيها يدعو إلى التسلح بالقوة للدفاع عن الذمار وصد مطامع الاستعمار ويحذر أمم الشرق من غدر الدول الاستعمارية وعدوانها وتبييتها الشر تحت ستار الود والصداقة:

لا يثق بعضنــا ببـعض وهــذا ... مــا أعـد الإنســان لـلإنســان
إن تسلَّم عــلى الغـريب فسلم ... فى ظـلال السيـوف والمــران(٣)
ربمـا أصبـح العنـاق صـراعًــا ... فى زمـان الآداب والعـرفـان(٤)

---

(١) يريد بالذين سلموا من دناءة الأضغان العرب وهم المعتدى عليهم فى هذه الحرب.

(٢) يشير بهذا البيت والذى يليه إلى هزيه الطليان أمام الأحباش فى معركه عدوه المنهورة سنة ١٨٩٦ ويعيرهم بالسكوت عن الأخذ بثأرهم فى هذه المعركة.

(٣) يريد المران الرماح أى القوة المسلحة.

(٤) فى هذا البيت يتهكم بالدول الأوربيه وما تنطوى عليه من الغدر ونقض العهود فى عصر المدنية والعلوم والآداب.

التغني بعظمة مصر

وله قصيدة خالدة يتغنى فيها بعظمة مصر ومفاخرها، ويستحث مصر الحديثة على إحياء مجدها، قالها سنة ١٩٠٩ على لسان فرعون مصر يخاطب قومه ويبعث فيهم روح العمل لبناء مجد الدولة قال:

لا القوم قومى ولا الأعوان أعوانى ... إذا ونى يوم تحصيل العلا وانى

إلى أن قال:

لا تقربوا (النيل) ان لم تعملوا عملا ... فماؤه العذب لم يخلق لكسلان
ردوا المجرَّة كدًّا دون مورده ... أو فاطلبوا غيره ريًّا لظمآن
وابنوا كما بنت الأجيال قبلكم ... لا تتركوا بعدكم فخرًا لإنسان
لا تتركوا مستحيلا فى استحالته ... حتى يميط لكم عن وجه إمكان
مقالة هبطت من عرش قائلها ... على مناكب أبطال وشجعان
مادت لها الأرض من ذعر ودان لها ... ما فى المقطم من صخر وصوان
يبنون ما تقف الأجيال حائرة ... أمامه بين إعجاب وإذعان
من كل مالم يلد فكر ولا فتحت ... على نظائره فى الكون عينان
ويشبهون إذا طاروا إلى عمل ... جنا تطير بأمر من (سليمان)

* * *

(أهرامهم) تلك حىّ الفنَّ متخذا ... من الصخور بروجا فوق كيوان
قد مر دهر عليها وهى ساخرة ... بما يضعضع من صرح وإيوان
لم يأخذ الليل منها والنهار سوى ... ما يأخذ النمل من أركان ثهلان
جاءت إليها وفود الأرض قاطبة ... تسعى اشتياقا إلى ما خلد الفانى
فصغرت كل موجود ضخامتُها ... وغض بنيانها من كل بنيان
وعاد منكر فضل القوم معترفا ... يثنى على القوم فى سرٍّ وإعلان
تلك الهياكل فى الأمصار شاهدة ... بأنهم أهل سبق. أهل إمعان
إذا أقام عليهم شاهدا حجر ... فى هيكل قامت الأخرى ببرهان

كـأنمـا هـى والأقـوام خـاشـعـة ... أمـامـهـا صحـف من عـالم ثـانى
تستقبـل العـين فى أثنـائـهـا صـور ... نصيحـة الرمـز دارت حـول جـدران
لـو أنها أعـطيت صـوتـا لكـان لـه ... صـدى يـروّع صـم الإنس والجـان

وختمها بقوله:

أين الأولى سجلوا فى الصخـر سيـرتهم ... وصـغـروا كـل ذى مـلك وسـلطان
بـادوا وبـادت عـلى آثـارهـم دول ... وأدرجـوا طـىّ أخـبـار وأكـفـان
وخـلفـوا بـعـدهـم حـربـا مخـلدة ... فى الكـون مـا بـين أحجـار وأزمـان
وزُحـزحـوا عن بقـايـا مجـدهم وسطا ... عـليهم العـلمُ ذاك الجـاهـل الجـانى
ويـل لـه هتـك الأستـار مقتحـا ... جـلال أكـرم آثـار وأعـيـان
للجهـل أرجـح منـه فى جهـالتـه ... إذا هـما وزنـا يـومـا بمـيـزان

إلى شوقى فى منفاه

وكان على ود صميم مع شوقي، وحينما نفى شوقى من مصر خلال الحرب العالمية الأولى ظل على صلته به، وكان شوقى قد أرسل إليه من منفاه بالأندلس سنة ١٩١٧ ببيتين من قصيدة له مشهورة[(١)] قال فيها:

يـا سـارى البـرق يـرمى عن جـوانحنـا ... بـعـد الهـدوء ويهـمى من مـآقـيـنـا[(٢)]
لمـا تـرقـرق فِى دمـع السـماء دمًـا ... هـاج البكـا فخضبنـا الأرض بـاكينـا!

فأجابه صبرى بهذه الأبيات:

يـا وامض البـرق كم نبَّهت من شـجن ... فى أضـلع ذهـلت عـن دائـهـا حـيـنـا
فـالمـاء فى مقـل، والنـار فى مهـج ... قـد حـار بـينهـما أمـر المـحـبـيـنـا
لـولا تـذكـر أيـام لـنـا سـلفـت ... مـابـات يبكى دمـا فى الحى بـاكينـا
يـا آل ودى عـودوا لا عـدمـتـكـم ... وشـاهـدوا ويحكم فعـل النـوى فينـا
يـا نسمـة ضمخت أذيـالهـا سحـرا ... أزهـار أنـدلس هـبّى بـواديـنـا[(٣)]

---

(١) سيرد ذكرها فى الحديث عن شوقى.*

(٢) يريد شوقى أن البرق قد اقتبس اشتعاله من نار جوانحه وتخيل أن ما يهمى به البرق من المطر مشتق من دموعه.

(٣) يخاطب صبرى نسمة الأندلس التى عطرتها أزهاره ويعيش فى جوها شوقى ويناجيها أن تهب عليه فى مصر.

وقد عاش اسماعيل صبرى كريم الخلق، صادقا عيوفا، أبيـا وفيا لـوطنه وأصـدقائـه، معتزا بكرامته، صريحا محبا للحق، بعيدا عن الزهو والخيلاء، وظل عـلى هذه الأخـلاق الفاضلة إلى أن توفى فى ٢١ مارس سنة ١٩٢٣ بعد مرض طويل، وخلف كنوز من الشعر والوطنيـة، والفضائـل النفسية، أضفت على اسمه هالة من المجد والخلود.



أحمد شوقى

شاعر الوطنية الأكبر
١٨٧٠ - ١٩٣٢



بلغ الشعر الوطنى ذروته على لسان شوقى وحافظ، فلقد حملا لواء النهضة الشعرية فى العصر الحديث، وتغنيا بالوطنية، وكان للحوادث الكبرى التى وقعت فى مصر والشرق صداها فى شعرهما، وكلاهما كان له أثره وفضله فى تغذية الحركة الوطنية بعيون الشعر الوطنى، سطع نجمهما فى عصر واحد، وغردا فى جيل واحد، وانتقلا إلى جوار ربهما فى عام واحد (١٩٣٢) ولم تمض على وفاة حافظ ثلاثة أشهر حتى لحق به شوقى فى الرفيق الأعلى.

سمى شوقى أمير الشعراء، ولقب الأمير لم يعد يتفق والروح الديمقراطية، ولم تعد الامارة تضفى على صاحبها منزلة محترمة، هذا إلى أن شوقى أكبر من أن يمجد بهذا اللقب، فهل نسميه (سيد الشعراء)؟ إن كلمة السيادة لغير الأمة لم تعد أيضًا تتفق والأوضاع الديمقراطية، فهل نسميه (زعيم الشعراء)؟ إنه ولا ريب أقدر شعراء عصره، ولم يكن ينازعه فى زعامة الشعر أحد من أنداده ومعاصريه، فلقد عقدوا له لواء الزعامة وبايعوه عليها فى المهرجان الذى أقيم له بمصر سنة ١٩٢٧ وجمع أقطاب الشعراء من العالم العربى وخاطبه فيه صنوه حافظ بقوله:

أميرَ القوافى قد أتيتُ مبايعا ... وهذى وفود الشعر قد بايعت معى

على أن لقب (زعيم الشعراء) لا يكفى للتعريف به والتنوية بمكانته، وخير لقب له أن يسمى (شاعر العربية الأكبر) وأن نسميه فى هذا الكتاب (شاعر الوطنية الأكبر)

ولد أحمد شوقى فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٧٠[1] وتعلم فى المدارس النظامية، ودخل مدرسة

---

(١) عن التاريخ الثابت فى شهادة الليسانس التى نالها الفقيد من كلية الحقوق بباريس

الادارة (الحقوق)، فى أوائل عهد الاحتلال، وفى سنة ١٨٨٧ سافر إلى فرنسا لدراسة الحقوق والأدب، وأتم دراسته سنة ١٨٩٣.

أدرك شوقى الاحتلال الإنجليزى وهو شاب مهذب مثقف، وعرف كيف عصف الاحتلال باستقلال البلاد، وإذ كانت عبقريته الشعرية قد خلقت وولدت معه ولازمته منذ صباه، فقد قترنت بشعوره الوطنى الذى تولد فى نفسه بالفطرة، وزاده توهجًا ورسوخا رؤيته الاحتلال لأجنبى يجثم على صدر البلاد، فامتزجت شاعريته بوطنيته، وكان لمصر وآلامها صدى بعيد وأثر عميق فى شعره، وظل حبه للوطن يوجهه فى قصائده ويلهمه التغريد له والحنو عليه.

التحق منذ عودته إلى مصر بديوان المعية الخديوية، وعلت مكانته لدى الخديو عباس الثانى حتى سمى (شاعر الأمير) ولكن روحه الوطنية لم تتأثر كثيرًا من صلته بالقصر هذا إلى أن لخديو عباس كان فى أول عهده بالعرش يناوىء الاحتلال والاحتلال يناوئه، حتى إذا جنح لمهادنة الاستعمار، لم يكن لهذا التحول أثر كبير فى شعر شوقى، اللهم إلا هدأة وقتية فى الحرب لمشبوبة بين الأمة والاحتلال، على أن تأصل روح الوطنية فى نفسه جعله لايجارى الخديو عباس ى انصرافه عن الحركة الوطنية، ثم فى تنكره لها، فبقى شعره ينهل من منبع الوطنية الصافى.

وانفصل عن منصبه فى القصر بعد خلع الخديو عباس عن العرش فى ديسمبر سنة ١٩١٤ تحرر من المنصب الحكومى، فزادته الحرية قوة وانتاجا وتحليقًا فى سماء الشعر والفن والخيال، استهدف لاضطهاد السلطة العسكرية البريطانية، اذ قررت نفيه وتركت له اختيار البلد الذى نفى إليه، فاختار أسبانيا (الأندلس)، وبقى على عهده للوطن، ثم عاد من منفاه فى فبراير سنة ١٩٢، والبلاد فى غليان الثورة، فاستقبلت مصر شاعرها الملهم استقبالا حافلا رائعًا.

ويمتاز شعر شوقى بقوة البيان، وروعة الموسيقى الشعرية، وسعة الأفق، والتعمق فى استيعاب لحوادث التاريخية، قديمها وحديثها، ولقد جارى فحول الشعراء المتقدمين، وبذهم فى كثير من صائده، وجدد بعض التجديد فى الشعر العربى بما اقتبسه عن شعراء الغرب، وعن الثقافة لأوروبية، وسار فى التجديد شوطًا بعيدًا وخاصة بعد عودته من المنفى، إذ وضع عدة مسرحيات معرية بلغت مبلغًا عظيما من الفن والموسيقى والجمال، كمصرع كليوباتره، ومجنون ليلى، عنترة، وغيرها، وظل ينتج ويشدو ويبدع، إلى أن توفى فى ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢.

الوطنية فى شعر شوقى

فى قصائد شوقى يسطع نور الوطنية، ويتأجج لهيبها، وهو أغزر الشعراء مادة وأوسعهم نتاجا فى هذه الناحية، ولقد ظل يستلهم روح الوطنية طول حياته، شابا وكهلا وشيخًا، بل إن

سعره الوطنى فى شيخوخته كان أقوى منه فى شبابه، وقد يكون مرجع ذلك إلى تجرده من الاتصال بالقصر بعد خلع الخديو عباس حلمى، كما أسلفنا، ثم إلى نفيه من مصر فى أوائل الحرب العالمية الأولى، فأثار البعد عن الوطن شاعريته، وجاد بأبدع قصائده فى الحنين إلى مصر وحبه لها والهيام بها إلى درجة التقديس، ومرجع ذلك أيضا إلى تأصل عبقرية الشعر فى نفسه، فلم تضعفها السن، ولم ينل منها الزمن وظلت قوية تتدفق حيوية ونشاطا.

والوطنية فى شعر شوقى هى فيض الفطرة والإلهام، وليست من صنع الظروف أو التكلف، ولذلك جاءت قوية جارفة، عميقة رائعة.

فتأمل فى أول قصيدة له فى ديوانه وهى التى قالها فى المؤتمر الشرقى الدولى المنعقد بمدينة جنيف عام ١٨٩٤ ومطلعها.

هَمَّتِ الفلكُ واحتواها الماء ... وحداها بمن تُقلّ الرَّجاء

تجدها آية فى شعر الملاحم أو الشعر التاريخى، وتحس وأنت تقرؤها أنها قبس من نور الوطنية، فهى سجل ناطق (لكبار الحوادث فى وادى النيل)، وقد بلغ عدد أبياتها ثلثمائة بيت إلا قليلا (تسعين ومائتى بيت)، عرض فيها عرضا أخاذا بديعا تاريخ مصر من أقدم العصور إلى عام نظمها، أشاد بعظمتها ومجد مفاخرها، وحنى عليها فى كبواتها، واستنزل السخط على كل من اعتدى عليها.

فانظر إلى قوله عن عظمة مصر:

قُلْ لبانٍ بنَى فشادَ فغالى ... لم يَجُزْ مصر فى الزمان بناء
ليس فى الممكنات أن تُنْقَل الأجْبال[1] شُمًّا وأن تُنَال السماء

ولما انتهى فى سرد الحوادث إلى الحملة الفرنسية سجل إخفاقها وارتدادها عن مصر، قال:

وأتى النسر[2] ينهب الأرض نهبًا ... حوله قومهُ النسورُ ظِماء
يشتهى النيل أن يشيد عليه ... دولة عرضُها الثرى والسماء
حلُمتْ رومةٌ بها فى الليالى ... ورآها القياصرُ الأقوياء
فأتت مصر رُسْلُهم تتوالى ... وترامت سودانَها العلياء
ولو استشهد الفَرنسيسُ روما ... لأتَتْهُمْ من رومةَ الأنباء
علمتْ كلُّ دولة قد تولَّتْ ... أننا سمها وأنا الوباء

(١) الأجبال: جمع جبل.
(٢) يقصد نابليون.

قاهر العصر والممالك نابليونُ ولَّتْ قوادُه الكبراء
جاء طيشًا وراح ومن قبل أطاشت أناسَها العلياء

وانظر كيف يصور فى البيتين الآتيين سكوت الأهرام وهى تواجه نابليون بأنه سكوت السخرية والاستهزاء وكأنها تتنبأ له بالهزيمة فى ختام معاركه، قال:

سكتت عنه يوم عيَّرها الأهرام لكن سكوتها استهزاء
فهى توحى إليه أن تلك (واترلو) فأين الجيوش أين اللواء؟

وتأمل كيف يعبر عن قناة السويس بأنها نكبة على مصر قال:

جمع[1] الزاخرينْ كَرْها فلاكا نا ولا كان ذلك الالتقاء
أحمرٌ عند أبيض للبرايا حِصَّةُ القُطْرِ منهما سوداء

والقصيدة كلها على هذا الغرار فى الإجادة والإبداع، ولقد نظمها وهو فى الرابعة والعشرين، وكأنما رسم فيها منهجه فى الشعر، فهو يقتبس من عبقريته الشعرية، ومن روحه الوطنية معا، وقد لازمه هذا الامتزاج فى شتى قصائده.

شوقي ومصطفى كامل

سارت نهضة الشعر فى مصر إلى جانب النهضة الوطنية التى هبت لمقاومة الاحتلال، ومن هنا جاءت صلة الزعيم مصطفى كامل بشعراء عصره، وكانت دعوته الوطنية تلقى صدى وتأييدا فى قصائدهم الغرّ، بحيث يمكن القول بأن الشعر لم يتألق فى سماء مجده مثلما تألق فى عهد مصطفى كامل ومحمد فريد.

وقد ظهر التجاوب بين دعوة مصطفى كامل وشعر شوقى، وزاد فى هذا التجاوب أن شوقى كان صديقًا حميا لمصطفى، وكلاهما معجب بصاحبه أيما إعجاب، ولا غرو فهما صنوان، وفرسا رهان، هذا فى ميدان الوطنية والجهاد، وذلك فى دولة الشعر والبيان، وكان شوقى يعتز بصداقته لمصطفى ومشاركته إياه فى تعهده الروح الوطنية وغرسها فى نفوس الجيل، وإلى ذلك يشير فى قصيدته عن ذكرى مصطفى سنة ١٩٢٥ اذ يقول فيها مخاطبا الفقيد.

أتَذْكُر قبل هذا الجيل جيلا سهرنا عن معلِّمهم وناما؟
مِهار الحق بغَّضْنا اليهم شكيم القيصريةِ واللجاما[2]

---

(١) الإشارة هنا إلى سعيد الذى منح دلسبس امتياز القناة، ويريد بالزاخرين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر.
(٢) مهار، جمع مهر، والمراد بالمهار هنا الشباب، والمراد بشكيم القيصرية ولجامها. بطش الاحتلال وجبروته.

(لـواؤك) كـان يَسقيهم بجـامٍ ... وكـان الشعرُ بـين يـدىَّ جـامـا
من الـوطنيـة استبقـوا رحيقًـا ... فضَضْنـا عن معُتَّقِهـا الختـامـا

وكان مصطفى يصف شوقى بأنه «الغدير الصافى فى القاف الغاب، يسقى الأرض ولا يبصره الناظرون»، وكان يخصص لقصائده أسمى مكان فى (اللواء)، وفى ذلك يقول شوقى فى مرثاته الخالدة:

قـد كنت تهتف فى الورى بقصائدى ... وتجـلّ فـوق النّـيـريـن مكـانى

وزاره وهو على فراش مرضه الأخير، فطلب إليه مصطفى أن يرثيه إذ أحس بدنو أجله، وفى ذلك يقول شوقى:

وجعلت تسـألنى الـرثـاء فهـاكـه ... من أدمعى وسـرائـرى وجنـانى

ويبدو الانسجام بين دعوة مصطفى كامل وشعر شوقى فى كثير من قصائده.

قصيدة شوقى فى وداع اللورد كرومر

فمن ذلك قصيدته المشهورة فى وداع اللورد كرومر سنة ١٩٠٧ حين اضطر إلى الاستقالة على أثر حادثة دنشواى، ففى أبياتها تتجلى الروح الوطنية والنقمة على الاحتلال، قال:

أيـامُكم أم عهـد اسمـاعيـلا ... أمِ أنت فـرعـونٌ يسـوس النيـلا؟
أم حـاكمٌ فى أرض مصر بـأمـره ... لا سـائـلا أبـدًا ولا مسئـولا
يـا مـالكًا رقّ الـرقـاب ببأسـه ... هـلا اتخذت إلى القلوب سبيـلا؟
لمـا رحلَت عن البـلاد تشهّـدت ... فكـأنـك الـداء العيـاء رحيـلا
أوسَعْتنـا يـومَ الـوادع إهـانـةً ... أدبٌ لعمـرك لا يصيبُ مثيـلا[١]

إلى أن قال:

أنـذرتـنـا رقًـا يـدوم وذَلـةَ ... تبقى وحـالا لا تـرى تحـويـلا
أحَسـبِتَ أن الله دونـك قـدرةً ... لا يملك التغيـير والـتبـديـلا؟
الله يحكـم فى المـلوك ولم تكـن ... دولٌ تنـازعـه القـوى لـتـدولا

(١) يشير إلى خطبة اللورد كرومر فى الحفلة التى أقامها صنائع الاحتلال بدار الأوبرا تكريمًا له وأهان فيها المصريين.

وعونُ قبلك كان أعظم سطوةً وأعزّ بين العالمين قبيلا

* * *

اليوم أخلفت الوعود حكومةٌ كنا نظن عهودَها الانجيلا
دخلتْ على حكماالوداد وشَرعه مصرًا فكانت كالسلال دخولا
هدمت معالمها وهدت ركنها وأضاعت اعتقلالها المأمولا

وقال:

قد مدَّ إسماعيل قبلك للورى ظلَّ الحضارة فى البلاد ظليلا
إن قيس فى جود وفى سرف إلى ما تنفقون اليوم عُدَّ بخيلا
أو كان قد صرع (المفتش) مرةً فلكم صرعت بدنشواى قتيلا
لا تذكر الكرباج فى أيامه من بعد ما أنبتَّ فيه ذيولا

قصيدته فى ذكرى دنشواى

وقصيدته سنة ١٩٠٧ أيضًا عن (ذكرى دنشواى)، بعد مرور عام على حادثتها، فى سبيل طلب العفو عن سجنائها، وفيها وصف مؤثر لهذه المأساة.

قال:

يادنشوايَ على رُباكِ سلامُ ذهبت بأنس رُبوعِكِ الأيامُ
شهداءُ حُكمك[1] فى البلاد تفرقوا هيهاتَ للشمل الشتيتِ نظام
مرّت عليهم فى اللحود أهلة ومضى عليهم فى القيود العام
كيف الأراملُ فيك بعد رجالها وبأىِّ حالٍ أصبح الأيتام؟
عشرون بيتًا أقفرتْ وانتابها بعد البشاشة وحشة وظلام
ياليت شعرى فى البروج حمائمٌ أم فى البروج منيةٌ وحمام؟
(نيرونُ) لو أدركتَ عهد (كرومر) لعرفت كيف تنفذ الأحكام!

* * *

نوحى حمائمَ دنشواى وروعى شعبًا بوادى النيل ليس ينام
إن نامت الأحياء حالت بينه سَحَرًا وبين فراشِه الأحلام

(١) أى حكم المحكمة المخصوصة فى قضية دنشواى.

متوجعٌ يتمثلُ البومَ الذى | ضجتْ لشدة هوله الأقدام
السوط يعملُ والمشانقُ أربعٌ | متوحداتٌ والجنودُ قيام
والمستشارُ[١] إلى الفظائع ناظرٌ | تدمى جلودٌ حوله وعظام
فى كلِّ ناحية وكلِّ محِلةٍ | جزعًا من الملأ الأسيف زحام
وعلى وجوهِ الثاكلين كآبة | وعلى وجوهِ الثاكلاتِ رَغام

رثاء لمصطفى كامل

ولما توفى مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ رثاه شوقى بقصيدته الخالدة التى تعد أكبر مرثاة فى تاريخ الأدب العربى، ترجم فيها عن شعوره بالحزن والألم بآيات بينات تجلت فيها حكمة الشعر وقوة الوطنية وروعة البيان، وقد نشرت يوم ٢٣ فبراير سنة ١٩٠٨ عقب وفاة الزعيم بثلاثة عشر يومًا، فأثرت فى النفوس تأثيرًا عميقًا، وجددت أحزان الأمة، وحفظناها وحفظها الشباب وقتئذ عن ظهر قلب، لأنها عبرت عن شعورنا جميعا فى الرزء الفادح، ننشرها كاملة لأنها قطعة من الشعر الوطنى الخالد. قال فى مطلعها:

المشرقان عليك ينتحبان | قاصيهما فى مأتم والدانى
يا خادم الإسلام أجر مجاهد | فى الله من خلد ومن رضوان
لما نعيت إلى الحجاز مشى الأسى | فى الزائرين وروِّع الحرمان
السكة الكبرى[٢] حيال رباها | منكوسة الأعلام والقضبان
لم تَـألُها عند الشدائد خدمةً | فى الله والمخْتار والسلطان
يا ليت مكة والمدينة فازتا | فى المحفلين بصوتك الرنان
ليرى الأواخر يوم ذاك ويسمعوا | ما غاب من قس ومن سحبان[٣]
جار التراب وإنت أكرم راحل | ماذا لقيت من الوجود الفانى؟

وقال عن مرضه الذى أودى بحياته:

أبكى صباك ولا أعاتب من جنى | هذا عليه كرامةً للجانى[٤]
يتساءلون أبا لسلال قضيت أم | بالقلب أم هل مت بالسرطان

(١) يريد الكبتن متشل مستشار وزارة الداخلية وكان يشرف على تنفيذ الحكم.
(٢) يريد سكة حديد الحجاز
(٣) قس وسحبان خطيبان من أبلغ خطباء العرب.
(٤) الجانى إشارة إلى مصطفى كامل أى أنه ضحى بحياته وشبابه فى سبيل مصر.

الله يشهد أن موتك بالحجا … والجد والإقدام والعرفان

وقال يشيد بأخلاق الفقيد:

إن كان للأخلاق ركن قائم … فى هذه الدنيا فأنت البانى
بالله فتّش عن فؤادك فى الثرى … هل فيه آمالٌ وفيه أمانى
وجدانُكَ الحىّ المقيم على المدى … ولرُبَّ حىٍّ ميّتِ الوجدان

وقال فى فلسفة الحياة:

الناسُ جارٍ فى الحياة لغاية … ومضلَّل يجرى لغير عنان
والخلدُ فى الدنيا وليس بهينٍ … عليا المراتب لم تُتَحْ لجبان
فلو أن رسلَ الله قد جبنوا لما … ماتوا على دين ولا إيمان
المجد والشرف الرفيع صحيفة … جُعلت لها الأخلاق كالعنوان
وأحبٌّ من طول الحياة بذلة … قصَرٌ يريك تقاصرَ الأقران
دقّاتُ قلب المَرء قائلة له … إن الحياة دقائق وثوان
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها … فالذكر للانسان عمرٌ ثانى
للمرء فى الدنيا وجم شؤونها … ما شاء من ربح ومن خسران
فهى القضاء لراغب متطلع … وهى المضيق لمؤثر السلوان

* * *

الناس غادٍ فى الشقاوة رائحُ … يشقى له الرحماء وهو الهانى
ومنعّمٍ لم يلق إلَّا لذة … فى طيها شَجَنٌ من الأشجان
فاصبر على نُعْمَى الحياة وبؤسها … نعمى الحياة وبؤسها سيان

وقال مخاطبًا الزعيم:

ياطاهر الغدوات والرَّوحات والـ … ـخطرات والإسرارِ والإعلان
هل قام قبلك فى المدائن فاتح … غازٍ بغير مُهَنَّد وسنان؟
يدعو إلى العلم الشريف وعنده … أن العلوم دعائم العمران

وقال فى وصف الجنازة:

لَفّوك فى عَلَم البلاد منكّسًا … جَزِع الهلالُ على فتى الفتيان

ما احمرّ من خجل ولا من ريبة … لكنما يبكى بدمْع قانى(١)
يزُجُّون نعشك فى السناء وفى السنا … فكأنما فى نعشك القمران
وكأنه نعش (الحسين) «بكربلا» … يختال بين بكى وبين حنان
فى ذمة الله الكريم وبره … ما ضم من عرف ومن إحسان
ومشى جلال الموت وهو حقيقة … وجلالك المصدوق يلتقيان

* * *

شَقّت لمنظرك الجيوبَ عقائلٌ … وبَكَتك بالدمع والهتونِ غوانى
والخلْقُ حولك خاشعون كَعهدهم … إذ ينصتون لخطبة وبيان
يتساءلون بأى قلب تُرْتَقى … بعدُ المنابرُ أم بأى لسان
فلو إن أوطانًا تُصَوَّر هيكلا … دَفنوك بين جوانح الأوطان
أو كان يحْمَل فى الجوارح ميت … حملوك فى الأسماع والأجفان
أو صيغ من غُرّ الفضائل والعُلى … كَفَنٌ لبست أحاسن الأكفان
أو كان للذكر الحكيم بقية … لم تأت بَعْدُ رُثيتَ فى القرآن

وقال يصف الفقيد فى مرضه الأخير:

ولقد نظرتك والردى بك محدق … والداء ملء معالم الجثمان
يبغى وَيطْغَى والطبيب مضلل … قَنِطٌ وساعات الرحيل دوانى
ونَواظرُ العُواد عنك أمالها … دمعٌ تعالج كتمَه وتعانى
تُملى وتكتب والمشاغل جمة … ويداك فى القرطاس ترتجفان
فهشَشْتَ لى حتى كأنك عائدى … وأنا الذى هدّ السقام كيانى
ورأيتُ كيف تموت آساد الشَّرى … وعرفتُ كيف مصارع الشجعان
ووجدتُ فى ذاك الخيال عزائمًا … ما للمنون بدكّهن يدان

* * *

وجعلتَ تسألنى الرثاء فهاكه … من أدمعى وسرائرى وجنانى
لولا مغالبة الشجون لخاطِرى … لنظمتُ فيك يتيمة الأزمان

(١) قانى: أحمر.

وأنا الذى أرثى الشموس إذا هوت فتعود سيرتها من الدوران

* * *

قد كنتَ تهتف فى الورى بقصائدى وتُجِلُّ فوق النيرات مكانى
ماذا دهانى يوم بِنْتَ فعقّنى فيك القريضُ وخاننى إمكانى
هَوِّنْ عليك فلا شمات بميت إن المنية غاية الإنسان
من للحسود بميتة بُلِّغتها عزّت على كسرى أنو شروان
عوفيت من حَرَب الحياة وحرْبها فهل استرحت أم استراح الشانى

وقال فى ختام القصيدة يذكر فضل مصطفى على مصر:

يا صَبَّ مصر ويا شهيدَ غرامها هذا ثرى مصرٍ فنم بأمان
اخلع على مصر شبابك غاليًا والبس شباب الحور والولدان
فلعل مصرًا من شبابك ترتدى مجدًا تتيه به على البلدان
فلو أنابالهرمين من عَزَماته بعض المضاء تحرّك الهرمان
علّمت شبان المدائن والقرى كيف الحياة تكون فى الشبان
مصر الأسيفة ريفها وصعيدها قبرٌ أبرُّ على عِظامِك حانى
أقسمتُ أنك فى التراب طهارةٌ مَلَكٌ يهاب سؤاله المَلَكان

شهيد الحق

وكان سوقى لا يفتأ يذكر مصطفى بعد وفاته:

فمن ذلك قصيدته التى نظمها سنة ١٩٢٥ لمناسبة ذكراه بعنوان (شهيد الحق)، تناول فيها ما أصاب البلاد من انقسام وتشاحن وتناحر، ثم انتقل من ذلك إلى ذكرى مصطفى كامل، فوفاه حقه من التمجيد، قال فى مطلعها:

إلامَ الخلْفُ بينكمو إلا ما؟ وهذه الضجةُ الكبرى علاما؟
وفيمَ يكيد بعضُكم لبعضٍ وتُبدون العداوة والخصاما؟
وأين الفوز؟ لا مصر استقرت على حالٍ ولا السودان داما

إلى أن قال:

وَلِينا الأمرَ حزبًا بعد حزب فلم نَكُ مصلحين ولا كراما

جعلنــا الحـكم تــوليــةً وعَــزْلا ... ولم نَـعْـدُ الجـزاء والانـتـقــامــا
وسُسْنـا الأمـر حــين خـلا إلينــا ... بـأهـواء النفــوس فـما استقـامـا

وقال ذاكرًا مناقب الفقيد:

شـهيـدَ الحـق قـم تَـره يـتـيـما ... بــأرض ضُيِّعتْ فيـهـا اليـتـامى
أقـام عـلى الشفـاه بها غـريبًا ... ومـرّ عـلى القلوب فـما أقـامـا[1]
سقِمتَ فلم تَـبِت نـفسٌ بـخـير ... كـأن بمهجـة الـوطن السقـامـا
ولم أر مثـل نعشــك إذ تهـادى ... فغـطّى الأرض وانتـظم الأنـامـا
تحـمَّــل همــةً وأقــلّ دِيــنًــا ... وضـمّ مــروءةً وحــوى زمــامـا
ومــا أنســاك فى العشــرين لمــا ... طلعتَ حيــالهـا قمـرًا تمــامًـا
يُشــارُ إليـك فى النــادى وتُـرَمى ... بـعينى من أحـب ومـن تـعـامـى
إذا جئتَ المنـابـر كنت (قسًّـا) ... إذا هـو فى عكـاظَ عَـلا السنـامـا
وأنــت ألــذُّ لـلحـق اهـتــزازًا ... وألـطف حـين تنــطقه ابتسـامـا
وتحـمــل من أديـم الحق وجـهًـا ... صـراحًـا ليس يتخـذ اللثـامـا

* * *

أتـذكـرُ قبـل هـذا الجيــل جيلاً ... سهــرنـــا عن معلِّمـهم ونــامــا؟
مِـهــارُ الحق بـغَّـضْـنــا إلـيـهـم ... شكيمَ القيصـريــة والـلجـامـا
لــواؤك كــان يـسقـيهـم بجـامٍ ... وكـان الشعـر بـين يـدىَّ جـامـا
من الــوطنيــة استبقــوا رحيقًــا ... فَضضْنــا عن مُعتَّقهــا الختــامـا
غـرسنـا كَـرمهـا فـزكـا أصــولا ... بــكــل قــرارة وزكــا مُــدامـا
جمعتهمــو عـلى نبــرات صــوت ... كنفـخ الصوّر حـركت الرجـاما[2]
لـكَ الخـطبُ التى غص الأعــادى ... بســوْرتهـا وســاغت للنَّــدامى[3]
فـكــانـت فى مــرارتهـا زئـيـرًا ... وكــانـت فى حـلاوتهـا بغـامـا[4]

* * *

(١) أى أن الحق تنطق به الأفواه ولا يستقر فى القلوب.
(٢) الرجام: القبور.
(٣) السورة: الحدة والشدة: والندامى جمع نديم والمراد بهم والأنصار والأصدقاء.
(٤) البغام: صوت الظبى.

بكَ الوطنية اعتدلت وكانت ... حديثًا من خرافةَ أو مناما
بنيتَ قضية الأوطان منها ... وصيَّرتَ (الجلاء) لها دِعاما

وله قصيدة فى ذكراه سنة ١٩٢٦ قال:

لم يَمُت من له أَثرْ ... وحياةٌ من السيَرْ
أدعه غائبًا وإن ... بعدت غاية السفرْ
آيب الفضل كلما ... آبت الشمس والقمر[١]
رُبَّ نور مُتَمِّم ... قد أتانا من الحُفَر
إنما المَيْت من مشى ... ميِّتَ الخُبْرِ والخَبر
من إذا عاش لم يُفِد ... وإذا مات لم يضر
ليس فى الجاه والغنى ... منه ظلٌّ ولا ثمر
قَبُحَ العزُّ فى القصـ ... ـور إذا ذَلَّت القُصُر

* * *

أعْوزَ الحقّ ذائدٌ ... وإلى (مصطفى) افتقر
وتمنّت حياضه ... هبّةَ الصارم الذكر
الذى يُنفذ المُدى ... والذى يركب الخطر
أيها القوم عَظِّموا ... واضع الأسّ والحجر
أذكروا الخُطبةَ التى ... هى من آية الكبر
لم ير الناس قبلها ... منبرًا تحت محتضر
لستُ أنسى لواءَه ... وهو يمشى إلى الظَّفر
حَشَرَ الناسَ تحتَه ... زُمَرًا إثْرُها زمر
وترى الحقَّ حولَه ... لاترى البيض والسمُّر[٢]
كلما راح أو غدا ... نفخ الروح فى الصور

* * *

(١) أى يعود للفقيد فضل وتتجدد ذكراه كلما آبت الشمس وعاد القمر

(٢) البيض: السيوف والسمر الرماح.

يـاأخا النّفْس فى الصبـا | لـذةَ الـروح فى الصِّغـر
وخـليـلا ذَخَـرتُـه | لم يُـغَـوَّم بمـدّخـر
حـال بيـنى وبيـنـه | فى فُجـاءاتـه القـدَر
كيـف أجـزِى مـودّةً | لم يَشُبْ صفوها كـدر
غـيرَ دمـع أقـولـه | قَـلَّ فى الشأن أوكـثُر
وفـؤادٍ مـعـلَّلٍ | بـالخيـالات والـذكـر
لم ينم عنـك سـاعـةً | فى الأحـاديث والسَّمر
قـم تـر القـومَ كـتـلة | مثـل مَلْمومة الصخـر
جَـدّدوا أُلفـةَ الهـوى | والإخـاء الـذى شـطر
لـيس لـلخُـلف بيـنهم | أو لأسـبـابـه أثـر
أَلّـفـتـهـم روائـحٌ | غـاديـاتٌ من الغِـير
وصَحـوا مِن منـوّم | وأفـاقـوا من الخَـدر[1]
أقـبلوا نـحـو حَقّهـم | مـا لهـم غيـره وطـر
جَـعـلوه خـلّيـة | شـرعـوا دونها الإبـر
وتـواصَـوْا بـخـطّةٍ | وتـداعـوا لمـؤتمـر
وقـصـارى أولى النهـى | يتـلاقَـون فى الفكـر
آذنـونـا بموقـفٍ | من جـلال ومن خـطر
نسمـع الـليثَ عـنـده | دون آجـامـه زأر
قـل لهـم فى نـديّهم[2] | مصـر بـالبـاب تنتـظر

شوقي وفريد

لم تكن صلة شوقى بفريد كصلته بمصطفى، وعندما تولى فريد زعامة الحركة الوطنية سنة ١٩٠٨، بعد وفاة الزعيم الأول، كانت سياسة (الوفاق) بين الخديوى عباس الثانى والمعتمد البريطانى قد ثبتت قواعدها، وتنكر عباس للحركة الوطنية، ومع صلة شوقى بالقصر واشتداد الجفاء بين الخديوى وفريد، فإنه لم يتعرض له بسوء فى أى قصيدة له، وكان هذا منه نعم الوفاء للوطنية.

---

(١) الخدر الكسل.

(٢) يريد البرلمان.

وبدا حب شوقي للحزب الوطني وتأييده له من رثائه لعمر بك لطفى أحد أقطاب هذا الحزب ومؤسس التعاون فى مصر، فقد نظم سنة ١٩١١ فى رثائه قصيدة بديعة قال فى مطلعها:

قِفُوا بالقُبور نُسائلْ عمرْ ... متى كانت الأرضُ مَثْوَى القمرْ؟

وفيها يقول:

«نِقاباتُكَ» الغُرُّ تبكى عليكَ ... ويبكى عليك النَّدىُّ الأغرّ[1]
ويبكى التعاونُ من سَنَّهُ ... عشيَّة ليس له من أثر
ويبكيكَ (حِزبٌ) تخيَّرتَه ... شريفُ المَرَامِ شريفُ الوطَر
ويبكى الأولَى أنت عَلَّمْتَهُمْ ... وأنت غرستَ فكانوا الثمر

رثاؤه لفريد

ولما توفى فريد سنة ١٩١٩ رثاه بقصيدة من عيون شعره، ظهر فيها تقديره للزعيم الشهيد، قال:

كلُّ حَيٍّ على المنية غادى ... تتوالى الزكابُ والموتُ حادى[2]
ذهبَ الأوَّلون قَرْنًا فقرنًا ... لم يَدُم حاضرٌ ولم يَبق بادى[3]
هل ترى منهمو وتسمعُ عنهم ... غير باقى مآثرٍ وأ يادى؟

* * *

كُرَة الأرض كم رَمَتْ صولجانا ... وطَوَتْ من ملاعب وجياد
والغُبارُ الذى على صفْحَتيْها ... دَورانُ الرحى على الأجساد
كلُّ قبرٍ من جانب القفر يبدو ... علم الحق أو منار المعاد
وزمام الركاب من كلِّ فَجٍّ ... ومحطُّ الرِّحالِ من كل وادى
تطلع الشمسُ حيث تطلع نضجًا ... وتُنحىُّ كمِنْجَل الحصَّاد

إلى أن قال:

أسألتم حقيبةَ الموت ماذا ... تحتها من ذَخيرةٍ وعتاد؟

---

(١) نادى المدارس العليا وكان عمر لطفى رئيسه.
(٢) الحادى هو الذى يغنى للقافلة فتنشط فى سيرها.
(٣) الحاضر ساكن الحضر، والبادى ساكن البادية.

إن فى طيهــا إمــامَ صُــفــوف ... وحــواريّ نِــيَّــةٍ واعــتــقــاد

لــو تــركتم لهــا الــزمــام لجاءت ... وحــدَهــا بــالشهيــد دارَ الــرشــاد

انظروا هل تَروْن فى الجمع (مصرا) ... حــاســرًا قــد تجلَّلت بســواد

تــاجُ أحــرارهــا غُــلامًــا وكهــلًا ... راعــهــا أن تــراه فى الأصــفــاد

وسِّــدوه التــرابَ نِضْــوَ سِفــارٍ ... فى سبيــل الحقــوق نِضــو سُهــاد

واركِــزوه إلى الــقــيــامــة رُمْحًــا ... كــان للحشــد والنَّــدى والــطِّراد

وأَقِــرُّوه فى الصفــائــح عَــضْبًــا ... لم يَــدِنْ بــالــقــرار فى الأغــمــاد

وقال مشيرًا إلى موته فى منفاه:

نــازحَ الــدار أقصــرَ اليــومَ بَــيْنٌ ... وانــتهــت محنــةٌ وكــفَّت عــوادى

وكفى المــوت مــا تخــاف وتــرجــو ... وشــفــى مــن أصــادقٍ وأعــادى

من دنــا أو نــأى فــإن المنــايــا ... غــايــةُ القــرب أو قُصــارى البُعــاد

سِــرْ مع العمــر حيث شئت تؤوبــا ... وافقــد العمــر لا تؤبْ من رُقــاد

ذلــك الحــقُّ لا الــذى زعــمُــوه ... فى قــديــمٍ من الحــديــث مُعــاد

وجــرى لفــظهُ عــلى ألْسنُ النــا ... س ومعنــاه فى صــدور الــصِّعــاد

يــتحــلَّى بــه الــقــوىُّ ولكــن ... كتحــلِّى القتــال بــاسم الجهــاد

* * *

هــل ترى كــالتراب أحسنَ عــدلا ... وقيــامــا عــلى حقــوق العبــاد

نــزل الأقــويــاء فيــه عــلى الضَّعــفَــى وحــلَّ الملوكُ بــالــزُّهــاد

صفحــاتٌ نقيــةٌ كقلوب الــرســل مغســولــة مــن الأحــقــاد

قم إن اسْطعت من سريــرك وانظر ... سِــرَّ ذاك الــلواء فى الأجــنــاد

هــل تــراهم وأنت مــوفٍ عليهم ... غــير بُــنــيــان ألــفــة واتحــاد

أمــةٌ هــيئــت وقــومٌ لخــير الــدهــر أو شــرِّه عــلى استعــداد

مصــرُ تبكى عليــكَ فى كــلِ خــدرٍ ... وتصــوغُ الــرثــاءَ فى كــل نــاد

لــو تــأملتهــا لــراعــك منهــا ... غُــرَّةُ الــبِرِّ فى ســواد الحــداد

منتــهى مــا بــه الــبــلادُ تُعــزَّى ... رجــلٌ مــات فى سبيــل البــلاد

أمَّهــاتٌ لا تحمــل الــشَّكــل إلَّا ... لــلنجــيــب الجــرىء فى الأولاد

(كفـــريـــدٍ) وأين ثـــانى فـــريـــدٍ أىُّ ثــانٍ لــواحــد الآحــاد؟
الــرئيس الجــوادِ فيــما علمنــا وبلونــا وابن الــرئـيس الجــواد
أَكَلَتْ مــالَــه الحـقــوقُ وأبــلى جسمَـه عــائــدٌ من الهم عــادى
لــك فى ذلـك الضّنى رِقَّـــةُ الــرُّو ح وخَفْقُ الــفـؤاد فى الــعُــوَّاد
عِــلَّةٌ لم تَـصِـل فــراشَـك حتى وَطِئَـتْ فى الـقـلوب والأكـبـاد
صـادفت قـرحـة يلائمهـا الصـــــبر وتـأبى عليـه غـيرَ الفسـاد
وَعَـدَ الـدهـرُ أن يكـون ضِمـادا لــك فيهـا فكــان شــر ضمــاد
وإذا الــروح لم تنفَّسْ عـن الجِسْـــــم (فبقــراط)[1] نـافـخٌ فى رَمـاد

قصيدته فى ذكراه

وفى سنة ١٩٢٤ نظم قصيدة فى ذكراه الخامسة، وهى من أبلغ شعره ومن أروع ما قيل فى تمجيد فريد ووطنيته وتضحياته، قال:

نُجــدِّد ذكـرى عهــدكم ونعيــدُ ونُـدْنى خيالَ الأمس وهـو بعيـدُ
وللناس فى الماضى بصائرُ يهتدى عليهن غــاو أوٍ يســير رشيــد
إذا ألْميت لم يكرمُ بأرض ثناؤه تحــيرَّ فيهـا الحىّ كيف يســود
ونحن قضـاة الحق نرعى قـديمه وإن لم يفتنا فى الحقوق جـديد
ونعلم أنــا فى البنــاء دعــائـم وأنتم أسـاسٌ فى البنـاء وطيــد
فـريـدُ ضحـايـانـا كثيرٌ وإنمـا مجـال الضحايـا أنت فيه فـريد
فما خَلْفَ ما كابدتَ فى الحق غايةٌ ولا فـوق ما قـاسيت فيه مـزيـدُ
تغرَّبتَ عشرًا أنت فيهن بـائسٌ وأنت بـآفـاق البــلاد شـريــد
تجــوع ببلدان وتَعـرَى بغيــرهـا وتـرزح تحت الداء وهـو عتيـد
ألا فى سبيـل الله والحقِّ طارفٌ من المـال لم تبخـل بـه وتليـد
وَجُودك بعد المال بالنفس صابرا إذا جـزع المحضور وهـو يجـود

* * *

(١) بقراط هو أبو الطب.

فلا زلت تمثالا من الحق خالصًا   على سِرِّه نبنى العلا ونشيد
يعلِّم نشءَ الحىّ كيف هوى الحمى   وكيف يحامى دونه ويذود

حبه وتقديسه للوطن

إن حب شوقى للوطن يتمشى فى معظم قصائده، مما تراه فى ديوانه، وقد اقتبسنا طرفا منها، وله فوق ذلك أبيات بلغ فيها حبه للوطن درجة التقديس والعبادة مما يجعلها تسير مسرى الحكم والأمثال، على تعاقب السنين والأجيال، وتبعث فى نفوس المواطنين روح الإخلاص العميق للوطن والفناء فيه.

كقوله سنة ١٩٢٠ بعد عودته إلى مصر من منفاه:

ويا وطنى لقيتُك بعد يأسٍ   كأنى قد لقيتُ بك الشبابا
ولو أنى دُعيتُ[١] لكنتَ دينى   عليه أقابل الحَتْم المجابا[٢]
أدير إليك قبل البيْت وجهى   إذا فُهتُ الشهادةَ والمتابا

ففى هذه الأبيات يقدم شوقى الوطن على الدين ويدير وجهه إلى الوطن قبل الكعبة عندما يلقى ربه.

وقوله سنة ١٩٢٤ مخاطبًا الشباب:

وَجْهُ الكنانة ليس يُغضب ربَّكم   أن تجعلوه كوجهه معبودا
ولُّوا إليه فى الدروس وجوهكم   وإذا فرغتم. فاعبدوه هجودا
إن الذى قَسَمَ البلادَ حباكمو   بلدًا كأوطان النجوم مجيدا
قد كان – والدنيا لُحودٌ كلها –   للعبقرية والفنون مُهودا

وقوله وهو فى منفاه:

وطنى لو شغلتُ بالخلد عنه   نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

أى أنه لو شغل عن الوطن بجنة الخلد وسكنها، لبقيت نفسه تهفو إلى الوطن وتنزع إليه.

وقوله من قصيدته سنة ١٩٢٦ فى نكبة دمشق من الاستعمار الفرنسى:

---

(١) أى دعيت إلى الموت.
(٢) الحتم المجاب هو الموت.

ولـلأوطـان فى دَم كـل حُـرٍّ يـدٌ سَـلَفَتْ وديـنٌ مستحقٌّ
ولـلحـريـة الحـمـراء بـاب بكـل يـد مضـرَّجـةٍ تُـدقّ

وقوله:

لا تلومـاهـا أليست حـرة وهوى الأوطان للأحرار دين

وقال سنة ١٩٠٤:

أحبـك مصـر من أعمـاق قلبى وحبـك فى صميم القـلب نـام

وبلغ حبه لمصر أن جعلها كعبة أشعاره قال:

وإنى لَغِـرِّيـد هـذا البـطاح تغَـذَّى جَناهـا وسلسـالَهـا
تَـرَى مصـرَ كعبـةَ أشعـاره وكـلٍّ مـعـلقـة قـالَهـا

ثورة سنة ١٩١٩

قال من قصيدة له بعنوان (الحرية الحمراء) يمجد ثورة ١٩١٩:

يـومُ البـطولـة لـو شهـدتُ نهارَه لنظمتُ لـلأجْيـال مـا لم يُنْـظَمِ
غُبِنَتْ حقيقتُـه وفـات جمـالُهـا بـاعَ الخيـالِ العبقـرىّ الملهَمِ
لـولا عـوادى النفى أو عقبـانـه والنفىُ حـالٌ من عـذاب جهنـم
لجمعتُ ألـوانَ الحـوادث صـورةً[1] مـثّلت فـيهـا صـورة المستـسلم
وحكيتُ فيهـا النيلَ كـاظمَ غيظه وحـكيـتُـه متَـغَـيِّـظًا لم يـكـظم
دَعَت البـلادَ إلى الغمار فغـامـرت وطـنـيـةٌ بمـثـقـف ومـعـلّم
ثارت على الحـامى العتيد وأقسمت بســوَاه جَـلَّ جـلالُـه لا تحتمى

* * *

يـومَ النضالِ كَسَتْكَ لونَ جمـالهـا حُـرِّيـةٌ صَبَغتْ أديمَـك بِـالـدم

---

(١) يشير إلى أنه كان منفاه حين شبت الثورة.

تعلقه بالجلاء

ويبدو فى شعره مبلغ تعلقه بالجلاء، وإيمانه به، وهذا ولا ريب من فيض الوطنية التى يستلهم منها شعره.

قال فى سنة ١٩٢٤ يخاطب الشباب الذين أفرج عنهم بعد الحكم عليهم فى قضية المؤامرة الكبرى:

لمَّا بَنَى اللّهُ القضيةَ[1] منهمو ... قامت على الحقِّ المبينِ عَمُودا
جادوا بأيام الشبابِ وأوشكوا ... يتجاوزون إلى الحياةِ الجودا
طلبوا (الجلاءَ) على الجهادِ مَثُوبةً ... لم يطلبوا أجْرَ الجهاد زهيدا
واللّهِ: ما دون الجلاءِ ويومِهِ ... يومٌ تُسمِّيه الكِنانةُ عيدا
وَجَدَ السجينُ يدًا تُحطِّمُ قَيْدَهُ ... من ذا يُحطِّمُ للبلاد قيودًا؟

وحدة وادى النيل

وقال فى يولية سنة ١٩٢٤ عن وحدة وادى النيل من قصيدة له فى استنكار حادث الاعتداء على المرحوم سعد زغلول ونجاته من محاولة اغتياله:

ولن نرضى أن تُقَدَّ القناةُ ... ويُبْتَرَ من مصر سودانُها
فمصرُ الرياضُ وسودانُها ... عيون الرياض وخلجانُها
وما هو ماءٌ ولكنه ... وريدُ الحياة وشِرْيانُها
تتمِّمُ مصرَ ينابيعُهُ ... كما تَمَّم العينَ إنسانُها
وأهلوه منذ جرى عَذْبُه ... عشيرةُ مصر وجيرانُها

مشروع ملنر

هو مشروع المعاهدة الذى انتهت إليه مفاوضات سعد - ملنر سنة ١٩٢٠ ويحمل فى طياته عناصر الحماية، وكان ممن عارضوه المرحوم الدكتور عبد الحميد أبو هيف، فلما توفى سنة ١٩٢٦ رثاه شوقى فى قصيدة أشار فيها إلى هذه المعارضة وأيدها، قال:

---

(١) يقصد القضية الوطنية.

بالأمس كانت لابن هيف غَضْبَةٌ	للحق نذكرها يدًا بيضاءَ
مشت البلاد إلى رسالة (ملنر)	وتحفزت أرضًا لها وسماء
فلمحتُ أعرجُ فى زوايا الحق لم	أعلمْ عليه ذِمَّةً عرجاء[1]
ارتدت العاهاتُ عن أخلاقه	لسمّوهنّ وحلّت الأعضاء
لما رأى (التقرير) ينفث سمّه	سبق الحواة فأخرج الرقطاء[2]
هتك الحمايةَ والرجال وراءها	يتلمسون لها الستور رياءَ

تصريح ٢٨ فبراير

وقال عن تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢[3].

ربحت من (التصريح) أن قيودها	قد صرن من ذهبٍ وكنَّ حديدًا
أوما ترون على (المنابع)[4]عُدَّةً	لا تنجلى وعلى (الضفاف) عديدًا
يافتيةَ النيل السعيد خذوا المدى	واستأنفوا نَفَسَ الجهاد مديدًا

يدعو إلى التضحية ويهاجم الاستعمار

قال يدعو إلى الجد والتضحية:

والمرء ليس بصادقٍ فى قوله	حتى يؤيد قولَه بِفعَالِه
والشعب إن رام الحياة كبيرةً	خاضَ الغِمار دما إلى آماله

ومن قصيدته سنة ١٩٢٦ فى نكبة دمشق من الاستعمار الفرنسى:

لَحَاها اللّهُ أنباء توالتْ	على سمع الولىّ بما يشُقُّ[5]
يفصّلها إلى الدنيا بريدٌ	ويُجْملها إلى الآفاق بَرْقُ

---

(١) أصيب المرحوم أبو هيف بمرض بترت فيه ساقه وكان يمشى على ساق صناعية.

(٢) الرقطاء. الحية.

(٣) هو التصريح الذى أعلنته بريطانيا فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ وأقرت فيه بانتهاء الحماية على مصر وبالاعتراف باستقلالها واحتفظت فيه بتولى أمور أربعة تعصف بجوهر الاستقلال وهى (١) تأمين مواصلات الإمبراطورية البريطانية فى مصر (٢) الدفاع عن مصر (٣) حماية المصالح الأجنبية فى مصر وحماية الأقليات (٤) السودان.

(٤) منابع النيل بالسودان. وعدة أى جنودا. والضفاف قناة السويس.

(٥) الولى أى المحب والصديق.

وللمستعمرين وإن ألانوا ... قلوبٌ كالحجارة لا ترِقُّ
رماك بطيشه ورمى فرنسا ... أخو حربٍ به صَلَفٌ وحُمق
إذا ما جاء طُلَّاب حقٍّ ... يقول عصابةٌ خرجوا وشَقُّوا
دمُ الثوار تعرفه فرنسا ... وتعلم أنه نورٌ وحقٌّ

إلى أن قال:

نصحتُ ونحن مختلفون دارًا ... ولكن كُلُّنا فى الهمِّ شَرْق
ويجمعنا إذا اختلفت بلادٌ ... بيانٌ غيرُ مُختلفٍ ونُطْقُ
وقفتم بين موت أو حياة ... فإن رمتم نعيمَ الدهر فاشْقوا
وللأوطان فى دم كل حرٍّ ... يدٌ سلفت ودَيْنٌ مستحقّ
ومن يَسقى ويَشْرَبُ بالمنايا ... إذا الأحرار لم يُسْقَوا ويَسْقُوا؟
ولا يبنى الممالكَ كالضحايا ... ولا يُدْنِى الحقوق ولا يحقّ
ففى القتلى لأجيالٍ حياةٌ ... وفى الأسرى فِدًى لهُمُ وعتْقُ
وللحرية الحمراء بابٌ ... بكل يدٍ مضرَّجة يُدَقُّ

يشفق على الوطن

من قصيدة له فى استقبال عيد الفطر يشفق على مصر ويقول أن لا عيد حتى تتحقق أهدافها.

وطنى أسفتُ عليكَ فى عيد المَلَا ... وبكيتُ من وَجْد ومن إشفاق
لا عيدَ لى حتى أراكَ بأمَّةٍ ... شَمّاء راوية من الأخلاق
ذهب الكرامُ الجامعون لأمرهمْ ... وبقيت فى خَلَف بغير خلاق[1]
أيظلّ بعضُهم لبعض خاذلا ... ويقالُ شَعبٌ فى الحضارة راق؟
وإذا أراد الله إشقاء القُرىَ ... جعلَ الهداةَ بها دُعاةَ شِقاق

يدعو إلى الأخلاق

إن بيته المشهور عن الأخلاق هو ديوان من الشعر تتجلى فيه الحكمة الأزلية فى أن الأخلاق

---

(١) الخلاق: النصيب الوافر من الخير.

هى أساس حياة الأمم وسبيلها إلى العظمة والمجد:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقد أكد هذا المعنى الرائع فى غير موضع.

قال:

وإذا أصيب القومُ فى أخلاقهم ... فأَقِمْ عليهم مأتمًا وعويلا

وقال:

وما السلاحُ لقومٍ كلُّ عُدَّتهم ... حتى يكونوا من الأخلاق فى أُهب

وقال أيضًا:

على الأخلاق خُطُّوا الملكَ وابنوا ... فليس وراءها للعز رُكْنُ

وقوله:

المجد والشرفُ الرفيعُ صحيفةٌ ... جُعلت لها الأخلاقُ كالعُنوان

وقوله:

وإذا ما أصابَ بُنْيانَ قومٍ ... وَهْىُ خُلْقٍ فإنه وَهْىُ أُسِّ

وقوله:

كذا الناس بالأخلاق يَبْقَى صلاحُهم ... ويذهبُ عنهم أمرهُم حين تَذْهَبُ

وقوله:

ولقد يُقام من السيوف وليس مِنْ ... عَثَرَاتِ أخلاقِ الشعوب قيامُ

ومن قصيدته (نهج البردة):

صلاحُ أمْرِك للأخلاق مَرْجِعُه ... فقوِّم النفسَ بالأخلاق تَسْتَقِمِ

والنفسُ من خيرها فى خير عافية ... والنفس من شرها فى مرتعٍ وَخِمِ

وقوله:

وكان جنابُهم فيها مَهيبا ... ولَلأخلاق أجدرُ أن تُهابا

وقال فى هذا المعنى من قصيدة له سنة ١٩٢٠:

وليس بعامر بنيانُ قومٍ ... إذا أخلاقهم كانت خرابا

وقوله:

ولا المصائب إذ يُرمَى الرجالُ بها ... بقاتلاتٍ إذا الأخلاقُ لم تُصَبِ

يدعو إلى الوحدة الوطنية

من قصيدة له فى رثاء بطرس غالى سنة ١٩١٠:

الحقُّ أبلجُ كالصباح للناظرِ ... لو أن قومًا حَكَّموا الأحلاما

أعَهِدتَنا والقِبط إلا أمةً ... للأرض واحدةً تروم مراما

نُعْلِى تعاليم المسيح لأجلهم ... ويوقِّرون لأجلنا الإسلاما

الدينُ للديَّان جلَّ جلاله ... لو شاء ربك وحَّدَ الأقواما

ياقومِ بانَ الرشدُ فاقْضوا ما جرى ... وخذوا الحقيقة وانبذوا الأوهاما

هذى ربوعُكُم وتلك ربوعنا ... متقابلين نعالج الأياما

هذه قبوركم وتلك قبورنا ... متجاورين جماجمًا وعظاما

فَبِحرْمة الموتى وواجب حقهم ... عيشوا كما يقضى الجوارُ كراما

وقال من قصيدة أخرى له فى هذا المعنى سنة ١٩١٠:

تعالَوْا عسى نطوى الجفاءَ وعهدَه ... وننبذ أسباب الشقاق نواحيا

ألم تك (مصرٌ) مَهْدَنا ثم لحدنا ... وبينهما كانت لكلٍ مغانيا

ألم تك من قبل (المسيح بن مريم) ... و (موسى) و (طه) تعبد النيل جاريا

فهلا تساقَيْنا على حُبه الهوى ... وهلّا فديناه ضفافًا وواديا

ومازال منكم أهل ودّ ورحمة ... وفى المسلمين الخيرُ ما زال باقيا

فلا يَثْنكم عن ذمة قتلُ (بطرس) ... فقِدْمًا عرفنا القتل فى الناس فاشيا

القوة فى الاتحاد

صوت الشعوب من الزئير مجمعا ... فإذا تفرق كان بعضَ نباح

يستحث الشباب على العلم والجاد

قال مخاطبًا الشباب فى قصيدة نظمها سنة ١٩٢٤ :

يـا شبـاب الغـد وأبنـاى الفـدى　　لـكُم أكـرِمْ وأَعـززْ بـالـفـداء
هـل يمـد الله لى العيش عسى　　أن أراكم فى الفـريـق السـعـداء
وأرى تـاجـكُم فـوق السـهـا　　ورأى عـرشـكُـم فـوق ذُكـاء
من رآكم قـال مصر استـرجعت　　عـزها فى عهـد (خوفـو) و (مناء)
أمـة لـلخـلد مـا تـبـنى إذا　　مـا بنى النـاسُ جميعـا لـلعفـاء
إنمـا مـصـر إلـيـكم وبـكم　　وحقـوق الـبر أولى بـالقضـاء
عـصـركم حـر ومسـتقـبلكم　　فى يمـين الله خـير الأمـنـاء
لا تقـولـوا حـطّنـا الـدهـر فـما　　هـو إلاّ من خيـال الـشعـراء
هـل علمتـم أمـةً فى جـهـلهـا　　ظهـرت فى المجـد حسنـاء الـرداء
بـاطـن الأمـة من ظـاهـرهـا　　إنمـا السـائـل من لـون الإنـاء
فـخـذوا العـلم عـلى أعـلامـه　　واطلبـوا الحكمـة عنـد الحكـماء
واقـرأوا تـاريخكم واحـتـفـظوا　　بفصيـح جـاءكم من فصحـاء
أنـزل الله عـلى ألـسـنهـم　　وحيْـه فى أعصر الـوحى الـوضاء
واحكمـوا الـدنيـا بسلطان فـما　　خُـلقت نـضـرتهـا لـلضـعـفـاء
واطلبـوا المجد عـلى الأرض فـإن　　هى ضـاقت فـاطلبـوه فى السـماء!

يدعو إلى إنكار الذات

وقال مخاطبًا الشباب فى قصيدة قالها سنة ١٩٢٤.

قـالـوا أتنـظم للشبـاب تحيّـة　　تبقى على جيـد الـزمـان قصيـدا
قلت الشبـاب أتم عقـد مـآثـر　　من أن أزيـدهـمـو الثنـاء عقـودا
قبلت جهـودهم البـلاد وقبّلتْ　　تـاجـا عـلى هـامـاتهم معقـودا
خـرجوا فـما مدوا خنـاجـرهم ولا　　منّـوا عـلى أوطـانهم مجهـودا
خفى الأساس عن العيون تواضعا　　من بعـد مـا رفـع البنـاء مشيـدا

حكمه وعظاته

تنساب فى شعر شوقى الحكم والعظات يخاطب بها مواطنيه ويبصرهم بعبر التاريخ وعظات الحوادث، مما نذكر طرفًا منه.

جلال الخالدين

قال عن جلال الملوك وأنه إلى زوال ولا يبقى إلا جلال الخلود:

جــلالُ الملك أيــامٌ وتمضى ولا يمضى جـلال الخـالـدينـا

الخلود للعمل الصالح

وقال سنة ١٩٢٣ عن الخلود وأنه للعمل الصالح:

من سَــرَّه أن لا يموتَ فبــالعُـلَى خَلُدَ الـرجـال وبـالفعـال النَّــابِهِ
مـا مـات من حـاز الثَّرَى آثـارَه واستــولت الـدنيــا عـلى آدابــه
قــل للمـدلّ بمــا لـه وبجــاهــه وبمــا يُحِـلّ النــاسُ من أنسـابــه
هــذا الأديم يَصُــدّ عن حُضّــاره وينـام مـلء الجفن عــلى غُيّـابــه
إلا فــتىً يمشــى عليــه مجـدّدًا ديبــاجتيــه معـمّــرا لخــرابــه

العدل أساس الملك

وقال فى العدل:

والعــدل فى الـدولاب أسٌّ ثــابت يُفنى الــزمــانَ وينقــذ الأجيــالا

فلسفة الحياة

وقال من قصيدته فى رثاء مصطفى كامل:

دقّــاتُ قلب المـرء قــائلة لـه إن الحــيـــاة دقــائـق وثــوان

ومن قوله فى ذكرى كارنارفون مكتشف كنوز توت عنخ آمون:

فى المـوت ما أعيـا[١] وفى أسبـابـه كـل امـرىء رَهْنٌ بِــطْيِّ كتـابــه

(١) ما أعيا: أى ما أعجز عن إدراك حقيقته. ورهن بطى كتابه، أى باق فى الحياة حتى ينتهى أجله.

إن نـام عنـك فكـل طبٍّ نـافـع ... أو لم ينم فـالـطب من أذنـابـه

إلى أن قال منوهًا بفضل كارنارفون فى اكتشافاته الأثرية:

أفْضَى إلى خَتم الـزمـان ففَضّـهُ ... وحَبَـا إلى التـاريـخ فى محـرابـه

وطوى القرونَ القهقرى حتى أتى ... فـرعـونَ بـين طَعـامـه وشـرابـه

ومن قوله فى العظة والاعتبار حين سقطت أدرنة وكانت من أمهات المدن الإسلامية فى مقدونية وغلبها البلغار سنة ١٩١٢:

يـا أخت أنـدلس عليـك سـلامُ ... هـوت الخلافـة عنـك والإسـلامُ

إلى أن قال يندد بسياسة الترك:

رفعـوا على السيفِ البنـاءَ فلم يدم ... مـا للبنـاءِ عـلى السيـوف دوام

أبقى الممـالـكِ مـا المعـارفُ أُسّـه ... والـعـدلُ فـيـه حـائطٌ ودعـام

إنْ الـغـرورَ إذا تملَّكَ أمـةً ... كـالـزهـرِ يُخفى المـوتَ وهـو زؤام

لا حقّ للضعيف

وقال سنة ١٩٢٣ أثناء انعقاد مؤتمر لوزان مشيرًا إلى صلف الإنجليز مع مصر لأنها لم يكن لها من القوة ما تسترد به حقها:

أَتعلم أنهم صـلفـوا وتـاهـوا ... وصدّوا الباب عنـا موصـدينا؟

ولـو كنـا نجـرُّ هنـاك سيفـا ... وجـدنـا عنـدهم عـطفًا ولينـا

سيقضى (كـرزن) بالأمـر عنـا ... وحـاجاتُ (الكنـانةِ) مـا قضينا

وقال فى هذا المعنى:

يـا طـيرُ والأمثـالُ تُضـ ... ـرب لِلَّبيـب الأمـثـل

دُنـيـاك من عـاداتهـا ... ألا تـكـون لأعـزل

الحكم للشعوب لا للمستبدين

قال سنة ١٨٩٤ فى أول قصيدة له فى ديوانه ينبه الملوك إلى قوة الشعوب ويدعوهم إلى النزول على حكمها:

إن ملكتَ النفوس فابغ رضاها فلها ثورةٌ وفيها مضاءُ
يسكن الوحش للوثوب من الأسـ ـر فكيف الخلائق العقلاءُ؟
يحسب الظالمون أن سيسودو ن وأن لن يؤيد الضعفاء
والليالى جوائرٌ مثلما جا روا وللدهر مثلهم أهواء

وقال سنة ١٩٢٢ يبشر بحكم الشعوب وزوال حكم الفرد:

زمان الفرد يا فرعون وَلّى ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض على حكم الرعية نازلينا

وقال سنة ١٩٢٣ يندد بالمستبدين:

المستبدّ يُطاق فى ناووسه لاتحت تاجيه وفوق وثابه[١]
والفرد يؤمن شره فى قبره كالسيف نام الشرُّ خلف قِرابه[٢]

وقال فى هذا المعنى يخاطب توت عنخ آمون سنة ١٩٢٥:

قسما بمن يحيى العظا م ولاأزيدك من يمينْ
لو كان من سفر أبا بك أمس أو فتح مبين
لرأيت جيلا غير جيـ ـلك بالجبابر لايدين
ورأيتَ محكومين قد نصبوا وردّوا الحاكمين[٣]
رُوحُ الزمان ونَظْمُه وسبيله فى الآخرين
ان الزمان وأهله فرغا من الفرد اللعين
فإذا رأيت مشايخا أوفتية لك ساجدين
لاقِ الزمانَ تجدهمو عن ركبه متخلّفين
هم فى الأواخر مولدا وعقولُهم فى الأولين

الشعب قد يُخْدَع

قال فى مسرحية (مصرع كليوباترة) على لسان (حابى) يخاطب (ديون)[٤]:

(١) الناووس. القبر. والوثاب: السرير.
(٢) قراب السيف: غمده.
(٣) نصبوا وردوا: أى ولوا وعزلوا الحاكمين.
(٤) حابى وديون: من أشخاص الرواية وكلاهما من أمناء مكتبة قصر كليوباترة.

إسمَع الشعب ديونُ كيف يُوحون إليه
ملأ الجوَّ هُتافا بحياتى قاتليْه
أثّر البهتانُ فيه وانْطلَى الزُّورُ عليه
يا لَهُ من بَبَّغاءَ عقلُه فى أُذُنَيْه

الحياة الدستورية السليمة

قال عن الدستور:

شرُّ الحكومة أن يساس بواحد فى الملك أقوامٌ عداد رماله

وقال سنة ١٩٢٤ من قصيدة له عن (الأزهر):

وتفيَّأوا الدستور تحتَ ظلالِه كَنَفًا أهشَّ من الرياض وأنضرا
لا تجعلوه هوَىَ وخُلْفًا بينكم ومَجَرَّ دنْيا للنفوس ومَتْجَرا
اليوم صَرَّحت الأمور فأظهرتْ ما كان من خَدع السياسة مضمرا
قد كان وجْهُ الرأى أن نبقى يدًا ونرى وراء جنودها إنجلْترا
فإذا أتتنا بالصفوف كثيرةً جئنا بصفٍّ واحد لن يُكْسَرا

وقال سنة ١٩٢٦ من قصيدة له فى عيد الجهاد:

وبالدستور وهو لنَا حياةٌ نرى فيه السلامةَ والفلاحا
أخذناه على المُهج الغَوَالى ولم نأخذه نَيْلاً مُسْتَماحا
بَنَيْنا فيه من دَمْعٍ رُواقا ومن دم كلِّ نابتةٍ جنَاحا

وقال سنة ١٩٢٧ عن الحياة الدستورية السليمة:

إذا سَلِمَ الدستور هانَ الذى مَضَى وهان من الأحداث ما كان آتيا
الأكل ذنب لليالى لأجله سَدَلْنا عليه صَفْحَنا والتَّناسيا

وقال سنة ١٩٢٦ حينما اجتمع المؤتمر الوطنى يوم ١٩ فبراير من تلك السنة وائتلفت فيه الأحزاب يحيى الدستور لمناسبة عودته بعد توحيد الصفوف:

صَرْحٌ[1] على الوادى المباركِ ضاحى متظاهرُ الأعلام والأوضاحِ

---

(١) يريد الدستور.

ضـافى الجـلالـة كـالعَتيق مفَصَّـلٌ ... ساحـاتِ فضـل فى رِحـابِ سَمـاح
وكـأن رَفْـرَفَـه رواق مـن ضُـحَـى ... وكـأن حـائـطَه عـمـود صَبَـاح
الحقُّ خَلْف جنـاحٍ استـذرى[1] بـه ... ومـراشِـدُ السلطانِ خَـلفَ جَـنَـاح
هـو هيكـلُ الحـريـة القـانى، لـه ... مـا لِلهيـاكـلِ من فِـدىً وأَضَـاح
يُبْنَى كـما تُبْنَى الخنـادقُ فى الـوغى ... تحتَ النبـالِ وصَـوْبِهـا السحَّـاح
يَنْهـارُ الاستبـدادُ حـولَ عِـراصِـه ... مِثْـل انهيارِ الشـركِ حـول(صـلاح)[2]
ويكبُّ طـاغـوتُ الأمـور لِوَجْهِـه ... مـتَحَـطِّمَ الأصـنـامِ والأشبـاح

* * *

هـو مـا بَنَى الأعْزَالُ بـالـرَّاحـات أو ... هـو مـا بَنَى الشـهـداءُ بـالأرواح
أخَـذَنْـهُ (مصـرُ) بكـل يـومٍ قـاتمٍ ... وَرْدِ الـكـواكـب أحمَـر الإصْبـاح
هَبَّتْ سِمـاحًـا بـالحيـاةِ شَبـابُهـا ... والشِّيـب بـالأرْمَـاقِ غـيرُ شِحَـاح
وَمَشَتْ إلى الخَيْـلِ الدوارعِ وانبَـرَتْ ... لـلظّافـرِ الشـاكِي بـغـير سِـلَاح
وقـفـاتُ حـقٍّ لم تَـقَـفْـهـا أمـةٌ ... إلَّا انْـثَـنَـتْ آمـالُهـا بِـنـجـاح
وإذا الشُّعـوبُ بَنَـوْا حقيقـة مُلكِهمْ ... جـعـلوا المـآتـمَ حـائط الأفـراح

إلى أن قال فى توحيد الصفوف:

بُشـرى إلى الـوادى تَهُـزُّ نَبـاتَـهُ ... هَـزَّ الـربيـعِ مَنَـاكب الأدواح
تسـرى مُلَمَّحَـةَ الحُجُـول عـلى الـرُّبَى ... وتَـسِيـلُ غُـرَّتُهـا بـكـلِّ بِـطاح
التـامت الأحـزابُ بعـد تَصـدُّعٍ ... وتـصـافـت الأقـلامُ بـعـد تَـلَاح
سُحبَتْ عـلى الأحقـاد أذيـالُ الهـوى ... ومَشى عـلى الضغْن الـودادُ المـاحى
وجـرَتْ أحـاديثُ العتـاب كـأنها ... سَـمَـرٌ عـلى الأوتـاد والأقـداح
تـرْمى بِطرْفِكَ فى المجـامـع لا تـرى ... غـيرَ التعـانُق واشتبـاك الـراح

إلى أن قال يصف تعطيل الدستور عام ١٩٢٥:

احتَـلَّ حِصن الحق غـيرُ جنـوده ... وتَكـالَبَـتْ أيـدٍ عـلى المفتـاح

---

(١) استذرى: استظل.
(٢) صلاح: اسم لمكة.

ضَجَّت عـلى أبطالهـا تُكُنـاتُـه | واستَـوْحَشَت لِكُماتهـا النُّـزَّاح
هُجِـرَت أرائِكُـه وعُـطِّلَ عُـودُه | وخـلا مـن الغـاديـن والـرواح
وعـلاهُ نَسْـجُ العنكبـوت فـزاده | كـالغارِ من شـرفٍ وسمتِ صـلاح

وقال ينصح الشباب:

قُـلْ للبنـين مقـال صـدق واقتصـد | ذرعُ الشبـاب يضيقُ بـالنُّصَّـاح
أنتمْ بنـو اليـوم العصيبِ نشـأتمـو | فى قـصف أنـواءٍ وعـصف رِيـاح
ورأيتمـو الـوطنَ المؤلف صخـرَةً | فى الحـادثـات وسَيْلهـا المجتاحِ
وشهدتمو صَدْعَ الصفوفِ ومـا جَنَى | مـن أمـر مُفْـتـاتٍ ونَهْيِ وَقـاحِ
صـوتُ الشعوب من الـزئير مجمَّعًـا | فـإذا تَفَـرَّق كـان بعضَ نُبـاح
أظمتكمـو الأيـامُ ثم سقتكمـو | رَنَقًـا من الإحسان غـيرَ قَـراح
وإذا مُـنِحـتَ الخـيرَ من مُـتَكـلِّفٍ | طَهَـرتْ عليـه سجيَّـةُ المنـاح
تـركَتْكُمو مثـلَ المَهِيضِ جناحُـه | لا فى الحبـال ولا طـريقُ سَـراح
مَنْ صَـيَّرَ الأغـلالَ زُهْـرَ قَـلائـدٍ | وكسـا القيـودَ محـاسنَ الأوضـاح
إن الـتى تبـغـونَ دون منـالهـا | طـولُ اجتهـادٍ واضـطرادُ كِفـاح
سيـروا إليهـا بـالأنـاةِ طـويلةً | إن الأنـاةَ سبيـلُ كـل فـلاح
وخـذوا بنـاء المُلْكِ عن دُستـوركم | إن الـشِّـرَاعَ مُثَـقِّـفُ المـلاَّح

ومن قصيدة له سنة ١٩٢٦ حين اجتمع برلمان الائتلاف:

الحق أبلجُ والـكنـانـة حُـرَّةٌ | والـعـزُّ للدسـتـور والإكبـارُ
الأمـر شـورى لايعيثُ مسلَّط | فيـه ولا يـطغَى بـه جـبَّـار
عهدٌ من الشورى الظليلة نضِّرت | صـالـه واخضلَّت الأسحـار
تجنى البـلاد بها ثمـارَ جهودهـا | ولكـل جهـد فى الحيـاةِ ثمـار
بنيـان آبـاء مشـوا بسلاحهم | وبنـين لم يجدوا السـلاح فثاروا
فيـه من التـل المـدرَّج حـائطٌ | ومن المشانق والسجون جـدار
أبت التقيـد بـالهـوى وتقيـدت | بـالحق أو بـالـواجب الأحـرار
فى مجلس لا مـالُ مصر غنيمـة | فيـه ولا سلطانُ مصـر صَغَـار
ما للرجال سوى المراشد منهجٌ | فيـه ولا غـير الصـلاح شعـار

يتعاونون كأهل دارٍ زلزلت حتى تقر وتطمئن الدار
يجرون بالرفق الأمور وفلكها والريح دون الفلك والإعصارُ
ومع المجدّد بالأناة سلامةٌ ومع المجدّد بالجِماح عِثارُ

يدعو إلى انتخاب الأكفاء الشرفاء

ومن قصيدة له سنة ١٩٢٢ قال فى مطلعها:

أُعدَّت الراحةُ الكبرى لمن تَعبا وفاز بالحق من لم يَأْلُهُ طلبا

إلى أن قال مشيرًا إلى الانتخابات البرلمانية:

دارُ النيابة قد صُفَّتْ أرائكها لا تُجْلسوا فوقها الأحجار والخُشُبا
اليومَ يا قَوْمُ إذْ تبنون مجْلِسَكم تبنون للعَقِب الأيامَ والحقبا

ومن قصيدته سنة ١٩٢٤ عن (الأزهر):

دار النيابة هُيِّئَت درجاتُها فلْيَرْقَ فى الدَّرَج الذوائب والذُّرَا
الصارخون إذا أسيء إلى الْحِمَى والذائدون إذا أغِيرَ على الثَّرَى
لا الجاهلون العاجزون ولا الألى يمشون فى ذهب القيود تَبَخْترا

رُوَّاد الوطنية

قال سنة ١٩٢٥ من قصيدة له فى رثاء المرحوم عبد اللطيف الصوفانى:

ألستَ من فئة سهامٍ سَنُّوا المحاماة والرِّماء
فَتاهُم بالشباب ضحَّى ما أعظم الذبحَ والفداء
ومات أبطالهم جياعا فى غير أوطانهم ظِماء
ولو أرادوا متاع دنيا لأدركوا الحكم والثراء
قضيةُ الحق منذ قامت لم تأل أركانَها بناء
تحذو على مصطفى وتبنى جيلا من الحق أقوياء
شرعتمو للشباب دِينا كدينهم بينًا سواء
لما أتيتم به جعلتم رأسَ تعاليمه (الجلاء)
جمعتم مصر ثم سرْتم فكنتم الجمع واللواء
وما عرفتم لغير مصر وغير أحبابها ولاء

لم تمسحوا للعميد رأسا ولا نفضتم لـه حذاء

وقال من قصيدة يرثى فيها المرحوم أمين الرافعى:

قيل غالٍ فى الرأى قلت هَبُوه قد يكون الغلوّ رأيا أصيلا
وقديما بنى الغلو نفوسا وقديما بنى الغلوّ عقولا
قد فقدنا به بَقِيَّة رَهْطٍ أيقظوا النيل واديا ونزيلا
حركوه وكان بالأمس كالكهف حُزونا وكالرقيم سُهولا
يا أمين الحقوق أدّيت حتى لم تَخُنْ مصرَ فى الحقوق فتيلا
ولو اسطعتْ زدتَ مصر من الحق على نيلها المبارك نيلا
لستُ أنساك قابعا بين درجيك مكبًّا عليهما مشغولا
قد تواريت فى الخشوع فخالوك ضئيلا وما خلقتَ ضئيلا
سائل (الشعب) عنك و(العلم) الخفاق أو سائل (اللواء) الظليلا
تُنْشِد الناس فى (القضية) لحنًا كالحوارى رتّل الإنجيلا
ماضيا فى الجهاد لم تتأخر تَزِن الصفَّ أو تقيم الرَّعيلا
ما تبالى مضيت وحدك تحمى حَوْذَةَ الحق أم مضيتَ قبيلا

يدعو إلى النهضة الاقتصادية

قال سنة ١٩٢٠ من قصيدة له فى الاحتفال بإنشاء بنك مصر يدعو إلى الاكتتاب فى رأس مال البنك وينوه بفضل المال فى نهضة الأمم:

قل بالممالك وانظر دولة المال واذكر رجالا أدالوها بإجمال

إلى أن قال:

يا طالبا لمعالى الملك مجتهدًا خذها من العلم أو خذها من المال
بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم لم يُبْنَ ملكٌ على جهل وإقلال
سراة مصر عهدناكم إذا بُسطت يد الدعاء سراعا غير بُخّال
تبين الصدق من بين الأمور لكم فامضوا إلى الماء لا تلووا على الآل
لايذهب الدهر بين الترهات بكم وبين زهر من الأحلام قتال
هاتوا الرجال وهاتوا المال واحتشدوا رأيا لرأى ومثقالا بمثقال
هذا هو الحجر الدرىّ بينكمو فابنوا بناء قريش بيتها العالى

آمال مصر إليهـا عالمـا طمحت ‏ هـل تبخلون على مصـر بآمـال
فابنوا على بركات الله واغتنموا ‏ مـا هيـأ الله من حظٍّ وإقبـال

وقال فى قصيدة أخرى:

الملك بـالمـال والـرجـال ‏ لم يُبن ملك بغـير مال

يحيى النهضة النسوية

كان مؤيدًا ونصيرًا لنهضة المرأة، ألقى هذه القصيدة سنة ١٩٢٤ فى جمع حافل من السيدات المصريات بمسرح حديقة الازبكية، وجعل عنوانها فى ديوانه (مصر تجدد مجدها بنسائها المتجددات) قال:

قُم حَيِّ هـذى النّيراتِ ‏ حيِّ الحِسَـانَ الخيـراتِ
واخفِض جَبينـك هَيبـةً ‏ لـلخُـرَّد المتـخفّـرات(١)
زَيْنَ المقـاصِـر والحِجَـا ‏ لِ وزيْن محرابِ الصلاة
هـذا مَـقَـامُ الأمَّـهـا ‏ تِ فهل قَدرتَ الأمهاتِ؟
لا تلغُ(٢) فيه ولا تَقُلْ ‏ غيرَ الفواصِـلِ محكَمات
وإذا خـطبتَ فـلا تكن ‏ خطْبًا على مِصر الفتـاةِ
اذكـرْ لهـا اليـابـان لا ‏ أمَمَ الهـوى المتهتِّكـاتِ
مـاذا لقيتَ من الحَضـا ‏ رة يـا أخيَّ التـرَّهـاتِ
لم تُلق غير الرق من ‏ عُسرٍ على الشرقى عاضت

* * *

خُـذْ بالكتـاب وبالحـديـ ‏ ـث سيرة السلف الثقاة
وارجـع إلى سُنن الخليـ ‏ ـقَـةِ واتَّبعْ نُـظُمَ الحياة
هـذا رســولُ الله لم ‏ يُنقِصْ حُقـوقَ المؤمنات
العلْم كـان شـريـعـة ‏ لـنسـائـه المتفـقهـاتِ
رُضْنَ التجـارة والسيـا ‏ سة والشؤونَ الأخريات
ولقـد علمت بنـاتـه ‏ لُجـجُ العلوم الـزاخـرات
كانت سكينة(٣) تملأ الـ ‏ ـدنيـا وتهـزأ بـالـرواة

(١) الخرد: العذارى. والمتخفرات: المستحييات. والخفر هو الحياء.
(٢) لاتلغ: لا تقل باطلا.
(٣) سكينة: بنت الحسين رضى الله عنها.

روت الحـديث وفسرتْ ... آى الكتـاب البينـات
وحضـارة الإسـلام تنـ ... ـطُقُ عن مكان المسلمات
بـغـداد دار العـالمـا ... ت ومنـزلُ المتـأدبـات
ودمـشقُ تحـت أميـة ... أمّ الجـوارى[1] النـابغـاتِ
وريـاضُ أنـدلسٍ نمَيّـ ... ـن الهاتفاتِ الشـاعرات
أدْعُ الـرجـالَ لينـظروا ... كيف اتحـاد الغـانيـات
والنَّفْـع كيف أخَذْنَ فى ... أسبـابـه متعـاونـات
لمـا رأيْنَ نَدى الـرَّجـا ... لِ تَفَاخُرًا أو حُبَّ ذات
ورأيْنَ عِنْدهُمُو الصنـا ... ئِعَ والفُنُونَ مُضَيَّعـاتِ
والبر عنـد الأغنيـا ... ء من الشؤون المُهْمَلاتِ

أقبـلن يَبْنـينَ المـآ ... ثِرَ للنجـاح مؤفقـاتِ
للصـالحات عقـائلِ الـ ... وادِى هوى فى الصالحات
الله أنبـتـهـنَّ فى ... طـاعـاته خَيرَ النَّبـاتِ
فـأتـين أطيب مـا أتى ... زَهَرُ المناقِبِ والصفـاتِ
لم يكفِ أنْ أحْسَنَّ حـ ... ـتى زِدْنَ حضَّ المحسنات
يمشين فى سُوقِ الثـوا ... ب مُساوِمـات رابحـاتِ
يَلْبَسْنَ ذُلَّ السـائلا ... ت وما ذكرْنَ البائسات
فـوجُوهُهُنَّ ومـاؤهـا ... سِتْرٌ عـلى المُتَجَمِّلاَتِ
مصـر تُجَدِّدُ مَجْدَهـا ... بنسـائِهـا المُتَجَدِّدَاتِ

النـافـرات مِنَ الجُمـو ... د كـأنه شَبَحُ المَمَاتِ
هـل بَيْنَهُنَّ جَـوَامِدًا ... فـرْقٌ وبـينَ المُـومياتِ
لمـا حَضَنَّ لنـا القضـ ... ـية كُنَّ خَيرَ الحاضِنَات
غَـذَّيْنَهـا فى مَهْدِهَـا ... بِلِبَـابِهِنَّ الـطاهـرات
وسبَقْـنَ فيـهـا المُعْـلمِيـ ... ـن إلىَ الكَريهة مُعْلَمَاتِ[2]
يَنْفُثْنَ فى الفِتْيَـانِ من ... رُوحِ الشجاعة والثبـاتِ
يَهْـوَيْنَ تقبيـلَ المُهَنَّـ ... ـد أو مُعَـانَقَـةَ القنـاة
ويَـرَيْنَ حتى فى الكَـرَى ... قُبَـلَ الـرجّـال مُحـرَّمـات

---

(١) الفتيات.

(٢) المعلمون: بفتح اللام: الفرسان لهم علامة فى الحرب لبطولتهم.

يحيى الصحافة

قال سنة ١٩٢٠ من قصيدة له فى احتفال أقامته نقابة الصحفيين:

لكل زمان مضى آيةٌ　　وآية هذا الزمان الصُّحُفْ
لسان البلاد ونبض العباد　　وكهف الحقوق وحرب الجَنَفْ[1]
تسير مسير الضحى فى البلاد　　إذا العلم مزَّق فيها السَّدف
وتمشى تعلِّمُ فى أمَّةٍ　　كثيرةٍ من لا يخطُّ الألف

＊＊＊

فيا فتية الصحف صبرًا إذا　　نبا الرزقُ فيها بكم واختلف
فإن السعادة غير الظهور　　وغير الثراء وغير التَّرَف
ولكنها فى نواحى الضمير　　إذا هو باللؤم لم يكتنف
ورومو النبوغَ فمن نالَه　　تلقى من الحظ أسنى التحف
حمدنا بلاءكمْ فى النضال　　وأمس حمدنا بلاء السلف
ومَن نسى الفضل للسابقين　　فما عرف الفضل فيما عرف
أليس إليهم صلاحُ البناء　　إذا ما الأساس سَما بالغُرَف

يندد بمن يخذل الوطنية

فى سنة ١٩٠٤ خطب مصطفى رياض باشا فى حفلة تأسيس مدرسة محمد على الصناعية بالإسكندرية خطبة امتدح فيها اللورد كرومر كما امتدح الاحتلال البريطانى.

وقد أثارت هذه الخطبة سخط الرأى العام واستنكرها المواطنون، وكان شوقى صوت الشعر الناطق باستنكار الخطبة وصاحبها، قال:

كبير السابقين من الكرام　　برغْمى أن أنالك بالملام
مقامك فوق مازعموا ولكن　　رأيت الحق فوقك والمقام

---

(١) الجور والظلم.

إلى أن قال:

غمرتَ القوم[١] إطراء وحمدًا وهم غمروك بالنعم الجسام
رأوا بالأمس أنفك فى الثريا فكيف اليوم أصبح فى الرَّغام
خطبتَ فكنت خطبًا لاخطيبًا أضيف إلى مصائبنا العظام
لهجت بالاحتلال وما أتاه وجرحك منه لو أحسست دام
وهل تركت لك السبعون عقلا لعرفان الحلال من الحرام؟

يندد بقاضى دنشواى

كان أحمد فتحى زغلول أحد قضاة محكمة دنشواى الذين أصدرا ذلك الحكم الجائر فى تلك المأساة سنة ١٩٠٦، وقد رقى بعد ذلك وكيلا لوزارة الحقانية (العدل) وأقيمت له حفلة تكريم فى فندق شبرد دعى إليها شوقى فرفض الدعوة وأرسل فى ظرف مغلق هذه الأبيات التى عبر فيها أبلغ تعبير عن تنديده بالمحتفل به وبالمحتفلين:

إذا ما جمعتم أمركم وهممتمو بتقديم شىء للوكيل ثمين
خذوا حبل مشنوق بغير جريرة وسروال مجلود وقيد سجين
ولا تعرضوا شعرى عليه فحسبه من الشعر حكم خطه بيمين
ولا تقرأوه فى «شبرد» بل اقرأوا على ملأ فى دنشواى حزين

الحنين إلى الوطن

زاد حب شوقى للوطن وتعلقه به فى منفاه بالأندلس، وقد كان نفيه بأمر السلطة العسكرية البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٥، وبقى فى منفاه بعيدًا عن الوطن نحو خمسة أعوام إلا قليلا، فازداد شعورًا بلوعة الحزن على فراقه، واستثار النفى الوطنية الكامنة فى نفسه، وأججت الغربة نارها، فانطلق يشدو بالحنين إلى الوطن.

حسبك منه سينيته الأندلسية، تلك القصيدة الخالدة التى نظمها سنة ١٩١٩ يعارِض فيها سينية البحترى، قال فى مطلعها:

اختلافُ النهار والليل يُنسى أذكرا لى الصِّبا وأيامَ أنسى

---

(١) يريد المحتلين.

وسَلَا (مصرَ) هل سلا القلب عنها أو أَسَا جُرحَهُ الزمانُ المؤسّى
كلما مرّت الليالى عليه رَقّ والعهدُ فى الليالى تُقسِّى

إلى أن قال:

يا ابنةَ اليّم[١] ماأبوك بخيلٌ ماله مولعًا بمنعٍ وحبس
أحرامٌ على بلابله الدَّوْ حُ حلالٌ للطير من كل جِنس؟
كلُّ دار أحقّ بالأهل إلاّ فى خبيثٍ من المذاهب رِجْس[٢]
نَفَسى مِرْجَلٌ وقلبى شِراعٌ بهما فى الدموع سيرى وأرسى
واجعلى وجهَك (الفَنار) ومجرا ك يدَ (الثغر) بين (رمل) و (مكْس)
وطنى لو شُغِلتُ بالخُلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى
شَهِد الله لم يغبْ عن جفونى شخصُهُ ساعةً ولم يَخْلُ حِسّى

والقصيدة من أروع مانظم شوقى

وله فى هذا المعنى قصيدة أخرى رائعة نظمها فى منفاه يعارض فيها نونية ابن زيدون. قال:

يانائح (الطّلْح) أشباهٌ عوَادِينا نَشْجَى لواديك أم نَأسَى لوادينا[٤]؟
ماذا تَقُصُّ علينا غير أن يدًا قصتْ جَناحك جالت فى حواشينا!
رمى بنا البين[٣] أيْكًا غَيْرَ سامرنا أخا الغريب؛ وظلًّا غير نادينا

ثم انتقل من خطاب الطائر الحزين إلى بكاء الأندلس قال:

آهًا لنا! نازِحَىْ أيْكٍ بأندلس وإن حلَلْنا رفيفًا من روابينا[٥]
رسمٌ وقفنا على رسم الوفاء له نجيش بالدمع والإجلالُ يَثنينا

إلى أن قال فى الحنين إلى مصر:

لكنَّ (مصر) وإن أغضت على مِقَةٍ[٦] عينٌ من الخُلدِ بالكافور تَسقينا

---

(١) يقصد السفينة.
(٢) يقصد مذهب الاستعمار الذى يضطهد الوطنيين وينفيهم ويمنعهم من التعبير عن آرائهم والإعراب عن آمالهم.
(٣) الطلح وأدبا الأندلس، بضاحية أشبيلية، يخاطب حمام هذا الوادى ويتمثله شبيها به فى لوعته وغربته، وعوادينا أى عوادى الدهر ومصائبه.
(٤) البين: البعد، والأيك: الشجر الكثير الملتف.
(٥) الرفيف: الخصيب.
(٦) المقة: المحبة.

على جوانبها رفَّت تمائمنا — وحول حافاتها قامت رواقينا[١]
ملاعِبٌ مَرِحَتْ فيها مآربنا — وأربُعٌ أنِستْ فيها أمانينا
ومطلع لِسعودٍ من أواخرنا — ومَغْرِبٌ لجدودٍ من أوَاليِنا
بنًّا[٢] فلم نَخْل من رَوحٍ يُرَاوِحنُا — من بِرِّ مصرَ وريْحانٍ يُغاديِنا
كأمِّ موسى على اسم الله تكفلنا — وباسمه ذهبتْ فى اليَمِّ تُلقينا[٣]
ومصر كالكَرْم ذى الاحسان فاكهةٌ — لحاضرين وأكوابٌ لبادينا
يا سارىَ البرق يَرمى عن جوانحنا — بعد الهدوء ويَهْمِى عن مآقينا
لما ترقرق فى دمع السماء دمًا — هاج البكا فخضَبْنا الأرض باكينا

إلى أن قال يخاطب مواطنيه:

إلى الذين وجدنا وُدَّ غيرهم — دنْيَا وودَّهمو الصافى هو الدِّينا
يا من نَغَار عليهم من ضمائرنا — ومن مَصون هواهم فى تَنَاجينا
ناب الحَنِينُ إليكم فى خواطرنا — فى النائبات فلم يأخذ بأيْدِينا

إلى أن قال يشيد فى منفاه بعظمة مصر:

لم تنزل الشمسُ ميزانًا ولا صعدت — فى ملكها الضخم عرشًا مثل وادينا
ألم تُؤلَّهْ على حافَاتهِ ورأتْ — عليه آباءَها الغُرَّ الميامينا؟
وهذه الأرض من سَهْلٍ ومن جبلٍ — قبل (القياصرِ) دِنَّاهَا (فراعينا)
ولم يضَع حَجَرًا بانٍ على حجرٍ — فى الأرض إلَّا على آثار بانينا
كأن (أهرامَ) مصرٍ حائطٌ نَهَضتْ — به يدُ الدهر لا بنيانُ فانينا

إلى أن قال فى تحية مصر وتشوقه إليها من منفاه:

أرض الأُبوةِ والميلاد طيبَها — مَرُّ الصّبا فى ذيولٍ من تصابينا
كانت محجّلةً فيها مواقِفُنا — غُرًّا مُسَلْسَلَةَ المَجْرى قوافينا
فآب من كُرَةِ الأيامِ لاعِبُنا — وثابَ من سِنَة الأحلام لاهِينا

---

(١) الرواقى: جمع راقية وهى مايرقى به الصبى درءا للسحر.
(٢) بنا: أى بعدنا.
(٣) شبه مصر حين اضطرت إلى نفيه بأم موسى عليه السلام حين القته فى اليم صبيا وسألت الله أن يكفله.

ولم نَدَعْ لليالى صافيا فَدَعَتْ ... بأن نَغصَّ فقال الدهر آمينا
لو استطعنا لخُضْنا الجوّ صاعقةً ... والبرَّ نارَ وغًى والبحر غِسْلينا[1]
سَعْيًا إلى مصر نقضى حقَّ ذاكرنا ... فيها إذا نسى الوافى وباكينا

وقال يذكر والدته بحلوان وقد توفيت قبيل عودته:

كنزٌ (بحلوان) عند الله نطلبه ... خيرَ الودائع من خير المؤدينا
لو غاب كل عزيز عنه غيبتنا ... لم يأته الشوق إلَّا من نواحينا
إذا حَمَلْنا لمصرٍ أوله شجنا ... لم ندر أى هوى الأمّين شاجينا

وقال أيضًا سنة ١٩١٧ فى منفاه يهتف بمصر وساكنيها:

يا ساكنى مِصْرَ إنَّا لا نزال على ... عهد الوفاء وإن غبنا مقيمينا
هلّا بعثتم لنا من ماء نيلكم ... شيئًا نبل به أحشاء صادينا[2]
كل المناهل بعد النيل آسنة ... ماأبعد النيل إلَّا عن أمانينا

وقد بعث شوقى بهذه الأبيات إلى صديقه وصنوه حافظ إبراهيم فأجابه حافظ بالأبيات الآتية.

عجبت للنيل يدرى أن بلبله ... صادٍ ويسقى رُبَا مصر ويسقينا
تالله ماطاب للأصحاب مورده ... ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لينا
لم تنأ عنه وإن فارقت شاطئه ... وقد نأينا وإن كنا مقيمينا

يشيد بعظمة مصر

لقد ملك حب مصر مشاعره فكان يتغنى بعظمتها ويشيد بمفاخرها، وتفيض قصائده بهذا المعنى السامى.

قال فى تحية مصر والنيل والهرم من قصيدة نظمها سنة ١٩١٤ يحيى بها الطائرين العثمانيين سالم وكمال حين قدومهما إلى مصر على متن طائرتهما عن طريق العريش وسيناء:

يا راكب الريح حيِّ النيل والهرَما ... وعظّم السفحَ من سيناءَ والحرما

(١) الغسلين: الصديد.
(٢) الصادى: الظمآن.

وقِـفْ عـلى أثَـرٍ مـرّ الـزمـانُ بـه — فـكـانَ أنـبـتَ من أطـوادِه قـمـا
واخفِض جناحَكَ فى الأرضِ التى حملت — موسى رضيعًا وعيسى الطهرِ مُنفِطا
وأخـرجَتْ حكمةَ الأجيـالِ خـالـدةً — وبيَّنتْ للعبادِ السيفَ والقَلما
هـذا فضاءُ تُلِمُّ الـريـح خـاشعـةً — بـه ويمشى عليـه الدهـر مُحتشما

وقال من قصيدة له فى أبى الهول:

أَبـا الهَـوْلِ طـالَ عليكَ العُصُـرْ — وبلِّغتَ فى الأَرض أقصى العمـرْ
فيـالِدَةَ الـدَّهـرِ[1] لا الدَّهـر شـ — ـبَّ ولا أنت جـاوزت حَدَّ الصِّغَر
إلاَمَ ركـوبـكَ مَـتْـنَ الـرمـا — لِ لِطَيِّ الأَصيل وجَوْب السَّحَرْ
تُسـافـر منتـقـلا فى القـرو — نِ فـأيـان تُلقى غُبـار السفـر؟
أبـيْـنـكَ عَـهْـدٌ وبـين الجبـا — لِ تزولان فى المَوْعِد المنتظَر[2]؟
أبـا الهـول أنتَ نـديم الـزمـا — نِ نجيُّ الأوان سمـير العُصُـر
ظـليـلَ الحـضـارة فى الأوَّلـيـ — نَ رَفيـعَ البنـاء جليـلَ الأثـر

وختمها بقوله:

تحـرَّكْ أبـا الهَـول هـذا الـزمـا — ن تحـرك مـافيـه حتى الحجـر

وقال عن الأهرام من قصيدة له سنة ١٩٢٢:

قِفْ نـاجِ أهـرامَ الجـلال ونـادِ — هـل من بُنـاتـك مجلس أو نـادٍ
نشكـو ونفـزع فيـه بين عيـونهم — إن الأُبـوَّة مـفـزع الأولاد
ونبثُّهم عـبثَ الهـوى بتـراثهم — من كـلِّ مُلْقٍ للهـوى بقيـاد
ونبـين كيف تفـرقَ الأخـوانُ فى — وقت البَـلاء تفـرقَ الأضـداد[3]
إن المغـالط فى الحقيقـة نـفسـهَ — بـاغٍ على النفس الضعيفـة عـادِ

* * *

---

(١) أى ياأخا الدهر وقرينه فكأنه والدهر توأمان.
(٢) يوم القيامة.
(٣) يشير إلى الانقسام الذى حدث سنة ١٩٢١ بين سعد وعدلى وأنصارهما وتصدعت بسببه الوحدة الوطنية.

قـل للأعـاحيب الثلاث[١] مقـالـة ... مـن هـاتـف بمـكـانهن وشـاد
لله أنت فـما رأيتُ عـلى الصفـا ... هـذا الجلال ولا عـلى الأوتـاد
لـك كـالمعـابـد رَوعـةٌ قـدسيـة ... وعـليـك روحـانيـة الـعبّـاد
أُسِّسْتِ من أحـلامهم بقـواعـد ... ورفِعتِ مـن أخـلاقِهم بعـمـاد
قُمْ قَبِّـل الأحجـار والأيـدى التى ... أخـذت لها عهـدًا من الآبـاد
وخـذ النبـوغ من الكنـانـة إنها ... مهـد الشمـوس ومسقط الآراد[٢]

وقال يشيد بعظمة الأهرام من قصيدته (على قبر نابليون):

قم إلى الأهـرام واخشعْ واطـرِحْ ... خيلة الصَّيـد[٣] وزهـوَ الفـاتحينْ
وتمـهـلّ إنمـا تمـشـى إلى ... حَـرَم الـدهـر ومحرابِ القـرون
هـو كـالصخـرة عنـد القبط أو ... كـالحـطيم الـطُّهـر عنـد المسلمين
وتسـنَّمْ منبـرًا مـن حَـجَـرٍ ... لم يـكن قبـلك حظَّ الخـاطبين
وادع أجيـالا تـولت يـسمعـوا ... لـك وابعث فى الأوالى حـاشـرين
وأعـدهـا كـلمـات أربـعًـا[٤] ... قـد أحـاطت بـالقـرون الأربعين
قـد عرضت الـدهـر والجيشَ معًـا ... غـايـة قصَّـر عنها الفـاتحـون
عِـظَةُ قـومـى بهـا أولى وإن ... بَعـدَ العهـد فهـل يعتبـرون؟

قصر أنس الوجود

وقال سنة ١٩١٠ عن قصر (أنس الوجود) بأسوان وكيف يغمره النيل وقت الفيضان، من قصيدة يخاطب فيها الكولونل تيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأسبق، وكان قد ألقى خطبة ينتقص فيها من قدر المصريين فرد عليه شوقى بهذه القصيدة:

أيّهـا المنْـتَـحِى (بـأسـوانَ) دارًا ... كـالـثّـريّـا تـريـد أن تَنـقـضَّـا
اخلع النعـلَ واخفِض الطرفَ واخشـعْ ... لا تحـاوِل من آيـةِ الـدَّهـرِ غَضَّـا

---

(١) يريد الأهرام الثلاثة.

(٢) الآراد جمع رأد. يريد رأد الضحى: وقت ارتفاع الشمس.

(٣) الملوك.

(٤) يشير إلى الكلمة التى قالها نابليون لجنوده قبيل معركة الأهرام سنة ١٧٩٨ يستحثهم على القتال: «إن أربعين قرنا تنظر إليكم من فوق قسم هذه الأهرام»

قفْ بتلك (القصورِ) فى اليمّ غَرْقَى ... مُمسكًا بعضها من الذُّعر بعضا
كعذارى أخفَيْنَ فى الماءِ بَضًّا ... سابحاتٍ به وأبدَيْنَ بَضّا
مشرفاتٍ على الزوالِ وكانتْ ... مشرفاتٍ على الكواكبِ نَهْضا
شابَ من حولها الزمانُ وشابتْ . ... وشباب الفنونِ ما زال غَضّا
صَنعةٌ تدهِش العقولَ وفنٌّ ... كان إتقانه على القوم فَرْضا
يا قصورًا نظرتُها وهى تَقْضِى[1] ... فسكبت الدموعَ والحقُّ يُقضى
أنتِ سطرٌ ومجد مصرَ كتابٌ ... كيف سامَ البِلى كتابَك فَضّا
وأنا المُحْتَفى بتاريخ مصر ... مَن يَصُنْ مجدَ قومهِ صانَ عِرْضا

وقال فى يناير سنة ١٩٢٣ بعد اكتشاف كنوز توت عنخ آمون يذكر عظمة مصر الخالدة:

قفى يا أخت (يوشع[2]) خبرينا ... أحاديث القرون الغابرينا
فمثلك من روى الأخبار طرا ... ومن نسب القبائل أجمعينا

إلى أن قال يشيد بحضارة قدماء المصريين وكيف بلغوا الشأو العظيم من المجد:

مشتْ بمنارهم فى الأرض (روما) ... ومن أنوارهم قَبست (أثينا)
ملوكُ الدهر بالوادى أقاموا ... عَلَى (وادى الملوك) مُحَجَّبينا
تعالى الله كان السحر فيهم ... أليسوا للحجارةِ مُنْطِقينا؟
غَدوا يبنون ما يُبقى وراحوا ... وراء الآبداتِ مُخَلَّدينا
إذا عَمدوا لمأثرةٍ أعدُّوا ... لها الإتقانَ والخلق المتينا
وليس الخلد مرتبةً تلقّى ... وتُؤْخذ من شفاه الجاهلينا
ولكن مُنتَهى هِمَمٍ كبار ... إذا ذهبتْ مصادِرُها بقينا
وسرُّ العبقرية حين يسرى ... فينتظم الصنائع والفنونا
وآثارُ الرجال إذا تناهتْ ... إلى التاريخ خير الحاكمينا
وأخذُك من فم الدنيا ثناء ... وتركِك فى مسامعها طنينا

وقال مخاطبًا توت عنخ آمون:

سلامٌ يوم وارتك المنايا ... بواديها ويومَ ظهرتَ فينا

---

(١) تقضى: أى تفنى.

(٢) الخطاب للشمس.

خرجت من القبور خروج عيسى   عليك جلالةٌ فى العالمينا

ومن قصيدة أخرى له عن توت عنخ آمون وقد تخيله قد بعث بعد أربعين قرنا ورأى الاحتلال جاثما عل صدر البلاد فحزن لما رآه وآثر العودة إلى قبره؛ والقصيدة من أروع ما جادت به قريحة شوقى فى الإشادة بأمجاد مصر وفى المعانى الوطنية، قال فى مطلعها مخاطبا توت عنخ آمون:

قمْ سابق (الساعة) واسبق وعْدَها   الأرضُ ضاقت عنكَ فاصدعْ غِمدها
واملأ رماحا غورَها ونَجْدَها   وافتح أصول النيل واستردَّها
شلَّالَها وعَذْبَها وعِدَّها[1]   واصرف إلينا جَزْرها ومدها

إلى أن قال:

سافَرَ أربعين قرنا عَدَّها   حتى أتى الدارَ فألْفَى عندها
انْجِلْترَا وجيَشها ولوردَها   مَسْلُولة الهندىِّ تحمى (هِنْدَها)[2]
قامت على (السودان) تبنى سَدَّها   وركّزت دون (القناة) بَنْدَها[3]

* * *

فقال والحسرةُ ما أشدَّها   ليتَ جدار القَبْر ما تَدَهْدَها[4]
وليتَ عينى لم تفارق رَقْدَها   قُمْ نَبِّنِى يا (بنتئور)[5] مادَها

* * *

مصرُ الفتاةُ بلَغت أشدَّها   وأثبتَ الدم الزكىُّ رُشْدَهَا
ولعبتْ على الحبال وَحْدَهَا   وجَرَّبتْ إرخاءَها وشَدَّها

* * *

ياربِّ قَوِّ يَدَها وشدَّها   وافتحْ لها السُّبْلَ ولا تسدّها
وقِسْ لكل خطوة ما بعْدَها   وعن صغيرات الأمور حُدَّها

---

(١) العد: الماء الجارى
(٢) الهندى: السيف، وهِنْدها: أى الهند.
(٣) البند: العلم.
(٤) تدهده: انقط.
(٥) بنتئور: شاعر مصرى قديم.

واصرف إلى جد الشؤون جدَّها ولا تضع على الضحايا جهدها
واكبحْ هوى الأنفس واكسر حقدها واجمعْ على الأمِّ الرؤوم ولْدَها

وادى الملوك

وقال سنة ١٩٢٥ فى هذا المعنى يذكر توت عنخ آمون وحضارة عصره بعد أن اكتشفت كنوزه فى (وادى الملوك):

درجتْ على (الكنز) القرونْ وأتت على الدَّنّ[١] السنون
ياابن الثواقب من (رعٍ) وابن الزواهر من (أمون[٢])
نسبٌ عريق فى الضحى بذَّ القبائل والبطون
أرأيت كيف يثوب من غَمْر القضاء المغرَقون
وتدول آثار القرو ن على رحى الزمن الطحون
حبُّ الخلود بنى لكم خُلُقًا به تتفردون
لم يأخذ المتقدمو ن به ولا المتأخرون
حتى تسابقتم إلى الإحسـ ـان فيها تعملون
لم تتركوه فى الجليـ ـل ولا الحقير من الشئون
هذا القيامُ فقل لنا الـ ـيومُ الأخيرُ متى يكون؟
البعث غاية زائلٍ فانٍ وأنتم خالدون
السبقُ من عاداتكم أترى القيامة تسبقون؟
أنتم أساطين الحضا رة والبناة المحسنون
المتقنون وإنما يُجزَى الخلودَ المتقون

يتغنى بالنيل

نظم هذه القصيدة الرائعة يتغنى فيها بالنيل، فصور الحياة للوادى وأهله، وأبدع فى وصف روعته وجماله وجلاله، ثم انتقل إلى قدماء المصريين ومفاخرهم، وهى القصيدة التى تغنيها أم كلثوم فتزيدها بهاء وجمالا:

---

(١) الدن: باطية الخمر.
(٢) رع وأمون من آلهة مصر القديمة.

من أَيّ عهْـد فى القُرى تَتَـدفّقُ | وبـأَىّ كـفٍّ فى المـدائن تُـغـدِقُ
ومن السـماء نـزلتَ أم فُجّـرتَ من | عُلْيـا الجنـان جـداولاً تَتَـرقـرق
وبـأىّ عَـينٍ أم بـأيّـة مُـزْنَـة | أم أىِّ طُـوفـان تَـفيض وتَـفْهَـق
وبـأىِّ نَـوْلٍ أَنت نـاسجُ بُـردةٍ | لِلّضفـتـين جـديـدُهـا لا يخلُق
تَسْـودُّ دِيبـاجًـا إذا فـارقتهـا | فإذا حضرت اخْضَوْضر الإسْتبرقُ[١]
أَتت الـدهورُ عليكَ مهدُك مترعٌ | وَجِيـاضك الشُـرقُ الشهيَّة دُفق[٢]
تَسْقى وتُـطعِمُ لا إنـاؤك ضـائِقٌ | بـالـواردين ولإخِـوانـك ينفُق[٣]
والمـاء تسكُبـه فُيسْبَـك عسجـدًا | والأَرضُ تُغـرقهـا فيحيـا المُغْـرَق
تُعيِى متـابِعُـك العقـولَ ويستـوى | مُـتَـخـبِّطٌ فى عـلمـهـا ومحـقّـق

إلى أن قال:

ديـنُ الأوائِـل فـيـك ديـنُ مـرُوءةٍ | لم لا يُـؤَلّـه مـن يَـقُـوتُ ويَـرزُق
لـو أن مخـلوقًـا يُـؤَلّـه لم تـكـن | لِسـواك مـرتبـةُ الأُلـوهـة تخلُق
جعلو الهوىِ لك والـوقـارَ عبـادةً إن | الـعـبـادةَ خَـشـيـةٌ وتـعـلُّق
دانـوا بـبحـرٍ بـالمـكـارم زاخـرٍ | عَـذْبِ المشـارع مَـدُّه لا يُـلْحـق
مـتـقّـيـدٍ بـعـهـوده ووعـوده | يجـرى عـلى سَنَن الـوفـاء ويصـدُق
يـتقـبَّـل الـوادى الحيـاةَ كـريـمـةً | مـن راحتـيـك عميـمـةً تـتـدَفَّق

إلى أن قال يصف مهرجان وفاء النيل عند قدماء المصريين وكيف كانت «عروس النيل» تقدم قربانًا له كل عام:

والمجـد عند الغـانيـاتِ رغيبـةٌ | يُبغى كـما يُبغى الجمـال ويُعشَقَ
إن زوّجـوكَ بهنّ فهى عقيـدة | ومن العقـائد مَـايَلبُّ ويحْمَق[٤]
مـا أجملَ الإيمـان لـولا ضَلّةٌ | فى كـلِّ دين بـالهـدايـةِ تَلْصَق
زُفّت إلى مَلكِ المـلوك يحثُّهـا | دِينٌ ويَـدْفعهـا هـوًى وتَشـوُّق

(١) الديباج والاستبرق: ثوب الحرير.
(٢) الشرق: الغرقى.
(٣) ينفق يفنى أو يقل.
(٤) يلب، أى يصير لبيبا.

ولـربما حسـدتْ عليـك مكـانَها ... تِرْبٌ تمسَّح بالعروس وتُحْـدِقُ[(١)]
مجلوة فى الفُلكِ يَحْـدو فلكَهـا ... بـالشـاطئـيْن مُـزغـردٌ ومُصفِّق
فى مِهْـرَجانٍ هـزَّت الـدنيـا بـه ... أعـطافَها واختـال فيه المشْـرِق
فـرعـونُ تحتَ لـوائِـه وبنـاتُـه ... يَجْرى بهنّ على السفينِ الزورق
حتى إذا بلغتْ مـواكبُها المدَى ... وجـرى لغايتـه القضاءُ الأسْبَق
وكسـا سماءَ المِهـرْجَانِ جـلالـةً ... سيفُ المنيَّـةِ وهـو صَلْتٌ يَبـرق
وتَلّفتت فى اليمِّ كـلُّ سَفـينـةٍ ... وانثال بالوادى الجموعُ وحدّقوا
ألقتْ إليـكَ بنفسهـا ونفيسهـا ... وأتتـكَ شيِّقـةً حـواهـا شيِّق
خلعتْ عليـكَ حياءَهَـا وحياتَهـا ... أأعـزُّ من هـذين شَىْءٌ يُنفَق؟
وإذا تَناهى الحبُّ واتفقَ الفِدَى ... فـالروح فى بـابِ الضحية أَلْيَقُ

إلى أن قال يذكر النيل وأنه مصدر الحياة والحضارة لمصر والوادى:

أصـلُ الحضـارةِ فى صعيـدَك ثـابتٌ ... ونَبـاتُهـا حَسَنٌ عليـك مُخلّق[(٢)]
ولِـدتْ.فكنتَ المهدَ ثم تـرعـرعتْ ... فـأظلَّهـا منـكَ الخَفِىُّ المُـشفِق
مـلأتْ ديـارَك حكمـةً مـأثـورهـا ... فى الصَّخر والبردِى الكريم منبَّق[(٣)]
وبنت بيـوتَ العلم باذخَـةَ الـذُّرى ... يـسعـى لهن مغـرِّبٌ ومشـرِّق
واستحـدثت دينًـا فكـان فضـائـلًا ... وبنِـاءَ أخـلاقٍ يـطول ويَشهَق[(٤)]
مَهَّـدَ السبيـلَ لكـل دينٍ بعـده ... كـالمسك ريَّـاه بـأخـرى تفْتق
يـدعـو إلى بـرّ ويـرفـع صـالحًـا ... ويَعـاف مـا هـو للمـروءة مخلِق

وقال فى ختامها:

يـانيل أنت بـطيب مانعت(الهـدى) ... وبمِـدْحَةِ (التـوراة) أحـرى وأخلق
وإليـك يُهدى الحمـدَ خلْقٌ حـازهم ... كَنَفٌ عـلى مرّ الـدهـور مـرهّق[(٤)]

---

(١) الترب من ولد مع الإنسان. الجمع أتراب وأكثر ما تستعمل فى المؤنث. يقال هذه ترب فلانة.
(٢) مخلق: متطيب.
(٣) مبق: مصطف.
(٤) يشهق من شهق الجبل ارتفع.
(٥) المرهق: كثير غشيان الناس والأضياف.

وعليـك تُجلى من مصـونـات النهى   خـودٌ عرائس خـدرهن المُهْـرَق[1]
الـدرّ فى لَـبَـاتهـن مـنـظّم   والـطيب فى حَبَـراتهن مـرقــرق
لى فيـكَ مـدحٌ ليس فيـه تكلفٌ   أمـلاه حـبٌ لـيس فـيـه تَمَـلق

وفى الحق أنه لم يوصف النيل فى عظمته وجلاله وماضيه وحاضره وخلوده بأبدع مما وصفه شوقى فى هذه القصيدة.

نشيد النيل

ووضع نشيدًا جميلا للنيل يتغنى به الشباب والمواطنون قال:

النيـلُ العَـذْبُ هـو الكَوْثَـرْ   والجنّـة شـاطُئـهُ الأخضـر
ريّـانُ الصفحـة والمَنْـظرْ   مـا أبهى الخَلد ومـا أنضْـر

* * *

البحـر الفيّـاضُ القُـدُسُ   الساقى الناس وما غرسـوا
وهـو المِنْـوالُ لمـا لبسـوا   والمُنْعِمُ بـالقـطن الأنـورْ

* * *

جعـلَ الإنسانَ لـه شَـرْعـا   لم يُخْـلِ الوادىَ مِنْ مـرْعَى
فتـرى زرعًـا يَتْلو زرعًـا   وهـنـا يجْنَى وهـنـا يُبْـذَر

* * *

جـارٍ ويـرى ليس بجـار   لأنـاةٍ فـيـه ووقـارِ
يَـنْـصَبُّ كَـتَـلٍ مـنْهـار   ويَضِـجُّ فتـحسَبـه يَـزْأرْ

* * *

حَبَشـىُّ اللون كـجيـرتـه   مـن منبعـه وبـحيـرتـه
صَبَـغَ الشّـطّين بسُمْـرتـه   لـونـا كـالمسك وكـالعنبر

---

(١) المهرق: الصحيفة.

النشيد الوطنى

وفى سنة ١٩٢٠ وضع نشيدًا وطنيا أقرته اللجنة التى ألفت فى هذا العام لترقية الأغانى الوطنية قال:

بنى مصرٍ مكانكمو تهَيَّا فهيَّا مهِّدوا للملك هيّا
خذوا شمس النهارِ له حليًّا ألم تَك تاجَ أولكم مليّا

* * *

على الأخلاق خُطُّوا الملك وابنوا فليس وراءها للعِّز ركنُ
أليس لكم بوادى النيل عدْنُ وكوثرها الذى يجرى شهيًّا

* * *

لنا وطنٌ بأنفسنا نَقِيه وبالدنيا العريضة نفتديه
إذا ما سيلت الأرواحُ فيه بذلناها كأن لم نعطِ شيّا

* * *

لنا الهرم الذى صحب الزمانا ومن حِدْثانه أخذ الأمانا
ونحن بنو السنّا العالى نَمانا أوائلُ عَلَّموا الأمم الرقيّا

* * *

تطاول عهدُهم عزًّا وفخرا فلما آل للتاريخ ذُخرا
نشأنا نشأة فى المجد أخرى جعلنا الحق مظهرها العليا

* * *

جعلنا مصر ملة ذى الجلال وألفنا الصليب مع الهلال
وأقبلنا كصفّ من عوال يشد السمهرىُّ السمهريا

* * *

تقوم على البناية محسنينا ونعهد بالتمام إلى بنينا
نموت فداكِ مصر كما حيينا ويبقى وجهك المَفْدِىُّ حيّا

نشيد الكشافة

نحن الكشافة فى الوادى جبريلُ الروحُ لنا حادى
يارَبِّ بِعِيسَى والهادى وبموسى خُذْ بيد الوَطَنِ

* * *

كشافةُ مصر وصِبْيتها ومَنَاةُ الدار ومنيتها
وجَمالُ الأرض وحِليتها وطلائع أفراح المُدُن

* * *

نبتدر الخير ونَسْتبقُ ما يَرْضَى الخالِقُ والخَلْقُ
بالنفس وخالقها نثق ونزيد وثوقا فى المحن

* * *

فى السهل نرِفّ رياحينا ونجوب الصخر شياطينا
نبنى الأبدان وتبنينا والهمة فى الجسم المرن

* * *

ونخلى الخلق وما اعتقدوا ولوجه الخالق نجتهد
نأسو الجرحى أنّى وجدوا ونداوى من جَرحَ الزمن

* * *

فى الصدق نشأنا والكرم والعفةِ عن مَسّ الحُرَم
ورعاية طفل أو هَرِمِ والذود عن الغيد الحصن

* * *

ونوافى الصارخ فى اللجج والنار الساطعة الوهج

لانســألــه ثمـنَ المـهــج وكفى بــالـواجب من ثمن

* * *

ربِّ فــكــثّــرنــا عــددا وابــذل لأبــوتنــا المــددا
هـيىء لهـم ولـنـا رشـدا يـاربِّ وخـذ بيـد الـوطن

نشيد الشباب

اليـومَ نسـود بـأيـدينـا ونعيـدُ محـاسنَ مـاضينـا
ونشيـد العـزَّ بـأيـدينـا وطنٌ نَفـديـه ويَفْـدِينا

* * *

وطـنٌ بــالحق نـؤيِّـده وبـعــين الله نـشَـيِّـدُه
ونـحَسِّـنــه ونُـزَيِّنُــه بمــآثـرنــا ومسـاعينـا

* * *

سـرٌّ التاريـخ وعنصرهُ وسـريرُ الـدهر ومِنْبَـره
وجِنـان الخلد وكَـوْثـره وكفى الآبـاء ريـاحينـا

* * *

نتخـذ الشمس له تـاجا وضحاها عَـرْشا وهّـاجا
وسـماء السُّؤدد أبـراجـا وكـذلـك كـان أوالينـا

* * *

العَصْــرُ يــراكم والأممُ والكـرنكُ يلحَظُ والهـرمُ
ابـنى الأوطـان ألا هِمَمٌ كبنــاء الأول يَـبْـنـينـا

* * *

سَعيًـا أبـدًا سعيـا أبـدا لأثيــل المجـد وللعَلْيــا
ولنجعل مصر هى الدنيا ولنجعل مصر هى الدنيا

وظل شوقى يتغنى بالوطنية ويغرد للمواطنين والناطقين بالضاد جميعا ألحان الحرية ويسمعهم أسمى معانى الإنسانية حتى أدركته الوفاة سنة ١٩٣٢، وظل شعره بعد وفاته وسيظل على الدوام رمزًا للحكمة والحرية والخلود.

حافظ ابراهيم
شاعر النيل

١٨٧٢ - ١٩٣٢



هو صِنْو شوقى فى إحياء دولة الشعر، ولئن تميز شوقى بالزعامة كما أسلفنا فى الحديث عن شوقى، فإن حافظا يمتاز عنه بأن نشأته وحياته كانت شعبية، فى حين كانت نشأة شوقى وحياته أرستقراطية، فكان حافظ أقرب إلى رُوح الشعب ومشاعره، وأقدر على تصوير آلامه التى شاركه فيها، واكتوى بلهيبها، فكان لذلك أبلغ فى التعبير عنها، وكانت عباراته أسهل وأقرب إلى إدراك معانيها من عبارات شوقى، لأنه كان يحس إحساسًا قويا أنه يخاطب الشعب فى مجموع مثقفيه وقارئيه.

ولد حافظ إبراهيم سنة ١٨٧٢ من أب مصرى وأم من أسرة تركية، كان أبوه إبراهيم أفندى فهمى مهندسًا يشرف على قناطر ديروط حيث ولد حافظ، وتوفى وحافظ فى الرابعة من عمره، فكفله خاله محمد أفندى نيازى وعاش فى كنفه عيشة الطبقات المتوسطة التى كانت أقرب إلى الضيق منه إلى اليسار، فأحس حافظ منذ صباه بما تعانيه الطبقات الشعبية من جهد ورقة حال، ولما ظهرت مواهبه الشعرية كان الترجمان الصادق الأمين لهذه الطبقات.

تلقى التعليم الابتدائى وجزءًا من التعليم الثانوى، ولكنه لم يتمه، وانتقل مع خاله إلى طنطا وكان مهندس تنظيم بها وانقطع حافظ وقتًا ما عن متابعة التعليم، واتجهت نفسه إلى الأدب والشعر.

واشتغل وقتًا وجيزا بالمحاماة بطنطا، ولكنه لم يستمر فيها إذ لم يجد من نفسه ميلا إليها لما كانت تقتضيه من دأب على العمل المتواصل وهو لم يكن يميل إلى التقيد بمثل هذا الدأب، بل كان كالطير ينطلق مغردًا بين مختلف الأشجار والأغصان.

ولقد فكر فى أن يكون ضابطا بالجيش إذ كانت الحياة العسكرية مما يستثير فى نفسه روح

الشعر والخيال، أو لعله أراد أن يقلد البارودى فى نشأته العسكرية، فالتحق بالمدرسة الحربية بالقاهرة، وتخرج منها سنة ١٨٩١ ضابطا برتبة ملازم ثان، وكان إذ ذاك فى سن العشرين تقريبًا، وانتظم فى حملة السودان بقيادة اللورد كتشنر سردار الجيش المصرى وقتئذ، ولما انتهت الحملة بانفراد الإنجليز بحكم السودان عافت نفسه البقاء فى ربوعه، فالتمس إحالته إلى المعاش وأجيب طلبه وعاد إلى مصر، وغشى مجالس الشعراء والأدباء والعلماء، وأفاض فيها من شعره وأدبه، فتألقت شاعريته، وعرف له معاصروه فضله ومكانته فى عالم الأدب والشعر، وإذ كان الشعر لا يدرّ عليه ما يحفظ مكانته من الوجهة المادية فقد عينه أحمد حشمت وزير المعارف فى سنة ١٩١١ رئيسًا للقسم الأدبى فى دار الكتب المصرية، وظل بها إلى فبراير سنة ١٩٣٢ إذ أحيل إلى المعاش لبلوغه السن القانونية، وتوفى يوم ٢١ يوليه سنة ١٩٣٢.

كان حافظ شاعرًا بطبعه، ظهرت مواهبه الشعرية وهو فى السادسة عشرة من عمره، لم يتلقها عن معلم أو أديب، ولا تعلمها فى المدارس التى انتظم بها، بل كانت وحى الإلهام والسليقة، فكان يقول الشعر وهو فى هذه السن المبكرة، ويأخذ نفسه بالمطالعات الشعرية ويحفظ قصائد فحول الشعراء المتقدمين، واشتدت به الرغبة إلى محاكاتهم فى جيد الشعر، فواتته سليقته الشعرية وساعدته على تحقيق رغبته، وبذَّ مع الزمن أولئك الشعراء، وبلغ الذروة فى عالم الشعر والأدب.

وحافظ يمتاز فى شعره بقوة البلاغة وإشراق الديباجة وطلاوة الأسلوب والروح الخطابية، ولقد أنصفه شوقى إذ قال فى رثائه:

يا حافظ الفصحى وحارسَ مجدها ... وإمامَ من نَجَلت من البُلغاء[1]

مازلت تهتف بالقديم وفضله ... حتى حميت أمانةَ القُدماء

خلّفت فى الدنيا بيانا خالدا ... وتركت أجيالا من الأبناء

وغدا سيذكرك الزمان ولم يزل ... للدهر إنصاف وحسنُ جزاء

أضفت الوطنية على شعر حافظ هالة من العظمة والمجد، فقد كان بلا مراء خير ترجمان للشعب فى أحاسيسه وآماله، وخير مواس له فى مآسيه وآلامه، وتغنى بمصر والنيل فى قصائده الغرّ، ولعلّ بقاءه فى السودان عدة سنين، ومشاهدته غدر الإنجليز هناك، وتدابيرهم فى تحقيق أغراضهم الاستعمارية، قد زاده سخطا على الاستعمار واستمساكا بوحدة وادى النيل، وتجلّت هذه المواهب فى شعره فى شتى المناسبات حتى سمى بحق «شاعر النيل»، وهو إلى جانب ذلك

---

(١) نجلت: أى ولدت.

ساعر الوطنية والاجتماع والأخلاق. كان لا يفتأ يدعو قومه إلى التسلح بالأخلاق فى جهادهم للحرية، إذ يرى الأخلاق قوام الجهاد الصحيح، وبلغت دعوته إلى الأخلاق حدّ التقريع فى مخاطبته لبنى وطنه ومجابهتهم بالحق الصريح.

وحافظ وإن كانت ثقافته شرقية إلّا أنه قد تعلّم الفرنسية على كبر، واقتبس من الآداب الفرنسية ما استطاع أن يقتبسه، وساعده ذكاؤه وألمعيته على محاكاة الشعر الغربى أحيانًا، وكان يميل إلى التجديد فى شعره، وفى ذلك يقول:

آن يا شعر أنْ تَفُكَّ قيودا ... قيّدتنا بها دعاة المحال

فارفعوا هذه الكمائم عنا ... ودعونا نشم ريح الشمال

ولقد نجح حافظ فى أن يرتفع بشعره فى كثير من المواطن إلى التجديد واقتباس المعانى والأفكار والأساليب الحديثة، فزاد شعره طلاوة ورنينًا موسيقيًا حبّباه إلى النفوس وجعلا بعض قصائده أشبه بالأغانى والتغاريد.

الوطنية فى شعر حافظ

تتجلى الروح الوطنية ويتألق نورها فى شعر حافظ، ولقد وجدت الحركة الوطنية فى قصائده البديعة قوة تستمد منها الحماسة والصمود فى الجهاد، والثورة على الاحتلال.

كان شعره معينًا لا ينضب من الكفاح الوطنى، وكان حبه للوطن يملك عليه شغاف قلبه، ويلهمه الذود عن حريته واستقلاله، ولقد عبّر عن هذه العاطفة الملتهبة بقوله من قصيدة له سنة ١٩٠٠:

مَتَى أَرَى النِّيلَ لا تَحْلُو مَوارِدُهُ ... لِغَيرِ مُرْتَهِبٍ لِلَّهِ مُرْتَقِبِ

فقد غَدَت مِصرُ فى حالٍ إذ ذُكِرَتْ ... جادَتْ جفونى لها باللُّؤْلُؤِ الرَّطب

كأنّنى عندَ ذكرى ما أُلِمُّ بها ... قرْمٌ تَرَدَّدَ بين المَوْت والهرَبِ[1]

إذا نَطَقْتُ فقاعُ السِّجْنِ متَّكأٌ ... وإنْ سَكَتُّ فإِنَّ النَّفْسَ لَم تَطِبِ

أَيَشْتَكى الفَقْرَ غادِينا ورَائِحُنا ... ونحن نَمْشِى على أرضٍ من الذَّهب؟!

وقوله فى قصيدة له سنة ١٩٠٩:

لعمرك ماأرقتُ لغير مصر ... ومالى دونها أمل يرام

(١) القرم: أى الرجل الشجاع.

ذكـرتُ جلاَلَهـا أيام كـانت | تصول بها الفراعنة العـظام
وأيـامَ الـرجـالُ بهـا رجـالٌ | وأيـامَ الـزمـانُ لهـا غـلام

وقوله من قصيدة له سنة ١٩١٠ :

كَمْ ذا يُكـابِـدُ عـاشقٌ ويُـلاقى | فى حُبِّ مصـرَ كثيـرَةِ الـعُشَّـاقِ
إنِّى لأَحْمِـلُ فى هـوَاكِ صَبَـابـةً | يامصرُ قد خَرجَتْ عن الأطواق[1]
لَهفى عـليـكِ مَتَى أراك طـليقـةً | يَحْمِى كـريمَ حِمـاكِ شَعْبٌ رَاقى
كـلِفٌ بمَحْـمـود الخِـلال متَـيَّمٌ | بـالبَـذْل بـين يَـدَيْـك والإنْفـاق

وقوله من قصيدة له سنة ١٩١٩ نظمها فى (ملجأ الحرية):

فتَعـاهَـدْنـا عـلى دَفْـعِ الأذى | بـرُكـوبِ الحَـزْم حتّى نَـظْفَـرا
وتَـواصَـيْنَـا بَـصـبْرٍ بَيْـنَـنَـا | فَـغـدَونَـا قـوَّةً لا تُـزْدَرَى
أَنْشَـرَتْ فى مصـرَ شَعْبًا صَـالحًـا | كـان قَبْـلَ اليَـوْم مُنْفـكّ العُـرا[2]
كـم مُحِـبٍّ هـائِـمٍ فى حُـبِّـهـا | ذادَ عَنْ أَجْفَـانِه سَـرْحَ الكَـرَى[3]
وشَـابٍ وكُـهـولٍ أَقْسَـمـوا | أنْ يَشِيـدُوا مَجْدَهـا فـوْقَ الـذُّرَا[4]

حافظ ومصطفى كامل

عاصر حافظ مصطفى كامل. وكان صديقًا له معجبًا بجهاده. رغم صداقته وصلته بخصومه السياسيين. وكان مصطفى شديد الإعجاب بشعره وأدبه. وعندما ظهر الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠١ قرظه فى «اللواء»[5] تقريظًا يدل على عظم تقديره لشاعر النيل وأسهب فى الثناء عليه سنة ١٩٠٣ حين عرّب كتاب (البؤساء) لڤيكتور هيجو.

قصيدة حافظ
فى حفلة مدرسة مصطفى كامل

ويبدو إعجاب حافظ بمصطفى وجهاده فى قصيدته التى ألقاها يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٠٦ فى احتفال مدرسة مصطفى كامل تعليقًا على خطبة مصطفى. قال فى مطلعها:

---

(١) الأطواق جمع طوق: أى الجهد والطاقة.
(٢) أنشرت: أحيت.
(٣) الكرى: النوم.
(٤) الذرا: جمع ذروة وهى المكان المرتفع.
(٥) عدد ٩ أكتوبر سنة ١٩٠١.

سمِعنا حديثًا[١] كقطْر الندى ... فجدَّد فى النفس ما جددا
وأضحى لآمالنا منعِشًا ... وأمسى لآلامنا مُرْقِدا

وقال يستثير فى النفوس روح الأمل والحياة وهى الدعوة المحببة إلى الفقيد:

فدنياكَ يا شرقُ لا تجزعنْ ... إذا اليوم وَلَّى فراقبْ غدا
فكم محنةٍ أعقبتْ محنةً ... وولَّت سِراعًا كرجعْ الصدى
فلا يُبْئِسَنَّكَ قِيلُ العداة ... وإن كان قيلا كَحزِّ المُدى[٢]
أتودَع فيك كنوزُ العلوم ... ويمشى لك الغرب مسترفدا[٣]
وتُبعثُ فى أرضك الأنبياءُ ... ويأتى لك الغرب مسترشدا
وتقضى عليكَ قضاة الضلال ... طِوالَ الليالى بأن تُرقدا؟
أتَشْقى بعهد سما بالعلوم ... فأضحى للضعيف بها أيِّدا[٤]
إذا شاء بَزَّ للسُّها سِرَّه ... وأدرك من جَرْيه المقصِدا[٥]
وإن شاء أدنى إليه النجوم ... فناجى المَجَرَّةَ والفرقَدا[٦]
وإن شاء زعزع شُمّ الجبال ... فخرت لأقدامه سُجَّدا
وإن شاء شاهد فى ذرَّةٍ ... عوالم لم تحْىَ فيها سدى
ومانٌ تُسَخَّر فيه الرياح ... ويَغْدو الجماد به منشِدا[٧]
وتَعْنوا الطبيعةُ للعارفين ... بمعنى الوجود وسِرِّ الهُدَى
إذا ما أهابوا أجابَ الحديدُ ... وقام البخارُ له مُسْعِدا[٨]
وطارتْ إليهم من الكهرباء ... بروقٌ عَلى السّلك تَطوِى المدَى

* * *

أيَجْمل من بعد هذا وذاك ... بأن نَسْتكين وأن نَجْمُدا؟

(١) يقصد خطبة مصطفى كامل فى الحفلة.
(٢) المدى بالضم جمامدية: وهى السكين.
(٣) مستر فدا: أى يطلب الرفد وهو العطاء.
(٤) الأيد، بتشديد الياء: القوى، من الأيد بمعنى القوة.
(٥) بزه سلبه، والسها الكوكب المعروف، أى إذا ساء ذو العلم سلب من السهى سره وأظهره للناس.
(٦) المجرة والفرقد: نحوم فى السماء.
(٧) يشير إلى الطيران والفوتوغراف.
(٨) مسعدا: أى معينا.

وهـا أمـة (الصُّفـر) قـد مَهَّـدَت   لنـا النهـجَ فـاستبقـوا المـوردا[١]

وقال فيها مخاطبا الشباب:

فيـا أيهـا النـاشئـون اعملوا   عـلى خير مصـر وكـونـوا يـدا
ستُظهِر فيكم ذوات الغيـوب[٢]   رجـالاً تكـون لمصـر الفِـدا
فيـاليـت شعـرىَ مـن منـكُم   إذا هى نـادت يلبّـى النـدا؟

وقال فى ختامها مخاطبا مصطفى كامل:

لَـكَ الله يـا (مصـطفى) من فتىً   كثـير الأيـادى كثـير العـدا
إذا مـا حمدتُـكَ بـين الـرجـال   فـأنـت الخـليـقُ بـأن تُحْـمـدا
سيحصِى عليـك سجـلُّ الـزمـان   ثـنـاءً يُخـلِّد مـا خُـلِّدا
ويهـتـف بـاسـمـك أبنـاؤنـا   إذا آن لـلزرع أن يُحـصَـدا

والقصيدة من أبلغ شعر حافظ. وتأمل فى البيت الأخير منها تجد حافظا يقر لمصطفى بأنه الموجد للحركة الوطنية، وأنه الجدير بأن تعرف الأمة له هذا الفضل عندما تجنى ثمار هـذه الحركة. وقد ظل على هذا الرأى بعد وفاة الفقيد وبعد ظهور زعامة سعد زغلول للحركـة الوطنية سنة ١٩١٩. وجهر به فى رثائه للمرحوم محمد فريد فى ديسمبر سنة ١٩١٩، إذا قال مناجيا روح فريد:

قـلْ (لصبّ النيـل)[٣] إن لاقيتَـه   فى جـوار الـدائم الفـرد الصمَّـدْ
إن مِصـرًا لا تَنِى عن قصـدهـا   رغمَ مـا تلقى وإن طـال الأمـدْ
جئتُ عنهـا أحمـل البشـرى إلى   (أول البـانـين) فى هـذا البلـدْ
فـاستـرحْ واهنـأ ونم فى غِبـطةٍ   قـد بـذرت الحب والشعبُ حَصَـدْ

فحافظ يعترف هنا أيضًا لمصطفى بأنه أول البانين فى صرح الحركة الوطنية، وبأنه بذر الحب وأن الشعب حصد وجنى ثمار ما بذر. ورأى حافظ سنة ١٩١٩ هو تأييد وتوكيد لرأيه سنة ١٩٠٦.

---

(١) أمة الصفر: أى اليابان.
(٢) ذوات الغيوب: أى الأقدار التى فى عالم الغيب.
(٣) يريد مصطفى كامل.

قصيدة حافظ فى حادثة دنشواى

لقيت حادثة دنشواى[١] صداها فى شعر حافظ، فنشر فى ٢ يوليه سنة ١٩٠٦ - أى بعد صدور الحكم فيها بخمسة أيام - قصيدته المشهورة عن الحادثة. ندد فيها بسياسة الاحتلال، وسبق بها شوقى بعام، إذ أن شوقى لم يقل قصيدته عن الحادثة إلا بعد عام من وقوعها.

قال حافظ فى مطلع قصيدته مخاطبا المحتلين:

أيهـا القـائمـون بـالأمـر فينـا ! ... هـل نسيـتم وَلاءنـا والـودادا ؟!
خَفِّضـوا جيشكم ونـامـوا هنيئـا ... وابتغـوا صيدكم وجـوبـوا البـلادا
وإذا أَعْـوَزَتْـكُـم ذاتُ طـوْقٍ[٢] ... بـين تلك الـرُّبـا فصيـدوا العبـادا
إنمـا نـحـن والحـمـام سـواءٌ ... لم تُغـادرْ أطـواقُنـا الأجيـادا[٣]
لا تـظنُّـوا بنـا العقـوق ولكن ... أرشـدونـا إذا ضللنـا الـرَّشـادا
لا تُـقِيـدوا مـنْ أمَّـةٍ بقـتيـلٍ ... صـادت الشمسُ نفسَه حـين صـادا[٤]

وقال يصف الحادثة وفظائع المحاكمة والتنفيذ:

جـاء جُهّـالنـا بـأمـرٍ وجئتم ... ضِعْفَ ضعفيـه قسوةً واشتـدادا
أَحسنِوا القتل إن ضننتمْ بعفـوٍ ... أقِصـاصًـا أردتم أم كـيـادا ؟
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفـوٍ ... أنفـوسًـا أصبْتم أم جمـادا ؟

* * *

ليت شعـرى أتلك (محكمـة التفـ ... ـتيش)عادت أم عهْد(نيرون)عادا ؟
كيف يحلو من القـوىِّ التَّشفِّـى ... من ضعيفٍ ألقى إليـه القيـادا ؟
إنّها مُـثْلةٌ تـشـفُّ عـن الـغـيـ ... ـظ ولـسنـا لـغيْـظكم أنـدادا
أكْـرِمـونـا بـأرْضنـا حيث كنْتم ... إنّمـا يُـكـرم الجـوادُ الجـوادا
إنّ عشـرين حِجَّـةً بعـد خمسٍ ... علمتنـا السُّكـون مهـما تمـادى

---

(١) راجع تفصيلها فى كتابنا (مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية).
(٢) ذات طوق: أى الحمامة.
(٣) الأطواق هنا سلاسل الأسر والاستعباد والأجياد الأعناق، جمع جيد.
(٤) أى لا تأخذوا الأمة بقتيل ثبت أنه مات بضربة الشمس، وهو الكابتن بول.. وأقاد الحاكم القاتل بالقتيل أى قتله به قودا.

أمّـةُ النيـل أكْبـرت أن تُعـادى مَنْ رمـاهـا وأشْفقت أن تُعـادَى
لـيس فـيـهـا إلاّ كـلامٌ وإلاّ حشْـرةٌ بعـد حسـرةٍ تتهـادى

وقال مخاطبا المدعى العمومى فى القضية:

أيّهـا المـدَّعى العمـوميُّ[1] مهـلاً بعضَ هـذا فقـد بلغت المـرادا
قـد ضمنّـا لـك القضـاء بمصـر وضـمنّـا لـنـجـلك الإسعـادا
فـإذا مـا جلسْت للحكم فـاذكـرْ عهـد (مصـر) فقـد شفيت الفؤادا
لا جرى النيلُ فى نـواحيكِ يـا (مصـرُ) ولا جـادكِ الحَيـا حيث جـادا[2]
أنتِ أنْبَتِّ ذلـك النَّبْتَ يـا (مـصـر) فـأضْحى عليك شـوكًـا قَتـادا
أنت أنبتِّ نـاعِقًـا قـام بـالأمـ ـس فـأدْمَى القـلوبَ والأكْبـادا

* * *

إيـهِ يـامِدْرَهَ القضـاء ويـا مَنْ سـاد فى غَفْلَة الزِّمـان وشـادا
أنتَ جـلاَّدُنـا فـلا تَنْس أنّـا قـد لبسنا عـلى يديـك الحدادا

والقصيدة كما ترى من أروع ما قال حافظ، وفيها تصوير لتلك الحادثة الفظيعة التى أظهرت مبلغ الظلم البريطانى ومبلغ هوان المصرى فى نظر الاحتلال، ولقد حمل حافظ بأسلوبه اللاذع القوى على هذا الظلم حملات اهتزت لها أركانه، كما حمل على الضعف الذى كان من أسباب استفحال هذا الظلم. فكانت هذه الحملة دعوة صادقة إلى اطراح الضعف والأخذ بـأسباب النهوض والقوة فى محاربة الاحتلال.

قصيدته فى استقبال اللورد كرومر

بعد حادثة دنشواى

وعاد يصف فظائع الاحتلال فى حادثة دنشـواى فى قصيدة لـه قالهـا فى أكتوبـر سنة ١٩٠٦ لمناسبة عودة اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى أجازته وكان صاحب الحـول والطول وقتئـذ فى البلاد.

(قصرَ الدُّبـارة)[3]هل أتـاك حديثُنـا فـالشـرقُ رُيـعَ لـه وَضـجَّ المغـربُ

---

(١) إبراهيم الهلباوى.
(٢) الحيا: المطر.
(٣) يريد دار المعتمد البريطانى.

أهلاً بساكنك الكريم ومَرحبًا بعد التحية إننى أتَعتَّب
نَقَلَتْ لنا الأسلاكُ عنك رسالةً باتَتْ لها أحشاؤنا تتهلّب

إلى أن قال:

إنْ ضاقَ صدر النيل عمّا هالَه يوم الحَمام فإن صدرك أرحب[١]
أو كلما باح الحزين بأنَّةٍ أمْسَت إلى معنى التعَصّب تُنسب[٢]
رفقًا عميدَ الدولتين بأمة ضاق الرجاء بها وضاق المذهب
رِفقًا عميدَ الدولتين بأمة ليست بغير ولائها تتعذب
إن أرهقوا صيَّادكم فلعلهم للقوت لا للمسلمين تعصبوا
ولربما ضَنَّ الفقيرُ بقوته وسخا بمهجته على من يَغصِب
فى (دنشواى) وأنت عنا غائب لَعِب القضاءُ بنا وعزَّ المهرَب
حسِبوا النفوسَ من الحمام بديلةً فتسابقوا فى صيدهن وصوَّبوا
نُكبوا وأقفرت المنازل بعدَهم لو كنتَ حاضرَ أمرهم لم يُنكبوا!
خَلَّيتهم والقاسطون[٣] بمرصدٍ وسياطُهم وحبالُهم تتأهب
جُلدوا ولو منَّيتهم لتعلقوا بحبال من شنقوا ولم يتهيَّبوا
شُنِقوا ولو منحوا الخيار لأهلَّوا بلظى سياط الجالدين ورحبَّوا[٤]
يتحاسدون على الممات وكأسُه بين الشفاهِ وطعمهُ لا يَعذُب
موتان: هذا عاجلٌ متنمِّرٌ يرنو وهذا آجلٌ يترقَّب
والمستشار[٥] مكاثِرٌ برجاله ومعاجزٌ ومناجزٌ ومحزِّب
يختال فى أنحائها متبسمًا والدمع حول ركابه يتصبب
طاحوا بأربعة فأردوا خامسا هو خير ما يرجو العميد ويطْلب
حبٌّ يحاولُ غرسه فى أنفس يُجنىَ بغرسها الثناءُ الطيب

(١) يوم الحمام أى يوم صيد الحمام فى حادثة دنشواى.
(٢) يشير إلى ما زعم اللورد كرومر من أن التعصب الدينى هو سبب حادثة دنشواى.
(٣) القاسطون الظالمون.
(٤) أهلوا ورحبوا أى قالوا أهلا ومرحبا.
(٥) يريد الكبتن متشل مستشار وزارة الداخلية. وكان يشرف على تنفيذ الحكم ومعاجز من عاجزت الرجل إذا أتيت بما يجعله عاجزا. وحزب أى جمع أعوانه وأحزابه فبعضهم يتولى الشنق وبعضهم يتولى الجلد.

كن كيف شئتَ ولا تكِلْ أرواحنا … للمستشار فإن عدلك أخصب
وأفِضْ على (بُندٍ)[1] إذا ولى القضا … رفقًا يهشّ له القضاء ويطرَب

قصيدته فى شكوى مصر من الاحتلال

قالها فى يناير سنة ١٩٠٧:

لقد كان فينا الظلمُ فوضى فهُذِّبَت … حواشيه حتى بات ظلمًا منظما
تَمُنُّ[2] علينا اليوم أن أخضب الثرى … وأن أصبح المصرىُّ حُرًّا منعما
أعِدْ عهد (إسماعيل) جَلْدًا وسخرة … فإنى رأيتُ المَنَّ أنكى وآلما
عمِلتم على عِزِّ الجماد وذُلِّنا … فأغليتمُ طينًا وأرْخصْتُم دما
إذا أخصبتْ أرضٌ وأَجدب أهلها … فلا أطلَعَتْ نبتًا ولا جادَها السَّما
نَهشُّ إلى الدينار حتى إذا مشى … به ربه للسوق ألفاهُ درهما
فلا تحسبوا فى وَفرة المال – لم تُفدْ … متاعًا ولم تعصم من الفقر – مَغنما
فإن كثير المال – والخفضُ وارفٌ … قليلٌ إذا حلَّ الغلاءُ وخيَّما[3]

قصيدته فى استقالة اللورد كرومر

فتى الشعر هذا موطن الصدق والهُدى … فلاتكذب التاريخ إن كنت منشدا
لقد حان توديعُ العميد وإنه … حقيق بتشييع المحبّين والعِدا
فودّعْ لنا الطودَ الذى كان شامخا … وشيِّع لنا البحرَ الذى كان مُزبِدا

إلى أن قال:

يناديكَ قد أزريت بالعلم والحجا … ولم تُبقِ للتعليم يا (لورد) معهَدا
وأنك أخصبتَ البلاد تعمُّدا … وأجدبت فى مصر العقول تعمدا
قضيتَ على أمّ اللغات وإنه … قضاء علينا أو سبيلٌ إلى الردى[4]

---

(١) المستر بوند وكيل محكمة الاستئناف وأحد قضاة المحكمة المخصوصة التى حاكمت المتهمين فى حادثة دنشواى وكان القاضى الموجه للأسئلة ونمت أسئلته على سوء نيته وميله إلى الانتقام والتشفى.
(٢) يخاطب المعتمد البريطانى.
(٣) الخفض سعة العيش. يريد أن كثرة المال مع غلاء الأسعار لاتغنى شيئا
(٤) أم اللغات أى اللغة العربية. يشير إلى محاربة الاحتلال للغة العربية وجعل دراسة العلوم فى أكثر المدارس باللغة الإنجليزية.

ووافَيتَ والقطران فى ظل رايةٍ ... فمازلت (بالسودان) حتى تمردا
فطاح كما طاحت (مصوَّع) بعده ... وضاعت مساعينا بأطماعكم سدى
حَجْبتَ ضياء الصحف عن ظُلماته ... ولم تستقل حتى حجْبتَ (المؤيدا)[١]
وأودعتَ تقرير الوداع مغامزًا ... رأينا جفاء الطبع فيها مُجسدًّا
غمرتَ بها دينَ النبى وإننا ... لنغضب إن أغضبتَ فى القبر (أحمدا)

* * *

يناديك أين النابغون بعهدكم ... وأى بناء شامخ قد تجددا؟
فما عهد إسماعيل والعيش ضّيقٌ ... بأجدب من عهد لكم سال عَسْجدا
يناديك ولَّيتَ الوزارة هيئةً ... من الصمِّ لم تَسمعْ لأصواتنا صدى
فليس بها عند التشاور من فتىً ... أبِيٍّ إذا ما أصدر الأمر أوردا
بربك ماذا صدَّنا ولوى بنا ... عن القصد إن كان السبيل ممهدا؟
أشرت برأىٍ فى كتابك لم يكن ... سديدًا ولكن كان سهمًا مسددًا
وحاولت إعطاء الغريبِ مكانةً ... تجر علينا الويلَ والذُّلَّ سرمدا
فياويل مصرٍ يوم تشقى بندوةٍ ... يبيتُ بها ذاك الغريب مسوَّدا[٢]

* * *

ألم يكفنا أنا سُلبنا ضياعَنا ... على حين لم نبلغ من الفطنة المدى
وزاحَمَنَا فى العيش كل ممارسٍ ... خبير وكنا جاهلين ورُقَّدا
وما الشركات السود فى كل بلدة ... سوى شَركٍ يُلقى به من تَصيّدا

قصيدته فى استقبال السير جورست

استقال اللورد كرومر أو أقيل من منصبه فى أبريل سنة ١٩٠٧ على أثر حادثة دنشواى، وخلفه فى منصبه السير إلدون جورست، فاستقبله حافظ بقصيدة عبر فيها عن شكوى مصر من الاحتلال وآثامه، قال فيها فى أسلوب التهكم والسخرية:

---

(١) حجبت المؤيد أى منعته من دخول السودان.

(٢) يشير إلى مشروع اللورد كرومر فى إنشاء مجلس تشريعى مختلط.

أذيقـونـا الـرَّجـاء فقـد ظمِئْنـا – بعهـدِ المصلحين – إلى الـورودِ
ومُنّـوا بـالـوجـود فقـد جهلنـا – بفضل وجودكم – معنى الوجود
إذا أعْلوْلَى الصيـاح فـلا تلمنـا فـإنَّ النـاس فى جُهْـدٍ جهيـد[١]
عـلى قـدْر الأذى والـظلم يـعلو صيـاح المشفقـين من المـزيـد!
جِـراحٌ فى النفـوس نَغَـرْنَ نَغْـرًا وكُنَّ قـد انـدملن عـلى صـديـد[٢]
إذا مـا هـاجهنَّ أسًى جـديـدٌ هتكْـنَ سـرائـر القـلب الجليـد

إلى أن قال:

فـما جئنـا نـطاولكم بجـاهٍ يـطولـكم ولا رُكْـنٍ شـديـد
ولـكـنّـا نـطالـبـكم بـحـقٍّ أضـرَّ بـأهله نقضُ العهـود

وعاد إلى ذكر حادثة دنشواى وكيف كانت مبعث اليقظة والحياة للحركة الوطنية:

رمـانـا صـاحب التَّقـريـر ظلمًا بكفـران العـوارف والكنـود[٣]
وأقـسم لا يجيب لـنـا نـداءً ولـو جئـنـنـا قـرآن مجيـد
وبَشَّـرَ أهـل مصـرٍ بـاحتـلالٍ يـدوم عـليهـم أبـد الأبيـد
وأنبت فى النفـوس لكم جفـاءً تـعَّـهـدَه بِمَنْهـلِ الـصـدُّود
فـأثمرَ وحشـة بلغت مَـداهـا وزكّـاهـا بـأربعـةٍ شهـود[٤]
قتيلُ الـشمس أورثَنـا حيـاةً وأيقظ هـاجعَ القـوْم الرُّقُـود[٥]
فلَيت (كُـرومَرًا) قـد دام فينـا يُـطَوِّق بالسلاسـل كـلَّ جيد
و يُتْحِف (مصـر) آنًـا بَعْـدَ آنٍ بمِجْلودٍ ومـقـتـولٍ شـهـيـد
ليَنـزع هـذه الأكـفـان عنـا ونُبْعَثَ فى العـوالم من جَـديـد

رثاؤه لمصطفى كامل

فى يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ حين شيعت مصر جنازة مصطفى كامل وقف حافظ على قبره وأنشد قصيدته الرائعة فى رثائه قال:

---

(١) اعلولى أى علا.
(٢) نغر الجرح سال دمه، واندمل التأم
(٣) صاحب التقرير هو اللورد كرومر.
(٤) يريد بالشهود الأربعة أعدموا فى قضية دنشواى وهم أربعة.
(٥) قتيل الشمس هو الكابتن بول الضابط الإنجليزى الذى مات فى حادثة دنشواى بضربة الشمس، يريد أن ما أصاب الناس من التنكيل بسبب هذا القتيل جعلهم يثورون للمطالبة بالحرية.

أيـا قـبرُ هـذا الضيف آمـالُ أمـة ... فكـبِّرْ وهلل والق ضيفـك جـاثيًـا

عـزيزٌ علينـا أن نرى فيـك مصطفى ... شهيـدَ العُـلا فى زهـرة العمـر ذاويًـا

أيـا قـبر لـو أنـا فقـدنـاه وحـده ... لكان التأسى من جوى الحزن شافيًا[١]

ولكن فـقـدنـا كـل شيء بـفقـده ... وهيهـات ان يـأتى بـه الـدهـر ثـانيـا

فيـا سـائـلى أين المـروءة والـوفـا ... وأين الحِجَـا والرأى؟ ويحْـك هـاهيـا!

هنيئًـا لهم[٢] فليـأمنـوا كـل صـائـح ... فقد أسكت الصوتُ الـذى كان عـاليا

ومـات الـذى أحيـا الشعـور وسـاقـه ... إلى المجـد فاستحيـا النفوس البـواليا

* * *

مـدحتـكَ لمـا كنت حيًّـا فلم أجِـدْ ... وإنى أجِيـدُ اليـوم فيـك المـراتيـا

عليك[٣] وإلا مالـذا الحزن شـاملًا ... وفيـك وإلّا مـالـذا الشعبِ بـاكيـا

يمـوت المداوى للنفـوس ولا يَـرَى ... لمـا فيه من داء النفـوس مـداويـا

وكنـا نيامًـا حينما كنت سـاهـدًا[٤] ... فـأسهدتنـا حُزنًـا وأمسيت غـافيًـا

* * *

شهيـد العـلا لا زال صـوتـك بيننـا ... يَـرِنُّ كـما قـد كـان بـالأمس داويـا

يُهـيبُ بـنـا: هـذا بـنـاء أقـمتُـه ... فـلا تهـدمـوا بـالله مـا كنت بـانيـا

يصيـح بنـا: لاتشعـروا النـاس أننى ... قَضَيْتُ وأن الحيَّ قـد بـات خـاليـا

يـنـاشـدنـا بـالله ألا تـفـرقـوا ... وكـونـوا رجـالًا لا تَسـرُّوا الأعـاديـا

فـرُوحـى من هـذا المـقـام مـطلةٌ ... تُشـارفكم[٥] عنى وإن كنت بـاليـا

فـلا تحـزنـوهـا بـالخـلاف فـإنى ... أخـاف عليكم فى الخـلاف الـدواهيـا

* * *

أجـل أيها الـداعى إلى الخير إننـا ... على العهد مـادمنا فنم أنت هـانيا

بنـاؤك محفـوظ وطيفـك مـائـلٌ ... وصـوتكَ مسمـوعٌ وإن كنت نائيـا

---

(١) التأسى بمعنى الصبر.

(٢) يريد الإنجليز.

(٣) عليك: أى عليك الحزن.

(٤) ساهدا: ساهرا.

(٥) تشارفكم أى تنظر إليكم من علو.

عَهِدناك لاتبكى و تُنكر أن يُرى ... أخو البأس فى بعض المواطن باكيا
فَرخِّص لنا اليوم البكاء وفى غد ... ترانا كما تهوى جبالا رواسيا
فيانيل إن لم تجْرِ بعد وفاته ... دمًا أحمرًا لا كنت يانيل جاريا
ويا(مصر) إن لم تحفظى ذكر عهده ... إلى الحشر لازال انحلالك باقيا
وياأهل(مصر) إن جهلتم مصابكم ... ثِقوا أن نجم السعد قد غارَ هاويا

* * *

ثلاثون عامًا[١] بل ثلاثون درَّة ... بجيد الليالى ساطعاتٍ زواهيا
ستشهد فى التاريخ أنك لم تكن ... فتىً مفردًا بل كنتَ جيشًا مغازيا

قصيدته فى حفلة الأربعين

وله فى رثاء مصطفى قصيدة أخرى ألقاها فى حفلة الأربعين قال:

نَثَروا عليك نوادىَ الأزهار[٢] ... وأتيت أنثر بينهم أشعارى
زيْنَ الشباب وزَيْنَ طلَّاب العُلا ... هل أنتِ بالمهج الحزينة دارى؟
غادرتَنا والحادثاتُ بمرْصد ... والعيشُ عيش مذلة وإسارِ
ما كان أحوجنا إليك إذا عَدا ... عادٍ وصاح الصائحون: بدار
أين الخطيب وأين خَلَّابُ النُّهى؟ ... طال انتظار السمع والأبصار
بالله مالك لا تجيب مناديا ... ماذا أصابك يا أبا المغوار؟
قمْ وامحُ ماخَطَّتْ يمين (كرومر) ... جَهْلًا بدين الواحد القهار
قد كنتَ تغضب للكنانة كلما ... هَمَّتْ وَهم رجاؤها بِعثار
غضب التَّقِّى لربِّه وكتابه ... أو غَضْبَة (الفاروق للمختار)[٣]
قد ضاق جسمك عن مداك فلم يُطِق ... صبرًا عليك وأنتَ شُعْلةُ نار
أودى به ذاك الجهادُ وهدَّه ... عزمٌ يهدُّ جلائل الأخطار
لِعَبتْ يمينك باليراع فأعجزت ... لعب الفوارس بالقنا الخطّار[٤]
وجريْتَ للعلياء تبغى شأوها ... بدرتْ إليه غوائل الأقدار؟

* * *

(١) إشارة إلى عمر الفقيد وهو رقم تقريبى لأنه توفى فى الرابعة والثلاثين من عمره.
(٢) نوادى الأزهار: أى الرطبة المبللة بالندى.
(٣) الفاروق: عمر بن الخطاب، والمختار: النبى عليه الصلاة والسلام.
(٤) القنا: الرماح.

عزَّ القرارُ عليَّ ليلة نعيه ... وشهدتُ موكبه فقرَّ قراري[1]

وتسابقت فيه النعاةُ فطائرٌ ... بالكهرباء وطائرٌ ببخار

شاهدتُ يوم الحشر يومَ وفاته ... وعلمت منه مراتبَ الأقدار

ورأيت كيف تفى الشعوب رجالها ... حقَّ الولاء وواجب الإكبار

تسعون ألفًا حول نعشك خُشَّعٌ ... يمشون تحت (لوائك) السيَّار

خطوا بأدمعهم على وجه الثرى ... للحزن أسطارًا على أسطار

آنًا يُوالون الضجيجَ كأنهم ... ركب الحجيج بكعبة الزُّوار

وتخالُهم آنًا لفرط خشوعهم ... عند المُصلَّى ينصتون لقارى

غلب الخشوع عليهم فدموعهم ... تجرى بلا كلح[2] ولااستنتار

قد كنت تحت دموعهم وزفيرهم ... ما بين سيل دافق وشَرار

أسعى فيأخذنى اللهيب فأنثنى ... فيصدنى متدفق التيار

لو لم أَلُذْ بالنعش أو بظلاله ... لقضيتُ بين مراجلٍ وبخار

* * *

كم ذات خدرٍ يوم طاف بك الردى ... هتكتْ عليك حرائرَ الأستار

سَفرتْ تودع أمَّةً محمولة ... فى النعش لا خبرًا من الأخبار

أمِنَتْ عيون الناظرين فمزَّقَتْ ... وجهَ الخِمار فلم تَلُذْ بخمار[3]

قد قام ما بين العيون وبينها ... سترٌ من الأحزان والأكدار

* * *

أدْرجتَ فى العَلَم الذى أصْفَيْته ... منك الوداد فكان خيرَ شعار

عَلَمان[4] من فوق الرؤس كلاهما ... فى طيّة سِلر من الأسرار

ناداهما داعى الفراق فأمْسيا ... يتعانقان على شفير هارى

تالله ما جزع المحب ولا بكى ... لِنَوىً مروّعةٍ وبعد مزار

جزع (الهلال) عليك يوم تركته ... ما بين حَرٍّ أسىً وحَرٍّ أوار[5]

متلفتا متحيِّرًا متخيِّرا ... رجلا يناضل عنه يوم فخار

إن الثلاثين التى بك فاخرت ... باتتْ تُقاس بأطول الأعمار

(١) أى استقرت نفسه بعد أن شهد وفاء الأمة للفقيد فى موكب الجنازة.

(٢) الكلح العبوس أى تجرى الدموع بطبيعتها بلا عبوس.

(٣) الخمار: الحجاب.

(٤) يريد بالعلمين الفقيد فهو علم الوطنية والثانى علم الوطن.

(٥) الأسى: الحزن؛ والأوار: الظمأ والتعطش، أى التعطش إلى الفقيد.

ضمتْ إلى التاريخ بضعَ صحائف ... بيضاء مثل صحائف الأبرار
شَبَّهتهُنَّ بنقطة عِطرية ... وسعت محصل روضةٍ مِعطار[١]
خَلَّفتها كالمشْق يحذو حَذْوها ... راجي الوصول ومقتفى الآثار
ماذا على السارى وهُنَّ[٢] منائرٌ ... لو سار بين مجاهل وقفار

* * *

مازلت تختارُ المواقف وَعْرة ... حتى وقفت لذلك الجبَّار[٣]
وهدمت سورًا قد أجاد بناءه ... فرعون[٤] ذو الأوتاد والأنهار
ووصلت بين شكاتنا ومشايخ ... فى (البرلمان) أجلةً أخيار
كشفوا الغطاء عن العيون فأبصروا ... مافى الكنانة من أذى وضِرار
نبذوا كلام (اللورد) حين تبينوا ... حَنَقَ المغيظ ولهجة الثرثار
ورماهُم بمجلدين[٥] رَمَوْهُما ... فى رتبة الأصفار لا الأسفار

* * *

واهًا على تلك المواقف إنها ... كانت مواقف ليث غابٍ ضارى
لم يَلْوه عنها الوعيدُ ولا ثَنى ... من عزمه قولُ المريب: حذار
فاهنأ بمنزلك الجديد ونَمْ به ... فى غِبطةٍ وانعم بخير جوار
واستقبل الأجرَ الكبير جزاء ما ... ضَحَّيتَ للأوطان من أوطار
نِعْمَ الجزاء ونعم ما بلغته ... فى منزليك[٦] ونعم عقبى الدار

قصيدته فى الذكرى الأولى للفقيد

وله قصيدة ثالثة ألقاها عند قبره يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٩ فى الاحتفال بإحياء ذكراه الأولى، وهى من أبلغ روائع الشعر العربى، قال:

طوفوا بأركان هذا القبر واستلموا[٧] ... واقضوا هنالك ما تقضى به الذمم

(١) الروضة المعطار: هى الكثيرة الأزهار والرياحين.
(٢) هن إشارة إلى الثلاثين عاما: أى ماذا على السارى فى المجاهل والقفار إذا اهتدى بنور هذه الأعلام.
(٣) اللورد كرومر.
(٤) شبه كرومر بفرعون.
(٥) يريد بالمجلدين كتاب مصر الحديثة للورد كرومر.
(٦) أى الدنيا والآخرة.
(٧) استلم القبر: قبله أو لمسه بيده.

هنـا جنـانٌ تـعـالى الله بـارئـه ضـاقت بـآمـالـه الاقـدار والهمم
هنـا فَـمٌ وبـنـانٌ لاح بـيـنهـا فى الشـرق فجـرٌ تحيّ ضـوءه الأمم
هنـا فَمٌ وبـنـانٌ طـالمـا نَـثـرَا نـثـرًا تسـير بـه الامثـال والحِكَم
هنا الكمِى(١) الـذى شـادتْ عـزائمـهُ لـطالـب الحق رُكـنـًا لـيس يـنهـدم
هنـا الشهيـدُ هنـا ربُّ اللواء هنـا حـامى الذِّمار هنا الشهْم الـذى علموا

* * *

يـا أيهـا النـائم الهـانى بمضجعَـه لَـيـهْـنـك الـنـوم لاهَمٌّ ولا سـقَـم
بـاتـت تسـائلنـا فى كـل نـازلـة عنـكَ المنـابـر والقـرطـاس والقلم
تـركتَ فينـا فـراغًـا ليس يَـشغَله إلا أبىٌّ ذكـىٌّ الـقـلـب مـضـطرم
منَّفـر الـنـوم(٢) سَّبـاقٌ لـغـايـتـه آثـاره عَـمـمٌ آمـالـه أمـمُ

* * *

إنى أرى وفـؤادى لـيس يـكـذبـنى روحًـا يحفُّ بهـا الإكبـارُ والـعـظَم
أرى جـلالاً أرى نـورًا أرى مَـلَكًـا أرى مُحـيًّـا يحـيـيـنـا ويـبـتـسم
الله أكـبر هـذا الـوجـهُ أعـرِفـهُ هـذا فتى النيـل هـذا المُفْـرد الـعَلَم
غـضُّـوا العيـون وحيُّـوه تحيتَـه مـن القـلوب إذا لم تُسعـد(٣) الـكـلم
رأقسِمـوا أن تـذودوا عـن مبـادئـه فـنحـن فى مـوقف يحلو بـه القسـم

* * *

لبيـك نحن الأولى حـركَت أنفسَهم لمـا سكنْتَ ولمـا غـالـك الـعَـدَمُ
جئنـا نؤدى حسـابًـا عن مـواقفنـا ونـستـمـد ونسـتعْـدى(٤) ونـحتـكم
قيـل اسكتـوا فسكتنـا ثم أنـطقنـا عفُ الجفـاة(٥) وأعـلىَ صـوتنـا الألم
قـد اتُّهـمِـنْـا ولمـا نَـطْلبْ جـللاً إن الـضعـيف عـلى الحـالـين مُتهـم
قـالـوا لقـد ظَلمـوا بـالحق أنفسهمْ والله يَـعـلمُ أن الـظالمـين هُـمُ
إذا سكتْنـا تَنـاجـوْا: تـلك عـادَتهمْ إن نـطقـنـا تَنـادَوا: فـتْـنـةٌ عَـمَـم

* * *

(١) الشجاع.
(٢) منفر النوم أى مسهد.
(٣) أسعده: أعانه.
(٤) نستمد: نطلب المدد ونستعدى: نستنصر.
(٥) يريد بالجفاة المحتلين الجناة.

قد مَرَّ عامٌ بِنا والأمرُ يحزُبنا[١] آنًا وآونةً نَنتابنا النِّقم
فالناس فى شدَّةٍ والدَّهر فى كلبٍ[٢] والعَيْشُ قد حارَ فيه الحاذِقُ الفهِم
وللسياسةِ فيناكلَّ آونةٍ لوْنٌ جديدٌ وعهد ليس يُحترم
بينا نرى جَمرهَا تخشى مَلامسهُ إذا به عند لَمسِ المصطلَى فَحَمُ
تصغى لأصواتنا طورًا لتخدَعنا وتارةً يزْدَهيها الكِبْرُ والصمَّم
فمن ملاينَةٍ استارُها خدعٌ إلى مصالبةٍ استارُها وهَم

* * *

ماذا يريدون[٣]؟ لا قرَت عيونهم إن الكنانة لا يُطوى لها عَلَم
كم امة رغبتْ فيها فما رسخت لها - على حولها[٤] - فى ارضها قدم
ما كان ربك ربُّ البيت تاركها وهى التى بحبالٍ منه تعتصم

* * چث

لبيك إنا على ما كنت تعهده حتى نسود وحتى تشهد الأمم
فيعلَم النيل أنا خيرُ من وَرَدوا ويستطيل اختيالاً ذلك الهرم

إلى أن قال:

يا أيها النشء سيروا فى طريقته وثابروا: رضى الأعداءُ أو نقموا
فكلكم (مصطفى) لوسار سيرتَه وكلكم (كامل) لوجازه[٥] السَّأم
قد كان لاوانيًا يومًا ،ولا وَكِلًا[٦] يستقبل الخطب بَسَّامًا ويقتحم
وأنت يا قبر قد جئنا على ظمأٍ فجد لنا بجوابٍ جادك الدِّيَمُ[٧]
أين الشباب الذى أُودعتَ نضرته أين الخلال - رعاك الله - والشيم؟
وما صنعت بآمالٍ لنا طُويت يا قبر فيكَ وعفَّى رسمها القِدم؟
ألا جوابٌ يروّى من جوانحنا؟ ما للقبور إذا ما نوديت تَجمُ[٨]؟

---

(١) حزبه الأمر: اشتد عليه.
(٢) الكلب الشدة.
(٣) يريد المحتلين.
(٤) الحول: القوة.
(٥) جازه: أى جاوزه.
(٦) الوكل: العاجز الذى يكل الأمر إلى غيره.
(٧) الديم جمع ديمة السحاب.
(٨) وجم يجم سكت عن الهم.

نَمْ أنت يكفيك ما عانيت من تعب فنحن فى يقظة والشمل ملتئم
هذا (لواؤك) خفّاقٌ يظللنا وذاك شخصك فى الأكباد مُرتسم

تحية العام الهجرى

أعد الشباب فى سنة ١٩٠٩ (١٣٢٧ هجرية) احتفالا كبيرًا بالعام الهجرى الجديد تولى الطلبة تنظيمه برعاية نادى المدارس العليا، وكان احتفالا رائعا أقيم بدار التمثيل العربى مساء الجمعة غاية ذى الحجة سنة ١٣٢٦ (٢٢ يناير سنة ١٩٠٩) برآسة أحمد بك لطفى، وألقى فيه حافظ قصيدته المشهورة فى تحية العام الجديد. قال فى مطلعها:

أطلَّ على الأكوان والخلق تنظرُ هلالٌ رآه المسلمون فكبَّروا
تجلّى لهم فى صورةٍ زاد حسنها على الدهر حُسنا أنها تتكرر
وبَشّرهم مِن وجهه وجبينه وغُرته والناظرين مُبشّر
وأذكرهم يومًا[1] اغرَّ محجلا به تُوِّج التاريخ والسعدُ مُسفر
وهاجر فيه خيرُ داع إلى الهدى يَحُف به من قوة الله عسكر
يُماشيه جبريلٌ وتسعى وراءه ملائكةٌ ترعى خُطاه وتخفر
بيُسراه برهان من الله ساطعٌ هدى وبيُمناه الكتاب المطهر
فكان على أبواب (مكة) ركْبهُ وفى (يثرب)[2] أنواره تَتَفَجَّرُ
مضى العام ميمونَ الشهور مباركا تعدَّد آثارٌ له وتسطرٌ
مضى غيرَ مذموم فإن يذكروا له هناتٍ فطبع الدهر يصفو ويكدرُ
وإن قيل اوْدى بالألوف اجابهم مجيب لقد أحيا الملايين فانظروا
إذا قيس إحسان امرئً باساءةٍ فأربى عليها فالإساءة تغفر
ففيه اقام النائمون وقد اتت عليهم كأهل الكهف فى النوم اعصرُ
وفى عالم الإسلام فى كلِّ بقعة له أثر باقٍ وذكرٌ معطر

وبعد أن سرد الحوادث فى مختلف البلاد الإسلامية طوال العام المنصرم، عرج على الحركة الوطنية فى مصر فحياها أحسن تحية وكان ترجمان الشعر والأدب فى تمجيدها وتأييدها، قال:

(١) يريد يوم هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة.
(٢) المدينة المنورة.

وفيه سرَتْ فى مصر روحٌ جديدةٌ ... مباركة من غيرة تتشعر
خبَتْ زمنا حتى توهمتُ أنها ... تجافت عن الإيراء لولا (كرومر)(١)
تصدّى فأوراها وهيهات أن يرى ... سبيلا إلى إخمادها وهى تزفر
مضى زمن التّنويم يا نيل وانقضى ... ففى مصر إيقاظٌ على مصر تَسهر
وقد كان «مرفين» الدهاء مخدرًا ... فأصبح فى أعصابنا يتخدر
شعرنا بحاجات الحياة فإن وَنت ... عزائمنا عن نيلها كيف نُعذَر؟
شعرنا وأحسنا وباتت نفوسنا ... من العيش إلا فى ذرا العز تسحر
إذا الله أحيا أمَّة لن يردَّها ... إلى الموت قهَّار ولا متجبر

وحيا الشباب بقوله:

رجالَ الغد المأمول إنا بحاجة ... إلى قادةٍ تَبنى وشعبٍ يعمِّر
رجال الغد المأمول إنا بحاجة ... إلى مصلح يدعو وداعٍ يذكِّر
رجال الغد المأمول إنا بحاجة ... إلى عالم يدرى وعلمٍ يقرِّر
رجال الغد المأمول إنا بحاجة ... إلى حكمة تملى وكف تحرِّر
رجال الغد المأمول إنا بحاجة ... إليكم فسدوا النقصَ فينا وشمروا
رجال الغد المأمول لا تتركوا غدًا ... يمر مرور الأمس والعيش أغبرُ
رجال الغد المأمول إن بلادكم ... تناشدكم بالله أن تتذكروا
عليكم حقوقٌ للبلاد أجلُّها ... تعهدُ روضِ العلم فالروض مقفر
قصارى مُنى أوطانِكم أن ترى لكم ... يدًا تبتنى مجدًا ورأسًا يفكر
فكونوا رجالا عاملين أعزة ... وصونوا حمى أوطانِكم وتحرروا

وعرج على حركة المطالبة بالدستور، قال:

ويا طلبى (الدستور) لاتسكنوا ولا ... تبيتوا على يأس ولا تتضجروا
أعدوا له صدر المكان فإننى ... أراه على أبوابكم يتخطَّرُ
ولاتنطقوا إلا صوابًا فإننى ... أخاف عليكم أن يقال تهوَّروا
فما ضاع حق لم ينم عنه أهله ... ولا ناله فى العالمين مقصِّرُ

---

(١) خبت. خمدت، وتجافت: تباعدت. وإيراء النار. إشعالها. وكرومر هو المعتمد البريطانى فى ذلك الحين والحاكم المطلق فى مصر وقتئذ، يريد أن فظائع كرومر قد اشعلت روح الكراهية للاحتلال.

لقد ظفر الأتراك عدلا بسؤلهم[١] ونحن على الآثار لا شك نظفَر
هم لهم العام القديم مقدَّرٌ ونحن لنا العام الجديد مقدر

وقد قوبلت القصيدة بالتصفيق والإعجاب والحماسة البالغة من الحاضرين، وكان إلقاؤه رائعا أخاذا، ولبث فى إلقائه ساعة من الزمان كاملة.

وفى ١٢ يناير سنة ١٩١٠ أقام الشباب أيضا احتفالا فخما بعيد رأس السنة الهجرية (١٣٢٨) بمسرح (البيلوت باسك) بشارع عماد الدين، والقى فيه حافظ قصيدة من أبلغ شعره، قال فى مطلعها يحيى هلال العام الجديد:

لى فيكَ حين بَدَا سناكَ وأشْرَقا أملٌ سألتُ اللَّهَ أن يتحققا

ثم ذكر العام الذى مضى وما أصاب مصر فيه من كوارث، قال:

اشْرقْ علينا بالسّعود ولا تكنْ كأخيك مشئومَ المنازل اخرقا

إلى أن قال ينعى حرية الصحافة ويذكر ما أصابها من الضغط والاضطهاد:

ورمى على أرض الكنانة جِرمَه بالنَّازلات السُّود حتى ارهقا
حَصَدتْ مناجلُه غِراسَ رجائنا ولو أنها أبقتْ عليه لأوْرقا
فتقيَّدت فيه (الصحافةُ) عنوةً ومشى الهوى بين الرعية مُطلقا
وأتى يساوم فى (القناة) خديعةً ولو أنها تمت لتمَّ بها الشقَّا[٢]
إن البلية أن تُباع وتُشترى مصرٌ وما فيها وأن لا تنطقا
كانت تواسينا على آلامنا صحفٌ إذا نزل البلاء وأطبقا
فإذا دعوتُ الدمع فاستعصى بَكتْ عنا اسىً حتى تغصَّ وتشرقا
كانت لنا يوم الشدائد اسهمًا نرْمى بها وسوابقا[٣] يوم اللقا
كانت صِماما للنفوس إذا علتْ فيها الهُموم وأوشكت أن تزهقا
كم نفست عن صدر حرٍّ واجد[٤] لولا الصمامُ من الأسى لتمزقا

---

(١) يريد إعلان الدستور فى تركيا عام ١٩٠٨.
(٢) يشير إلى مشروع مد امتياز قناة السويس، وقد ظهر فى أواخر سنة ١٩٠٩ ورفضته الجمعية العمومية، فى أبريل سنة ١٩١٠.
(٣) السوابق من صفات الخيل، أى كانت لنا عدة فى الجهاد.
(٤) الواجد: الحزين.

مـالى انوح عـلى الصحافـة جازعًـا ... مـاذا الّمّ بهـا ومـاذا احـدَقـا
قصـوا حـواشيـهـا وطنـوا أنهم ... امِنـوا صـواعقهـا فكـانت أصعقـا
وأتـوْا بحـاذقهم(١) يكيـد لها بمـا ... يَثنى عـزائمهـا فكـانت أحـذقـا

وقال يخاطب الشباب ويهيب بهم أن يعملوا ليردوا إلى مصر مجدها واستقلالها :

أهـلا بنـابتـة البـلاد ومـرحبًـا ... جـدَّدْتمُ العهـد الـذى قـد أخلقـا
لا تيـأسـوا أن تستـردوا مجـدكم ... فـلربَّ مغـلوبٍ هـوى ثم ارتـقـى
مـدتْ لـه الآمـال من أفـلاكهـا ... خيطَ الـرجـاء إلى العـلا فتسلقا
فتجشَّمـوا للمجـد كـل عـظيمـةٍ ... إنى رأيت المجـد صَعب المـرتـقى
من رام وصل الشمس حاك خيوطَها ... سـببًـا إلى آمـالـه وتـعـلقـا

* * *

عـارٌ على ابن النيـل سباق الـورى ... مـهـمـا تقـلب دهـره أن يُسبـقـا
أوَ كـلما قـالـوا تجمـع شـمـلهـم ... لعب الشقـاق بجمعنـا فتفـرقـا
فتـدفقـوا حُججًـا وحـوطـوا نيلكم ... فـلكم أفـاض عـليكـم وتـدفقـا
حملوا علينـا بـالـزمـان وصـرْفـه ... فتـأنقـوا فى سلبنـا وتـأنـقـا(٢)
هـزُّوا مغـاربهـا فهـابت بـأسهم ... يـا ويلكم إن لم تهـزوا المشـرقـا(٣)
فتعلمـوا فـالعلم مفتـاح العـلا ... لم يُـبق بـابـا لـلسعـادة مـغلقـا
ثم استمـدوا منـه كـل قـواكـم ... إن الـقـوىَّ بـكـل أرض يُـتَّـقـى
وابنـو حـوالىْ حـوضكم من يقـظةٍ ... سـورًا وخـطـوا من حـذارٍ خنـدقـا
وزِنـوا الـكـلام وسـدِّدوه فـإنهم ... خَبَـأوا لكم فى كـل حـرفٍ مـزلقـا
وامشـوا عـلى حـذرٍ فـإن طـريقكم ... وعـرٌ أطـاف بـه الهـلاكُ وحلقـا
نصبـوا لكم فيـه الفخـاخ وأرصـدوا ... للسـالـكين بكـل فـج مـوبقـا(٤)
المـوت فى غشيـانـه وطـروقـه ... والمـوت كـل المـوت ألا يـطرقـا(٥)

---

(١) يريد بطرس غالى رئيس الوزراء، ولكن الحق أن تبعة ذلك يتحملها الوزراء جميعا لا بطرس غالى وحده.
(٢) أى حاربنا المحتلون بأحداث الزمان ونوائبه. وتأنق فى الأمر: أى بالغ فيه.
(٣) يشير إلى الإنجليز، أى أنهم مدوا سلطانهم فى دول الغرب. ويدعو المصريين إلى أن يجعلوا لمصر هذه المكانة فى الشرق.
(٤) الفج: الطريق، الموبق: الهلاك.
(٥) أى إذا كان فى الإقدام موت فإن فى الاستسلام موتًا أكبر.

فتحينـوا فـرصَ الحيـاة كثيـرة وتعجلوهـا بـالعـزائـم والـرق
أو فـاخلقـوهـا قـادرين فـإنمـا فـرص الحيـاة خليقـة أن تخلقـا

مسألة قناة السويس

فى أواخر سنة ١٩٠٩ وأوائل سنة ١٩١٠ شغلت الـرأى العام مسـألة كبـرى تتصل بحيـاة البلاد الاقتصادية والسياسية، وهى مشروع مدّ الامتياز الممنـوح لشركـة قناة السـويس أربعين عاما أخرى، وقد أثـار هذا المشـروع سخط الأمة واحتجـاجها وطـالبت بوقفـه وبعرضـه على «الجمعية العمومية» قبل البت فيه.

حركت هذه المسألة الهامة روح الشعر فى نفس حافظ، فنظم فى نوفمـبر سنة ١٩٠٩ قصيـدة من بليغ شعره القومى، وصف فيها الحالة السيئة التى وصلت إليها البلاد، وأيد الحـركة الـوطنية فى مطالبها، وعبر أصدق تعبير عن آلامها وآمالها، قال فى مطلعها:

لقـد نصَـلَ الـدُّجى فمتى تَنـامُ أهـمٌّ ذادَ نـومَـكَ أم هُـيـامُ[1]

إلى أن قال:

أيجمـل بـالأديب أديـب مصـر بكـاء الـطفـل أرهقـه الفِـطامُ
ويصـرفـه الهـوى عن ذكـر مصـر ومـصـرٌ فى يـد البـاغـى تُضـام
عـدمتُ يـراعتى إن كـان مـا بى هـوى بـين الضلوع لـه ضِـرام
ومـا أنـا والغـرامَ وشـابَ رأسى وغـال شبـابى الخَـطبُ الجسـام
وربّـانى الـذى ربّى (لـبـيـدًا) فـعلمـنى الـذى جهـل الأنـام[2]
لعمـرك مـا أرقتُ لغـير مصـرٍ ومـالى دونها أمـل يـرام
ذكـرت جـلالهـا أيـام كـانـت تصـول بها الفـراعنـة العـظام
وأيـام الـرجـالُ بهـا رجـالٌ وأيـام الـزمـانُ لهـا غـلام
فـأقلق مضجعى مـا بـات فيهـا وبـاتت مصـر فيـه فهـل أُلام؟

وأهاب بالشعب أن يدع التواكل والتخاذل والانقسام قال:

---

(١) الدجى: ظلام الليل.

(٢) لبيد، هو الشاعر العربى صاحب المعلقة التى أولها:

عفت الديار محلها فرسومها

أرى شعبا بمدْرَجة العوادى ... تمخَّخ عظمَه داءٌ عُقام[١]
إذا ما مرّ بالبأساء عام ... أطل عليه بالبأساء عام
سرى داء التواكل فيه حتى ... تخطَّف رزقَه ذاك الزحام[٢]
قد استعصى على الحكماء منا ... كما استعصى على الطب الجُذام
هلاك الفرد منشؤه توانٍ ... وموت الشعب منشؤه انقسام
وإنا قد وَنَيْنا وانقسمنا ... فلا سعىٌ هناك ولا وئام
فساء مُقامُنا فى أرض مصر ... وطاب لغيرنا فيها المُقام
فلا عجبٌ إذا مُلكت علينا ... مذاهبنا وأكثرنا نيام

وناجى الأمير حسين كامل وكان رئيسًا لمجلس شورى القوانين أن يبث روح الحياة والتضامن فى نفوس أعضاء مجلس الشورى والجمعية العمومية، وناشدهم ألا يثقوا بوعود الاحتلال، قال:

(حسينُ. حسينُ) أنت لنا فنبِّه ... رجالا عن طِلاب الحق ناموا
وكن - بأبيك - لابن أخيك عَوْنًا ... فأنت بكفه نِعْمَ الحسام
أفِضْ فى قاعة الشورى وئاما ... فقد أودى بنا وبها الخصام
وعلِّمهم مصادمة الأعادى ... فمثلك لا يُروِّعه الصدام
ففى (حزب اليمين) لديك قومٌ ... وإن قلوا فإنهم كرام
وفى (حزب الشمال) لديك أُسْدٌ ... كُماةٌ لا يطيب لها انهزام
فكونوا للبلاد ولا يَفتْكم ... من النهزات والفرص اغتنام
فما سادوا بمعجزة علينا ... ولكنْ فى صفوفهم انضمام
فلا تثقوا بوعد القوم يوما ... فإن سحَاب ساستهم جَهام[٣]
وخافوهم إذا لانوا فإنى ... أرى السُّوّاس ليس لهم ذِمام[٤]
فكم ضحك (العميد) على لحانا ... وغر سراتنا منه ابتسام

(١) المدرجة: الطريق. والعوادى: النوائب. وتمخخ العظم: إذا أخرج مخه.
(٢) أى مزاحمة الأجانب للمصريين.
(٣) السحاب الجهام: الذى لا ماء فيه.
(٤) الذمام: الذمة والعهد.

ونادى بالدستور وندد بمشروع مد امتياز القناة، قال:

لـيس العِلمُ يمسكنـا وحيـدًا   إذا لم ينصر العلَم اعتزام
وإن لم يدرك (الدستورُ) مصرًا   فما لحياتها ابدا قِوام
حَموْنا وِردَ النيل عَذْبًا   وقالوا: انه موت زؤام
وما الموت الزؤام إذا عقَلْنا   سوى (الشركات) حلَّ لها الحرام
لقد سعدت بغفلتنا فراحت   بشروتنا وأولها (الترام)

* * *

فياويلَ (القناة) اذل احتواها   بنو (التاميز) وانحسر اللِّثام
لقد بقيت من الدنيا حُطامًا   بأيدينا وقد عَزَّ الحطام
وقد كنا جعلناها زِماما   فواهفى اذا قُطع الزمام!

* * *

فيا (قصر الدبارة) لست أدرى   احربٌ فى جرابك أم سلام؟
أجِبْنا هل يُراد بنا وراءُ   فنقْضِى أم يراد بنا أمام؟
ويا (حزب اليمين) اليك عنا   لقد طاشت نبالك والسهام
ويا (حزب الشمال) عليك منا   ومن ابناه نجدتك السلام

وقد اضطرت الوزارة تحت ضغط الرأى العام إلى عرض المشروع على الجمعية العمومية التى قررت رفضه، وبذلك حبط المشروع.

تنديده بالكولونل روزفلت

جاء الكولونل تيودور روزفلت الرئيس الأسبق لجمهورية الولايات المتحدة إلى مصر عن طريق السودان فى مارس سنة ١٩١٠، وألقى بالخرطوم خطبة سياسية مجد فيها الاحتلال البريطانى، ودعا إلى الخضوع لحكمه، ولما وصل إلى القاهرة ألقى بالجامعة المصرية خطبة أخرى أشد وطأة من خطبته، بالخرطوم، وقد أثارت خطبتاه احتجاج الرأى العام، وشارك حافظ الأمة فى سخطها على روزفلت، ونظم قصيدة عصماء لامه فيها على إطرائه الاحتلال، نشرها قبيل إلقاء خطبته الثانية بالقاهرة، قال.

أىْ خطيبَ الدنيا شَنِّفْ   سَمْعَ مصر بقولك المأثور

إنما شوقها لقولك يا (روزْ فلت) شوق الأسير للتحرير
قِفْ غدًا أيها الرئيس وعلِّم أهل مصر حرية التعبير
وأخبر الناس كيف سدتم على النا س وجئتم بمعجزات الدهور
وملكتم أعِنَّة الريح والما ء ودستهم على قارب العصور
قِف وعَدِّد مآثر العلم واذكر نعم الله ذكر عبد شكور
وإذا ما ذكرت أنعمه الكُبـ رى فلا تنس نعمة (الدستور)

* * *

يا نصير الضعيف مالك تطرى خطة القوم[1] بعد ذاك النكير
لم تطيقوا جوارهم بل اقمتم فى حماكم من دونهم ألف سور
أنت تطريهم وتثنى عليهم نائبًا آمنًا وراء البحور
ليت شعرى أكنت تدعو إليهم يوم كانوا على تخوم التغور
يوم كانوا قذى بعين (نيويور ك) وداء مستحكمًا فى الصدور
يوم نادى (واسنجتون) فلبَّا ه من الغيل كل ليث هصور[2]
يوم سجلتم على صفحات الدهـ ر تاريخ مجدكم بالنور
ووثبتم إلى الحياة ثوبا ونفضتم عنكم غبار القبور
إنما النيلُ والمسيسيبىُّ[3] صنوا ن هما حليتان للمعمور
وعجيبٌ أن يفوز هذا بإطلا ق وهذا فى ذِلة المأسور
يانصير الضعيف حبِّب إليهم هجر مصر[4] تفز بأجر كبير
فعليهم أن يهجروا وعلى المصـ رىِّ ذكر المتيَّم المهجور

رثاؤه لمحمد فريد

نظم حافظ فى رثاء محمد فريد قصيدة من غرر شعره ألقاها بصوته الجهورى فى حفلة التأبين التى أقامها الحزب الوطنى يوم الأربعين لوفاته (١٩ ديسمبر سنة ١٩١٩)، فهزت مشاعر

(١) يقصد الإنجليز.
(٢) الغيل: موضع الأسد
(٣) هو النهر المشهور بأمريكا
(٤) أى الجلاء عنها.

السامعين والمواطنين لما حوته من المعانى الرائعة والتقدير البالغ للزعيم الراحل، قال:

مَنْ ليـومٍ نحن فيـه مَنْ لغــدْ؟ مـات ذو العزمـة والرأى الأسـدْ
حَــلّ (بـالجمعــة) حـزنٌ وأسى ومشى الوجد الى (يوم الأحد)[1]
وبـدا شِعـرى عـلى قـرطـاسـه لَـوعـةً سـالت عـلى دمـع جَمَـدْ

* * *

أيهــا النيـل لقــد جَـلّ الأسى كُنْ مِـداداً لى إذا الـدمــع نفـدْ
واذْبــلى يـازهــرةَ الـرَّوْض ولا تبسمى لـلطَّلِّ فــالعيش نَكَــدْ
والـزم الـنَّــوحْ أيــاطـيرُ ولا تبتهـج بالشَّـدْوِ فالشـدو حدد[2]
فلقــد ولَّى (فـريــدٌ) وانـطوى ركن مصـرِ وفتـاهــا والسَّنَـد

* * *

خــالـدَ الآثــار لا تخش البــلىٰ ليس يَبْــلَى من لــه ذِكــر خَلَدْ
زرتَ (بـرلـين) فنــادى سَمْتُهــا نزلت شمس الضحى برج الأسد
واختفت سمســك فيهـا وكــذا تختفى فى الغـرب أقمار الأبـد[3]

* * *

يـا غـريبَ الـدار والقبر ويــا سلوة النيـل إذا ما الخـطبُ جَـدّ
وحُسـامًـا فَـلَّ حـدَّيــه الـرَّدى وشهــابـا ضــاء وَهْنــا وخمــد
قـلْ (لصب النيل)[4] إن لاقيتَـه فى جـوار الـدائم الفـرد الصمـد
إن مصـــرًا لاتنى عن قصـدهــا رغم مـا تلقى وإن طـال الأمــد
جئت عنهـا أحمـل البشـرى إلى (أول البـانـين)[4] فى هــذا البلد
فــاسْتَـرِحْ وهنْــأ ونَمْ فى غِبـطةٍ قد بذَرت الحبَّ والشعب حُصـد[5]

* * *

(١) كنى بيومى الجمعة والأحد عن المسلمين والمسيحيين.
(٢) الحدد: الحرام الذى لا يحل أن يرتكب.
(٣) كانت وفاة الفقيد فى برلين يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩.
(٤) يريد مصطفى كامل.
(٥) يشير إلى قيام ثورة سنة ١٩١٩.

آثـر النيـل عـلى أمـوالـه — وقـواه وهـواهُ والـولـد
يـطلب الخير لمصـرٍ وهـو فى — شِقْـوَةٍ أحلى من العيش الرَّغَد
ضاربٌ فى الأرض يبغى مأربًا — كـلما قـاربـه عنـه ابتعـد
لم يَـعِبـهْ أن تجـنّى دهـرُه — رب جِدٍ حاد عن مجراه جَدّ(١)
يستحمُ العـزَم حتى إن بـدت — فـرصة شـدّ إليها وصمد
فهـو لا يثنْى عنـانًـا عن منىً — وهـو هجيراه (من جـد وجد)
فـأيـاديـه إذا مـا أُنكـرت — إنمـا تنكـرهـا عـين الحسـد

* * *

فقـدت مصـر (فـريـدًا) وهى فى — مـوطن يُعْوزهـا فيـه المدد
فقـدت مصـر (فـريـدًا) وهى فى — لهـوة الميدان والمـوتُ رصـد
فقـدت منـه خبيـرًا حُـوَّلا(٢) — وهـى والأيـام فى أخـذ وردّ
لم سكـد يمتِعها الـدهـر بـه — فى ربـوع النيـل حيًـا لم يكـد
لـيتـه عـاش قـليـلا فتـرى — شعب مصـرٍ عينه كيف اتحـد
وَيْح مصـرِ بـل فـويحًا للثرى — إنـه أبـلغ حـزنًـا وأشـد
كـم تمـنى وتمـنى أهـلـه — لـو يوارى فيـه ذيـاك الجسـد(٣)

* * *

لهف نَفسى هـل (ببرلـين) امرؤٌ — فـوق ذاك القبر صلَّى وسجـد؟
هـل بكت عـينٌ فـروَّت تُـرْبَـه — هـل عـلى أحجاره خَطّ أحـد؟
هَـا هُنـا قـبرُ شهيـد فى هـوى — أمـةٍ أيـقـظهـا ثـم رقَـد!

ثورة سنة ١٩١٩

حيا حافظ ثورة ١٩١٩ فى قصيدة نظمها عن أول مظاهرة للسيدات قمن بها يوم ١٦ مارس ١٩١٩ احتجاجًا على عسف الإنجليز حيال المظاهرات السابقة وما ارتكبوه مع المتظاهرين من

(١) الجد (بالكسر) الاجتهاد، وبالفتح الحظ. والمعنى: رب اجتهاد أخطأه الحظ.
(٢) الحول: الحاذق البصير بتحويل الأمور.
(٣) يشير فى هذا البيت والبيت الذى سبقه إلى أن جثمان الفقيد ثوى فى برلين، وقد نقل إلى مصر فى يونية سنة ١٩٢٠.

فظائع القتل والتنكيل، وقد مجد حافظ شعور السيدات المتظاهرات وشجاعتهن، وحمل فى قصيدته حملة لاذعة على مسلك الجنود الإنجليز حيالهن، قال:

خَرَجَ الغوانى يَحْتَجِجْن ورُحت أرْقُب جَمْعَهنهْ

فاذا بهنَّ تَخِذْنَ مِنْ ... سُودِ النياب شِعارَهُنَّهْ

فَطَلَعْنَ مِثْلَ كَواكِبٍ ... يَسْطَعْنَ فى وَسَطَ الدُّجنَهْ[1]

وأخذن يجتزن الطريق ... ودار «سعد» قصدهُنَّهْ

يمشينَ فى كنف الوقا ... ر وقد أبَنَّ شُعُورهُنَّهْ

وإذا بجيش مُقْبِلٍ ... والخيل مُطلَقَة الأَعِنَّهْ

وإذا الجنودُ سيوفها ... قد صُوبت لنحورهنَّهْ

وإذا المدافع والبنا ... دق والصوارم والأسنَّهْ

والخيلُ والفرسانُ قد ... ضَرَبَتْ نطاقًا حولهنَّهْ

والورد والرَّيحان فى ... ذاك النهار سلاحهنَّهْ

فتطاحن الجيشان سا ... عاتٍ تشيب لها الأجنَّهْ

فتضعضع النسوان والنسْ ... وان ليس لهن مُنَّهْ[2]

نم انهزْمنَ مشتَّتاتِ الشمْ ... ل نحو قصورِهِنَّهْ

* * *

فليهنا الجيش الفخو ... ر بنصره وبكسرهِنَّهْ!

فكأنما (الألمان) قد ... لَبسوا البراقع بينهنَّهْ

وأتوا (بِهِنْدنْبُرج[3]) مُخْتَ ... فِيًا بمصر يقودُهُنَّهْ

فلذاك خافوا بأسَهُن ... وأشفقوا من كيدهنَّهْ!

وأنشأ قصيدة حيا بها جمعية المرأة الجديدة، وألمع فيها إلى بطولة المرأة فى ثورة سنة ١٩١٩. قال:

---

(١) الدجنة: الظلام.

(٢) المنة: القوة.

(٣) المارشال هندنبرج، القائد الشهير فى الحرب العالمية الأولى.

إليكنَّ يهدى النيل ألف تحيَّةٍ ... مُعَطَّرةٍ فى أسطرٍ عطرات
ويُثنى على أعْمالكُن موكّلى[٢] ... بإطْراء أهْل البر والحسنات
أقَمْتُنّ بالأمس الأساس مباركًا ... وجئتُنّ يوم الفتحِ مُغْتَبطاتِ
صَنْعتُنّ مايُعْيى الرجال صَنيعُهُ ... فزِدْتُنّ فى الخيْرات والبَركات

* * *

يقولون: نصفُ الناس فى الشرق عاطِلٌ ... نِساء قَضَيْنَ العمرَ فى الحُجرات
وهذى بنات النيل يَعْملْن للنهى ... زَيَغْرِسْنَ غَرْسًا دانى الثَّمرات
وفى السنة السَّوْداء كنتنّ قُدوةً ... لنا حين سالَ الموت بالمهجُات
وَقفْتُنَّ فى وجْه الخميس مُدَجَّجًا ... وكنتنَّ بالإيمان معُتْصمات
ومَا هَالكُنَّ الرُّمْح والسَّيْف مُصْلَتًا ... ولا المدْفَعُ الرَّشاشُ فى الطرُقات
تَعلَّمْ مِنكم الرجالُ فأصبحُوا ... على غَمرَات الموْت أهل ثَبَات

مصر تتحدث عن نفسها

قصيدة غراء قالها سنة ١٩٢١ على أثر قطع مفاوضات عدلى - كيرزون، حين سفرت نيات الإنجليز فى العدوان على مصر، وقد أشاد فيها بمجد مصر وعظمتها، تم أشار إليها وهى تستنجد ببنيها البررة على غدرات الأيام ويهيب بهم أن ينظروا من تليد مجدها إلى المثل الأعلى ليحتذوه، ويتعاونوا على التمسك بالحق كاملا حتى يبلغوه، وقد أجرى الخطاب فى القصيدة على لسان مصر لينصت الجميع لصوتها، إذ هى فوق الجميع، وكان عنوان القصيدة حين نشرت (مصر فوق الجميع) وهذه القصيدة أنشدتها سيدة الطرب أم كلثوم من روائع أغانيها:

وَقَفَ الخَلْقُ يَنْظُرون جميعًا ... كيف أبنْى قَواعَد المَجْد وحدى
وبناةُ الأهرام فى سالف الدَّهْـ ... ـر كفوْنى الكلام عند التَّحدى
أنا تاجُ العَلاء فى مَفْرقِ[٢] الشَّرْ ... ق ودُرّاتُه فرائدُ عِقْدى
أىُّ شَىْءٍ فى الغَرْب قد بَهَرَ النّا ... سَ جَمالا ولم يَكُنْ منه عنْدى؟

---

(١) موكلى، أى أن النيل قد أنابه عنه فى إبلاغهن ثناءه عليهن.

(٢) المفرق: وسط الرأس.

فــتــرابى تَــبْرٌ ونَهرى فُــراتٌ وسمــائى مَصقُولــةٌ كـالفِــرنْدِ[1]
أينـما سِـرْتَ جَـوَلٌ عنـدكم كَــرْمٍ عنــد زَهْـرٍ مُــدَنَّـرٍ عنــد رَنْـدِ[2]
ورجــالى لــو أنصفُــوهُــمْ لَســادُوا مِنْ كُهُــولٍ مِـلءِ العُيــونِ ومُــرْدِ[3]
لــو أصــابــوا لهــمْ مجــالاً لأبْــدَوْا مُعْجِــزاتِ الــذَّكــاءِ فى كــلِّ قَصْـدِ
أنــا إن قَــدرَّ الإلــهُ ممــاتى لا تَــرَى الشَّرقَ يَــرْفَعُ الــرأس بَعْدى

* * *

مــا رَمــانى رامٍ وراحَ ســليــما مِــنْ قَــديم عـنــايــةُ الله جُـنْــدى
كــم بَـغَــتْ دَوْلــةٌ عــلىَّ وجــارَتْ ثــمّ زالت وتــلكَ عُــقْبَى الــتَّعَــدى
إنــنى حُــرةٌ كَــسَــرْتُ قُــيــودى رغْم رُقْبى العِــدا وقــطَّعْتُ قــدى[4]

* * *

قُــلْ لِمنْ أنْكـروا مفــاخــر قَــوْمى مِثْــلَ مــا أنكــرُوا مــآثــر وُلْــدى
هَــلْ وَقَـفْتمْ بـقـمّــةِ الهَــرَم الأكْــبر يــومًــا فــريْتمُ بَعْضَ جُهْــدى ؟[5]
هَــلْ رَأيْـتُم تــلك النُقُــوشَ اللَّواتى أعْجَــزت طَــوْقَ صَنْعَــةِ المُتَحَــدِّى ؟
حَــالَ لــونُ النَّهــارِ مِنْ قِــدَمِ العَهْــدِ ومــا مَسَّ لــونها طُــولُ عــهــدِ
هَــلْ فَهِمتمُ أسْــرَارَ مــا كــان عِنْــدى مِــن عُــلومٍ مَخْـبــوءةٍ طَىَّ بُــردى ؟
داك فَنُّ الــتحــنيط قــد غلب الــدَّهْــرَ وأبْــلى الــبِــلَى وأعْـجَــزَ نِــدى

* * *

قــد عَقَدت العهــودَ مِنْ عَهد فرعــوْنَ ففى (مــصــرَ) كــان أول عَقْــدِ
إنّ مَجْــدى فى الأولــيَــات عــريــقٌ مَن لــه مثــل أولــيــاتى ومَجْــدى ؟
أنــا أُمُّ (التشــريــع) قــد أخــذ الــرُّومــانُ عنى الأصــولَ فى كــلِّ حَــدّ
ورصَــدتُ الــنُّجــوم مُنْــذُ أضــاءتْ فى سماء الدُّجَى فــأحْكمت رَصْدى

---

(١) الفرات. العذب. والفرند: السيف.
(٢) المدنر، أى مختلف الألوان، أو المشرق المتلألىء. والرند: شجر طيب الرائحة.
(٣) مرد: جمع أمرد، وهو الشاب.
(٤) القد: القيد، بقد منجلد.
(٥) فريتم، أى فرأيتم.

وَشَدَا (بنتئور[١]) فَوقَ ربُوعى ... قَبْل عهد اليُونان أو عهد (نجدِ)
اترانى وقد طَويَت حياتى ... فى مراسٍ لَمْ ابَلُغ اليوم رُشْدى؟
أىُّ شَعْب أحقُّ منى بعَيْشٍ ... وارف الظلِّ أخضر اللَّون رَغْدِ؟

* * *

أمِنَ العَدل أنهم يَردُون الـ ... ـماء صَفوًا وأن يُكَدَّرَ وِردِى؟
أمِنَ الحَقِّ أنَّهم يُطلقون الـ ... ـأسدَ منهم وأن تُقَيَّدَ أُسْدى؟
نصفُ قَرنٍ إلّاقليلا أعانى ... ما يُعانى هَوانَه كُلُّ عبد[٢]
نَظَرَ الله لى فأرشَدَ أبنا ... ءى فسدُّوا إلى العُلا أىَّ سَدِّ
إنما الحقُّ قُوَّةٌ من قُوَى الدَّ ... يان أمضى مِن كُلِّ أبيضَ هِندى

وقال فى تمجيد التضحية والصمود والصبر أمام الشدائد:

قد وَعَدتُ العُلى بكل أبِيٍّ ... من رجالى فأنجزوا اليوم وعدى
أمهِرُوها بالرُّوح فهى عَروس ... تشنَأ المَهر من عُروُض ونَقدِ[٣]
وَرِدُوا بى مناهل العزِّ حتى ... يَخطُبَ النجمُ فى المَجَرَّة وُدِّى
وارفعوا دولتى على العلم والأخـ ... ـلاق فالعلمَ وحدهَ لسن يُجدى
وتواصوا بالصّبر فالصبر إن فا ... رَقَ قومًا فما له مِن مَسَدٍّ
خُلُقُ الصَّبْرِ وَحْده نَصرَ القو ... مَ وأغنَىْ عن اختراعٍ وعَدِّ
شهدوا حَوْمَة الوَغَى بنُفوسٍ ... صابراتٍ وأوْجُهٍ غير رُبْدِ
فمحا الصَّبر آية العِلْم فى الحَرْبِ ... وأنحَى على القَوِىِّ الأشَدِّ

وقال يدعو إلى توحيد الكلمة ونبذ الشقاق وكانت البلاد وقتئذ فى غمرة من الانقسام:

إنَّ فى الغَرْب أعْيُنًا راصِداتٍ ... كحَلَتْها الأطماعُ فيكم بسهْدِ
فَوقْها مِجْهَرٌ يُريها خفايا ... كُمْ ويَطْوى شُعاعهُ كُلَّ بُعْدِ
فاتَّقوها بجُنَّةٍ من وئامٍ ... غيرِ رَثِّ العُرا وسَعْىٍ وكَدِّ

---

(١) سنتور: أقدم شاعر عرفه التاريخ وهو مصرى، وقبل عهد اليونان الخ، أى قبل شعراء اليونان وشعراء العرب.
(٢) يقصد عهد الاحتلال البريطانى.
(٣) تشنأ: تكره.

واصفَحوا عن هَناتِ مَن كان منكم ... رُبَّ هافٍ هَفَا على غير عَمْد
نَحْنُ نَجْتازُ مَوْقِفًا تعثرُ الآ ... راءُ فيه وعَثْرَةُ الرأى تُرْدِى
ونُعيرُ الأهْواءَ حَرْبًا عَوانًا ... من خِلافٍ والخُلْف كالسُّلِّ يُعْدِى
ونُثيرُ الفَوْضَى على جانِبَيْه ... فيُعيد الجهولُ فيها ويُبدِى
ويَظُنُّ الغَوِىُّ أَنْ لا نظامٌ ... ويقول القوىُّ قد جَدَّ جِدِّى
فقِفُوا فيه وَقفة الحزم وارمُوا ... جانبْيه بعَزمَة المستعدِّ
إننا عند فجر لَيلٍ طويلٍ ... قد قطعناه بين سُهْدٍ وَوَجْد
غَمَرتنا سُودُ الأهاويل[1] فيه ... والأمانىُّ بين جَزرٍ ومَدِّ
وتَجَلى ضياؤُه بعد لأْىٍ ... وهو رَمزُ لعَهدِىَ المُسْتَرَدِّ
فاستبينوا قَصدَ السَّبيل وجِدُّوا ... فالمعالى مخطوبةٌ للمُجِدِّ

الاستقلال المقيد

قالها عندما أعلن تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢:

أصبحتُ لا أدرى على خِبْرَةٍ ... أَجَدَّتِ الأيامُ أم تَمْزَحُ؟
أَمَوْقِفٌ للجِدِّ نجتازُه ... أمْ ذاك للّاهى بنا مَسْرَحُ؟
أَلْمَحُ لاستقلالنا لَمْعَةً ... فى حالك الشَّكِّ فأسْتَرْوِحُ
وتَطْمِسُ الظُّلْمَةُ آثارها ... فأنثَنى أُنْكر ما أَلْمَحُ
قد حارتِ الأفهام فى أمرهم ... إنْ لَمَّحُوا بالقَصْد أو صرَّحوا!
فقائلٌ لا تَعْجَلوا إنكم ... مكانَكم بالأمْس لم تَبْرَحُوا
وقائلٌ أوْسِعْ بها خُطْوةً ... وَرَاءَها الغايةُ والمَطْمَحُ
وقائلٌ أسْرَفَ فى قَوْله: ... هذا هُوَ استقْلالُكم فافْرَحوا
إنْ تَسْأَلوا العقل يقُلْ عاهِدوا ... واستَوْثِقوا فى عَهْدِكم تربَحوا
وأسِّسُوا دارًا لنُوَّابكُمْ ... للرَّأى فيها والحِجَا أفسِحُوا
ولْتَذْكُر الأُمةُ ميثاقَها ... ألَّا تَرَى عِزَّتَها تُجْرَحُ
وتَنتَخِبْ صَفْوَةَ أبنائها ... فمنهُمُ المُخْلِصُ والمُصْلِحُ

---

(١) الأهاويل جمع أهوال.

وليّتق الله أُولو أمرها ... أن يُسكِتوا الأصوات أو يُرفحوا[١]
أو تسألوا القلب يُقل حاذرُوا ... وصابرُوا أعداءَكم تُفلِحوا
إنى أرى قَيْدًا فلا تُسْلِمُوا ... أيديكُم فالقيد لا يَسْجحُ[٢]
إن هيأوه من حريرٍ لَكُم ... فهو عل لينٍ به أفدَحُ
حَتَّامَ - والصبرُ له غايةٌ - ... لغيرنا من بِئرنا نمتَحُ؟
حتام - والأموالُ مَشفوهةٌ -[٣] ... نمنَحُ إلا (مِصرَ) ما نمنَحُ؟
حتام يُمضى أمرَنا غيرنا ... وذاك بالأحرار لا يمْلُحُ؟

وعاد يدعو إلى الوحدة والوئام ويستنكر الفرقة والانقسام:

أساءَ بَعضُ الناس فى بعضهم ... ظنا وقد أمسَوْا وقد أصبَحُوا
فانتهزَتْ أعداؤنا نُهْزَةً ... فينا وما كانت لهم تَسْنَحُ
فالرأىُ كلُّ الرأى أن تُجْمِعوا ... فإنما إجماعُكم أرْجَحُ
وكلُّ من يطمعُ فى صَدْعِكم ... فإنه فى صخرةٍ يَنْطَحُ
أخْشَى إذا استمشَرْتُم بينكم ... من قادَةِ الآراء أن تَفْضَحوا
فلْتَقْصُدوا ما استطَعْتم فيهُمُ ... فإنما فى القلة المنَجَح

يستحث المواطنين على التضحية والجهاد

نظم حافظ سنة ١٩٠٤ قصيدة رائعة عن (غادة اليابان) ضرب فيها الأمثال فى التضحية والجهاد، وجعلها على لسان غادة وطنية من اليابان وأشاد بشجاعتها فى الحرب التى شبت بين بلادها والروسيا عام ١٩٠٤، إذ ذهبت متطوعة إلى ميادين القتال تواسى الجرحى، وترعى حقهم قال:

لاتلم كيف إذا السيف نَبَا[٤] ... صَحَّ منى العزمُ والدهرُ أبى
ربَّ ساعٍ مُبصرٍ فى سعيه ... أخطأ التوفيق فيها طلبا
مرحبًا بالخطب يَبْلونى إذا ... كانت العلياء فيه السببا

---

(١) يريد تأين المواطنين من النفى إلى (رفح) وكانت منذ ثورة سنة ١٩١٩ منفى للأحرار.

(٢) يلين ويسهل.

(٣) أى مستنفدة مضيعة.

(٤) نبا السيف: كل وارتد.

إيه يادنيا اعبسى أو فابسمى لا أرى برقَك إلا خُلَّبا[١]

إلى أن قال:

كنتُ أهوى فى زمانى غادةً وَهبَ الله لها ما وهبا
حَمَلَتْ لى ذات يوم نبأ لارعاك الله ياذاك النَّبا
وأنت تخطر والليل فتًى وهلالُ الأفق فى الأفق حَبَا
ثم قالت لى بثغر باسم نظمَ الدرُّ به والحبَبَا
نَبأُونى برحيل عاجلٍ لا أرى لى بعده مُنْقلبا[٢]
ودعانى موطنى أن أغتدى[٣] عَلَّنى أقضى له ما وهبا
نذبح الدُّبّ[٤] ونَفرى جلدَه أيظنّ الدبُّ أن لا يُغْلَبا؟

* * *

قلتُ والآلام تغرى مهجتى وَيكِ! ماتصنعُ فى الحرب الظِّبا؟
ما عهدناها لظبيٍ مسرحا يبتغى ملهى به أو ملعبا
ليست الحرب نفوسًا تشترَى بالتمنى أو عقولا تُستَبَى
أحسبتِ القدَّ من عُدّتها أم ظننت اللحظ فيها كالشَّبَا[٥]
فدعيها للذى يعرفها والزمى ياظبية البان الخِبا[٦]

* * *

فأجابتنى بصوتٍ راعنى وأرتنى الظَّبْىَ ليثًا أغلبا
إن قومى استعذبوا وِرْدَ الرّدَى كيف تدعونىَ ألا أشربا؟
أنا يابانية لا أنثنى عن مرادى أو أذوق العَطبا
أنا إن لم أحسن الرمىَ ولم تستطع كفَّاى تقليب الظُّبا
أخدم الجرحى وأقضى حقهم وأُواسى فى الوغى من نُكبا
هكذا (الميكادُ) قد عَلَّمنا أن نرى الأوطانَ أُمًّا وأبا

---

(١) البرق الخلب الذى ينتظر الناس مطره ويخلفهم.
(٢) المنقلب: العودة.
(٣) أغتدى، أى أبادر مبكرة للدفاع عنه.
(٤) الدب: رمز لروسيا.
(٥) الشبا: جمع شباة وهى حد السيف.
(٦) البان: شجر لين تألفه الظبا، والخبا: البيت.

مـلكٌ يكـفـيـكَ مـنـه أنـه ... أنهضَ الشـرق فهـزَّ المغـربـا
بـعـث الأمـة مـن مـرقـدهـا ... ودعـا لـلعـلا أن تَـدْأبـا
فَـسَمَـت للمـجـد تبغى شـأوه ... وقضتْ مـن كـل شيء مـأربـا

يسْتَنهض الهمم، ويدعو إلى توحيد الكلمة

قال من قصيدة له سنة ١٩٢٣ يخاطب المواطنين:

ويـدُ الإله مـع الجماعـة فـاضـربـوا ... بعصـا الجمـاعـة تَـظْفَـروا بنجـاح
كـونـوا رجـالا عـاملين وكـذِّبـوا ... -والصبـحُ أبلجُ- حامـل المصباح[١]
ودعـوا التخـاذل فى الأمـور فـإنما ... شَبَـحُ التخـاذل أنكـرُ الأشبـاح
واللّهِ مـابلغ الشقـاء بـنـا المـدى ... بسـوى خـلافٍ بيننـا وتـلاحى[٢]

* * *

قُم يـا ابنَ مصر فـأنت حرٌّ واستعِـد ... مجـد الجـدود ولا تَعُـد لِمـراح[٣]
شمِّـر وكـافـح فى الحيـاة فهـذه ... دُنيـاك دارُ تنـاحـر وكـفـاح
وإذا ألـح عليـك خـطبٌ لا تَهُن ... واضـرب عـلى الإلحـاح بـالإلحـاح
وخُض الحيـاة وإن تـلاطم مـوجهُـا ... خـوضَ البحـار ريـاضةُ السبـاح
فى البحـر لا تثنيك نـارُ بـوارجٍ ... فى الـبر لا يلويـك غـابُ رمـاح
وانـظر إلى الغـربىِّ كيف سَمَت بـه ... بـين الشعـوب طبيعـة الكَـدَّاح

إلى أن قال:

وابنُ الكنـانة فى الكنـانـة راكـدٌ ... يَـرنُـو بعـينٍ غـير ذات طمـاح
لايستغـل كـما علمتَ ذكـاءه ... وذكـاؤه كـالخـاطف اللّمـاح
فانَهض وَدَع شكوى الزمان ولاتُنح ... فى فـادح البؤسَى مـع الأنـواح
واربـح لمصر بـرأس مالـك عِزَّةً ... إن الـذكـاء حُبـالـة الأربـاح
واشـرب من الماء القُـراح مُنَعَّـمًا ... فلكم وردتَ المـاء غـيرَ قَـرَاحِ

---

(١) الإشارة إلى الفليسوف ديوجنس الذى كان يحمل فى رابعة النهار مصباحا يبحث عن رجل.
(٢) التلاحى: التخاصم.
(٣) يريد بمراح: الأخذ بأسباب المرح واللهو.

يحذر سعدا من خداع الإنجليز

قال سنة ١٩٢٤ يخاطب سعد زغلول من قصيدة له فى تهنئته بنجاته من محاولة اغتياله وكان إذ ذاك معتزمًا السفر إلى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية فى القضية الوطنية:

لا تقرب (التاميزَ) واحذرْ ماءه ... مهما بدا لك أنه معسولُ
الكيْدُ ممزوجٌ بأصفى مائه ... والخَتْل[1] فيه مُذَوّبٌ مصقول
كم واردٍ يا (سعدُ) قبلك ماءه ... قد عاد منه وفى الفؤاد غليل[2]
القومُ قد ملكوا عِنَانَ زمانهم ... ولهم روايات به وفصول
ولهم أحابيلٌ[3] إذا ألقَوْا بها ... قنصوا النُّهَى أسيرُهم مخبول
ولكل لفظٍ فى المعاجم عندهم ... معنى يقال بأنه معقول
نَصَلَت[4] سياستهم وحالَ صباغُها ... ولكل كاذبة الخضابِ نُصول
جمعوا عقاقير الدواء وركّبوا ... ما ركبوه وعندك التحليل

حافظ والإنجليز وجها لوجه

فى سنة ١٩٣٢ ساهم الإنجليز مع العناصر الرجعية فى إلغاء الحياة الدستورية، وتظاهروا بأنهم على الحياد فى هذه المحنة، مع أنهم مدبروها، وقد هاجمهم حافظ بقصائد رائعة نعى فيها عليهم بغيهم وعدوانهم، وكشف فيها الستار عن حيادهم الكاذب، وطعن على سياسة الاستعمار عامة، وأعاد بحملاته عليهم ذكرى قصائده الوطنية الخالدة التى نظمها فى تمجيد الحركة الوطنية ومهاجمته الاحتلال فى عهد مصطفى كامل ومحمد فريد.

قال فى مارس سنة ١٩٣٢ مخاطبًا الإنجليز منددا بسياسة «الحياد» التى أعلنوها، ناعيا عليهم ظلمهم وإخلافهم وعودهم للأمة:

بَنَيْتُمْ على الأخلاق آساسَ مُلْكِكم ... فكان لكم بين الشعوب ذِمامُ[5]
فمالى أرى الأخلاق قد شاب قَرْنُها[6] ... وحَلَّ بها ضعفٌ ودَبَّ سقام

---

(١) الختل: الخداع والمكر.
(٢) الغليل: شدة العطش.
(٣) الأحابيل: المصايد.
(٤) نصلت: انكشفت وخرجت من لونها الكاذب إلى لونها الحقيقى. وحال: تحول.
(٥) الذمام هنا الحق والحرمة.
(٦) القرن: الذؤابة من الشعر.

أخــاف عليكم عثْــرَةً بـعــد نهضــة ... فــليس لمــلك الــظالمــين دَوام
أضَـعتُـم ودادًا لــو رعَيـتُم عـهــوده ... لمـا قـام بـين الأمــنــين خـصــام
أبعــد «حيـادٍ» لا راعى الله عهــدَه ... وبعـد الجـروحِ النـاغـراتِ[1] وئـام؟
إذا كــان فى حسن التَّفـاهم مَــوتُنــا ... فـليس عــلى بــاغى الحـيــاة مَــلام

وقال فى هذا المعنى:

لاتَذْكروا الأخـلاقَ بعد «حيـادكم» ... فمصــابـكم ومـصــابنــا سـيّــان
حـاربتمـو أخــلاقكم لِتحـاربــوا ... أخــلاقـنــا فـتــألّم الـشعّـبــانِ

وقال عن (الحيادِ الكاذب):

قَصـرَ الـدُّبــارة قـد نقضـ ... ـت العهـدَ نَقض الغـاصب
أخـفـيتَ مــا أضـمــرتَــه ... وأبــنــتَ ود الــصــاحــب
الحــربُ أروحُ لــلنــفــو ... س من «الحيــاد» الكـاذب

وقالَ مخاطبًا السير برسى لورين المندوب السامى البريطانى وقتئذ، منددًا بحياد الإنجليز المصطنع:

ألم تَـرَ فى الـطريق إلى «كيـاد»[2] ... تصيــد البَطّ بؤس الـعــالمينــا؟
ألم تلمــح دموعَ النــاس تجرى ... من البلوى - ألم تسمــع أنينــا؟
ألم تخـبر بنى «التـاميــز» عنــا ... وقــد بعثــوك منــدوبًــا أمينــا؟
بــأنـا قــد لمسنــا الغــدر لَمّــا ... وأصبــح ظنــنــا فيكم يـقـيـنــا
كشفـنــا عن نــوايــاكـم فلستم ... وقــد بـرح الخفــاء محـايــدينــا
سنْجمــع أمــرنــا فتــرون منــا ... لـدى الجلّى[3] كـرامًــا صـابـرينـا
ونــأخــذ حقنــا رغـم العــوادى ... تُـطيف ةنـا ورغم القـاسـطينــا[4]
ضــربتم حَـولَ قــادتنـا نــطاقـا ... من النيــران يُـعيى الـدّارعـينــا

---

(١) الناغرات: الداميات.
(٢) بركة بمركز فاقوس بالشرقية كان المندوب السامى البريطانى يذهب إليها لصيد الطيور.
(٣) الجلى: النازلة الشديدة.
(٤) القاسطون: الظالمون.

عــلى رغم المروءة قــد ظفــرتم ولـكن بــالأســود مـصفّــدينــا
فهــل يجديكم الأســطول نفعــا إذا مــا نــازل الحـقّ المـبينـا؟

وقال فى هذا المعنى (ابريل سنة ١٩٣٢):

(إلى المحايدين)

أمُحــايــدٌ أمْ حــائــدٌ عن منهج الحق المبـينْ؟
نَــازلتَ شعبًــا أعــزلا بـمدرّعـين مــدججــين
وأمنتَ عقبى الــظالمـين وبئْسَ عقبى الـظالمـين!
مهــما تُصِبْ منــا فلســ ـنا الجازعـين اليائسـين
إنّــا بـجبــار الســماء وبــالعقيــدة نَسْتعـين
إن الـعقـيــدة لا تــزلـ ـزلها حرّابُ الغـاصبين
فلئن مـلكتم يـومكـم لغــدٌ لـرب العــالمـين
أأمنتــو صـرفَ الــزمـ ـان وفتكه بالغـاشمين؟

* * *

كـم مـن قــويٍّ هــدّه كَيْدُ الضعيف المستكين
أو لمْ تــروْا مــا ذاقــه بـالأمس ذياك السجـين[1]؟
فى (سنت هـيلين) قـضى من دَوَّخَ الـدنيـا سنـينَ
من كــان فى غــاراتــه فى الكون منقطعَ القرين
أمسى ألانَتْــه الخـطوب وكــان صـلبًــا لا يلين
أوَ تـتقــون مـصيــره أم لستمــو بــالمتقــين؟

* * *

ضِقْنــا بكَيد محــايديـ ـن لنـا وكيـد مبشـرين
ثــاروا عـلى دين الهـدى وتخــطفـوا منــا البنـين
داسوا العرين وقـد خلا من أسـده ذاك العـرين

---

(١) نابليون، وقد مات أسيرا سجينا فى جزيرة سنت هيلين.

خســر المبشر، إنَّ دين   الحق دين المسلمين
الله حاميه وكافيه   شرورَ المعتدين

نحن والإنجليز وجها لوجه

وقال أيضًا:

قل للمحايد هل شهدت دماءنا   تجرى وهل بعد الدماء سلام؟
سفكت مودتنا لكم وبدالنا   أن الحياد على الخصام لثام
إن المراجل شرُّها لا يُتقى   حتى ينفس كربَهن صمام
لم يبق فينا من يمنّى نفسه   بودادكم فودادكم أحلام
أمن السياسة والمروءة أننا   نَشقَى بكم فى أرضنا ونُضام؟
إنّا جمعنا للجهاد صفوفنا   سنموت أو نحيى وَنحن كرام

وقال فى أبريل سنة ١٩٣٢ تحت عنوان (إلى الإنجليز)، وهى من أبلغ ما قيل فى تحدى القوة الغاشمة والصمود أمام الشدائد مهما عظمت:

حَوِّلوا النيلَ واحجبوا الضوءَ عنا   واطمِسُوا النجمَ واحرمونا النسيما
واملأوا البحر إن أردتم سفينًا   واملأوا الجو إنْ أردتم رُجوما
وأقيموا للعسف فى كل شِبرٍ   (كونستبلا) بالسوط يَفرى الأديما[1]
إننا لن نحول عن عهد مصرٍ   أو تروناً فى التراب عظمًا رميما

* * *

عاصفٌ صان مُلككم وحماكم   وكفاكم بالأمس خطبًا جسيما
غال (أرمادةَ)[2] العدو ففزتم   وبلغتم فى الشرق شأوا عظيما
فعدلتم هنيهةً، وبَغَيتم   وتركتم فى النيل عهدًا ذميما
فشهدنا ظلما يقال له العد   لُ وودًا يسقى الحميم الحميما[3]
فاتّقوا غضبةَ العواصف إنى   قد رأيت المصير أمسى وخيما!

(١) يفرى الأديم أن يشق الجلد.
(٢) الأرمادة هى الأسطول الأسبانى الذى تحطم فى القرن السادس عشر بعاصفة حالت بينه وبين مهاجمة الأسطول الإنجليزى الذى كان دونه قوة وعددا.
(٣) الحميم الأول الصديق، والحميم الثانى الشراب الشديد الحرارة.

وقال أيضًا (أبريل سنة ١٩٣٢):

لقد طال الحيادُ ولم تَكُفُّوا أما أرضَاكُم ثمنُ الحياد؟
أخذتم كل ما تبغون منا فما هذا التحكّم فى العباد؟
بلونا شدّةً منكم ولينًا فكان كلاهما ذرّ الرّماد
وسالْمتم وعاديتم زمانا فلم يُغن المُسالِم والمعادى
فليس وراءَكم غَير التّجنىّ وليس أمامنا غَير الجهاد

وعود الانجليز فى الجلاء

وقال فى سنة ١٩٣٢ يندد بكاتب فرنسى زعم أن جلاء الإنجليز سيكون فى أكتوبر من ذلك العام:

كم حددوا يوم الجلاء الذى أصبح فى الإبهام كالمحشر
وَسن قوم الطيش من جهلهم كذبة (إبريل لأكتوبر)

حافظ وصدقى باشا

وقال فى سنة ١٩٣٢ يندد بسياسة صدقى باشا رئيس الوزارة وقتئذ من قصيدة لم ينشر منها إلّا النزر اليسير:

قد مرَّ عامٌ يا سعادُ وعام وابنُ الكنانة فى حماه يضامُ
صَبُّوا البلاءَ على العباد فنصفهم يجبى البلاد ونصفهم حكام
أشكو إلى (قصر الدبارة) ماجنى (صدقى) الوزير وماجبى (علّام)[1]

ومنها فى مخاطبة صدقى باشا:

ودعا عليك اللّهَ فى محرابه الشيخُ والقسِّيس والحاخام
لا هُمَّ أحْىِ ضميرَه ليذوقَها غَصصًا وتنسف نفسَه الآلام

يكافح الاستعمار ويدعو إلى الفداء

قال فى حرب طرابلس (سنة ١٩١١ - ١٩١٢) حين اعتدت إيطاليا على العرب يستحث أمم الشرق أن تنهض وتكافح الاستعمار، ويمجد التضحية فى سبيل الحرية:

(١) محمد علام باشا، وكيل حزب اشعب الذى ألفه صدقى باشا. يشير إلى ما كانوا يجبونه من الأموال إعانة لحزب الشعب.

طَمَعٌ ألْقَى عن الغَرْب اللِّثاما ... فاستَفِقْ ياشَرْقُ واحذَرْ أنْ تناما !
واحملِي أيتها الشمس إلى ... كلِّ من يسْكن فى الشَّرق السَّلاما
واشهَدى يومَ التَّنادى[1] أنّنا ... فى سبيل الحقِّ قد مِتْنا كِراما
مادَتِ الأرض بنا حين انْتَشَتْ ... من دم القَتلى حلالاً وحراما
عجز الطَّلْيانُ عن أبْطالنا ... فَأعَلُّوا[2] منْ دَرارينا الحُساما
كبَّلوهم، قتلوهم، مثَّلوا ... بذَوات الخِدْر، طاحوا باليتامى
ذَبَحُوا الأشْياخَ والزَّمْنى[3]، ولم ... يرحموا طِفْلًا، ولم يُبقُوا غُلاما
أحرقوا الدُّورَ، استحلُّوا كلَّ ما ... حَرَّمَت (لاهایُ) فى العَهْد احتراما
بارَكَ المطرانُ فى أعمالهمْ ... فسلوه : بارك القوم علاما ؟
أبهذا جاءهم إنْجيلهم ... آمرًا يُلْقِي على الأرض سلاما ؟
كشفوا عن نِيّة الغَرْب لنا ... وجَلَوْا عن أُفُق الشَّرق الظَّلاما
فقرأناها سطورًا من دمٍ ... أقسمَتْ تَلْتَهم الشَّرق التهاما

وختم قصيدته بقوله :

فاطمئنِّ أُمم الشَّرق ولا ... تَقْنَطى اليوم فإنَّ الجَدّ قاما
إنَّ فى أضْلاعنا أفئدةً ... تعشقُ المجدَ، وتأْبى أن تُضاما

تمجيده للشورى

قال فى عمريته المشهورة التى أنشأها فى سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب :

يا رافعًا رايةَ الشُّورى وحارسها ... جزاك ربُّك خيرًا عن مُحِبِّيها
لم يُلْهِك النَّزْعُ عن تأييد دولتها[4] ... وللمَنِيَّةِ آلامٌ تُعانيها
لم أنْسَ أمرك للمِقدادِ يحملُه ... إلى الجماعة إنْذارا وتنْبيها
إنْ ظلَّ بعد ثلاثٍ[5] رأْيُها شُعَبًا ... فجرِّد السيف واضربْ فى هَوادِيها
فاعجَبْ لقوَّة نفسٍ ليس يصرفها ... طَعمُ المنيَّة مُرًّا عن مراميها

---

(١) يوم القيامة.
(٢) أعلوا أى سقوا.
(٣) الزمنى : ذوو العاهات.
(٤) دولتها، أى دولة الشورى.
(٥) بعد ثلاث، أى بعد ثلاث ليال. والهوادى : الأعناق.

دَرَى عَمِيدُ بَنِى الشُّورَى بموضعها ... فعاش ما عاش يَبْنيها ويُعْليها
وما اسبَدّ برأيٍ فى حكومته ... إنَّ الحكومة تُغْرى مستبدّيها
رأى الجماعة لا تَشْقَى البلادُ به ... رغْم الخلاف ورأْىُ الفرد يُشْقيها

الاستمرار فى الكفاح

قال سنة ١٩٢٤ يدعو إلى الاستمرار فى الكفاح:

إنا سنعْمل للخلاص ولا نَنِى ... والله يَقْضِى بيننا ويُدِيل[١]
كم دولةٍ شَهِد الصباحُ جلالها ... وأتى عليها الليل وهى فُلُولُ
وقصورِ قومٍ زاهراتٍ فى الدُّجَى ... طَلَعَتْ عليها الشمس وهى طُلُولُ

* * *

يأيها النَّشءْ الكِرام تحيَّةً ... كالرَّوض قد خطرت عليه قَبول[٢]
يا زَهْرَ مصرَ وزَيْنَها وحُماتها ... مَدْحى لكم بعد الرئيس[٣] فُضُولُ
جُدْتُمْ لها بالنفس فى وَرِدِ الصِّبا ... والورد لم يُنظَرْ إليه ذُبولُ
كم من سجينٍ دُونَها ومجاهدٍ ... دَمُه على عَرَصاتها مَطْلولُ
سيروا على سَنَنِ الرئيس وحقِّقوا ... أمل البلاد فكلُّكُم مأمولُ
أنتُم رجال غدٍ وقد أوفَى غَدٌ ... فاستقبِلوه وحَجِّلوه وطُولوا[٤]

تقريعه للمواطنين

وبلغ حثه المواطنين على النهوض حد التقريع أحيانًا. وله سنة ١٩٠٤ قصيدة ينعى فيها على مواطنيه بعض عيوبهم الاجتماعية، وقد نظمها لمناسبة قضية شخصية ثار لها الرأى العام بغير موجب، إذ تزوج صاحب المؤيد المرحوم الشيخ على يوسف بكريمة السيد عبد الخالق السادات، فرفع هذا دعوى أمام المحكمة الشرعية طالبًا فسخ عقد الزواج بحجة عدم الكفاءة فى النسب، وانحاز الرأى العام إلى جانب المدعى، وأخذ القضاء بوجهة نظره رغم علو مكانة الشيخ على يوسف فى الهيئة الاجتماعية، قال حافظ:

---

(١) يديل، أى يجعل الدولة لنا عليهم.
(٢) القبول: ريح الصبا.
(٣) يقصد هنا سعد زغلول.
(٤) حجلوة، أى اجعلوه يوما ابيض، وطولوا أى افخروا واعتزوا.

حَـطَمتُ اليـراعَ فـلا تَـعْجَبى ... وعِـفْتُ البـيـان فـلا تَـعْـتبى
فـما أنتِ يـا مصـر دار الأديب ... ولا أنـت بـالـبـلد الـطَّيِّـبِ
وكم فيـك يـا مصـر من كـاتبٍ ... أقـالَ الـيـراع ولم يـكـتُـبِ
فـلا تعـذلينى لهـذا السُّكـوت ... فقـد ضاق منـك ما ضـاق بى
أيعجُبنى منـكِ يـومَ (الـوفـاق)[1] ... سكـوت الجمـاد ولِعبُ الصَّبى؟
وكم غضب النـاسُ من قبلنـا ... لـسَلْبِ الحقـوق ولم تَـغْـضَبِ

* * *

أنـابتـةَ العصـر إنّ الغـريب ... مُجِـدٌّ بمـصـر فـلا تَـلْعَـبى
يقـولـون: فى النَّشءِ خـيرٌ لنـا ... ولـلنَّشءُ شَـرٌّ من الأجـنـبى
أفى (الأزبكيَّـة) مَثـوىَ البـنـين ... وبـين المساجـد مَثـوَى الأب؟
(وكم ذا بمصـر من المُضحكـات) ... كما قـال فيهـا (أبو الـطِّيِّب)[2]
أمـورٌ تَمـرُّ وعَـيْشٌ يمـرُّ[3] ... ونحـن من اللَّهـو فى مَـلْعَب
وشعبٌ يـفـرُّ من الصـالحـات ... فِـرارَ السَّليـم من الأجـرب
وصُحفٌ تَـطنُّ طنـينَ الـذُّبـاب ... وأُخـرَى تَشُنُّ عـلى الأَقـرَب
وهـذا يـلوذ بقـصـر الأَمـير ... ويـدعـو إلى ظـلِّه الأَرحـب
وهـذا يـلوذ بقَصـر السَّفـير ... ويُـطْنِبُ فى ورده الأَعـذب
وهـذا يَصيح مع الصَّـائحـين ... عـلى غـير قـصدٍ ولا مـأْرب

* * *

وقـالـوا: (المؤيَّـدُ) فى غمـرةٍ ... رمـاه بهـا الـطَّمـع الأَشْعبى
دعـاهُ الغـرام بسنِّ الكهـول ... فجنَّ جُنـونـًا بِبِنْتِ النَّبـى!
فضـجَّ لهـا العـرش والحـامِلُوه ... وضـج لها القَـبْرُ فى (يَثْرِب)[4]
ونـادى رجـالٌ بِـإسـقـاطـه ... وقـالـوا: تَـلَوَّن فى المـشـرب

---

(١) يقصد الاتفاق الذى عقد بين فرنسا وبريطانيا سنة ١٩٠٤ وبمقتضاه أقرت فرنسا الاحتلال البريطانى لمصر.
(٢) يشير إلى قول أبى الطيب المتنبى: (وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا).
(٣) عيش يمر، أى يصير مرًّا.
(٤) اسم قديم للمدينة المنورة.

وعَـدُّوا عـليـه مـن الـسَّـيِّئـات ألـوفًـا تَـدور مـع الأَحْـقُـبِ
وقـالـوا لَصِيقٌ ببيْت الـرسـول أغـار عـلى الـنَّسَب الأَنْجَبِ
وزَكَّـى (أبـو خَـطْوَةٍ) قـولهـم بـحُـكْـمٍ أَحَـدَّ مـن المـضْـرَب
فـما لـلتّـهـانى عـلى داره تَـسـاقَطُ كـالَمـطَر الصَّـيِّـب؟
ومـا لـلوفـود عـلى بـابـه تَـزُفُّ الـبشـائـرَ فى مـوكِـب؟
ومـا لـلخليـفـة أسْـدَى إلـيـه وسـامًـا يـليـق بـصـدْر الأبى؟

* * *

فـيـا أمـةً ضـاق عن وصْفهـا جَـنَـانُ الُمـفـوِّه والأَخْـطَب
تـضيـع الحـقيـقـة مـا بيـنـنـا ويَصْـلَى البـرىءُ مـع المـذنب؟
ويُهْضَم فـيـنـا الإمـام الحـكـيـمْ ويُكـرَمُ فيـنـا الجهـول الـغبـى.

* * *

عـلى الشـرق منِّى سَـلامُ الـوَدود وإنْ طـأطـأ الشـرق للمغْـرب
لقـد كان خِصبًـا بجـدْب الـزَّمـان فـأَجـدَب فى الـزمـن المُخْصِب

شعره الاجتماعى

يزخر شعر حافظ بالاجتماعيات، فهو من هذه الناحية أغزر مادة وأعمق غورا من شوقى، ولا غرو فقد كان أكثر اتصالا بالطبقات الشعبية، وعانى ما تعانيه من الألم والحرمان، فصار أدق تصويرا لأحوالها وآلامها، وفى ذلك يقول بحق عن نفسه فى قصيدته التى أنشدها بدار الأوبرا سنة ١٩١١ فى حفلة جمعية رعاية الأطفال:

لم أقـف مَـوْقفـى لأُنـشِـدَ شعـرًا صُـبَّ فى قـالـبٍ بـديـع الـنِّـظام
إنّمـا قـمتُ فـيـه والنَّـفس نَشْـوَى مـن كؤوس الهـمـوم والقـلب دامى
فـلهـذا وقـفـتُ أَسْـتَعـطِف الـنَّـا سَ عــلى البـائسـين فى كـلّ عــامِ
ذُقْتُ طعم الأَسَى وكـابـدت عيْشًـا دُونَ شُـرْبِى قَـذَاهُ شـربُ الحِمام[1]
فـتـقـلَّبْتُ فى الـشَّـقـاء زمـانـا وتـنـقَّـلتُ فى الخـطوب الجِـسـام
ومـشـى الهـمُّ ثـاقِبًـا فى فُـؤادى ومشى الحـزن نـاخِـرًا فى عِـظامى

---

(١) الحمام الموت.

عطفه على منكوبي حريق ميت غمر

في سنة ١٩٠٢ شب حريق مروع في مدينة ميت غمر، وبقيت النار مشتعلة فيها عدة أيام، فدمرت كثيرًا من دورها ومات في الحريق كثيرون؛ ولعظم النكبة تسابق أهل الخير في إعانة المنكوبين وإسعافهم، وفاضت أعمدة الصحف بأنباء ما أصابهم، وفي ذلك أنشأ حافظ قصيدته المشهورة في وصف هذه الكارثة والعطف على ضحاياها. قال:

سائلوا اللَّيل عنهمُ والنَّهارا ... كيف باتت نساؤهم والعَذَارَى؟

كيف أمْسَى رضيعهم فَقَدَ الأُ ... مَّ وكيف اصطلى مع القوم نارًا؟

كيف طاح العجوز تحت جدار ... يتداعَى وأسْقُفٍ تَتَجارَى؟

رَبِّ إنّ القضاء أنحى عليهم ... فاكشف الكَربَ واحجُب الأَقْدَارا

ومُرِ النَّارَ أنْ تَكُفَّ أذاها ... ومر الغيث أن يسيل انهمارا

أين طوفان صاحب الفُلْك يُروِى ... هذه النَّار فهي تشكو الأُوارا[1]

أشعلتْ فَحْمَةَ الدَّياجي فباتت ... تملأ الأَرض والسَّماء شَرارا

غَشِيتْهم والنَّحْسُ يَجْرِى يمينًا ... ورَمَتْهُم والبُؤْسُ يَجْرِى يَسارا

فأَغارتْ وأوْجُهُ القوم بيضٌ ... ثمّ غَارَتْ وقد كَسَتْهُنَّ قارا

أكلت دورهمْ فلّما استقلَّت ... لم تُغَادرْ صغارَهُمْ والكِبارا

أخْرَجتْهُمْ من الديار عُراةً ... حَذَرَ الموت يطلبون الفِرارا

يَلْبَسُونَ الظلام حتّى إذا ما ... أقْبَل الصبح يلْبسونَ النَّهارا

حُلَّة لا تَقيهُم البَرْدَ والحَـ ... ـرَّ ولا عَنْهُمُ تَرُدُّ الغُبارا

أيّها الرّافلون في حُلَلِ الوَشْـ ... ـي[2] يَجُرَّنَ للذُّيول افْتِخارا

إنَّ فَوْق العراءِ قومًا جِياعًا ... يَتَوَارَوْنَ ذِلَّةً وانكِسارا

أيُّهذا السَّجينُ[3] لا يمنع السَّجْـ ... ـن كريمًا منْ يُقيل العثارا

مُرْ بِألْفٍ لهم وإنْ شئْتَ زِدْهَا ... وأَجِرْهُمْ كما أَجَرْتَ النَّصارى

* * *

(١) الأوار: شدة الحرارة والعطش.

(٢) حلل الوشى الثياب المزركشة.

(٣) يقصد أحمد المنشاوى باشا المحسن وصاحب المبرات المعروفة.

قد شَهِدْنا بالأمْس فى مِصْرَ عُرْسًا[١] ملأ العَيْنَ والفُؤادَ ابتهارا
سالَ فيه للنُّضارُ حتّى حسِبْنا أن ذاك الفِناءَ يَجْرى نُضارا
باتَ فيه المُنَعَّمُون بلَيْلٍ أخْجَل الصُّبْحَ حُسْنُه فتَوارَى
يَكْتَسُون السرورَ طَوْرًا وطورا فى يَدِ الكأس يَخْلَعُون الوَقارا
وسَمِعْنا فى (ميت غَمْرٍ) صياحًا ملأ البَرَّ ضَجَّةً والبِحارا

* * *

جَلَّ مِن قَسَّم الحظوظ، فهذا يَتَغَنَّى وذاك يبكى الدِّيارا
رُبَّ لَيْلٍ فى الدهر قد ضَمَّ نَحْسًا وسُعودًا وعُسْرَةً ويَسارا!

الجامعة فى سبيل الكفاح

وقال من قصيدة له فى سنة ١٩٠٨ يدعو إلى معاضدة مشروع الجامعة المصرية.

حياكم اللّهُ أحْيوا العِلْمَ والأدبا إنْ تَنْشُروا العلم يَنْشُرْ فيكُم العَربَا[٢]
ولا حياة لكُمْ إلاّ بجامعةٍ تكونُ أُمًّا لطُلّاب العُلا وأبَا
تَبْنِى الرجالَ وتبنى كل شاهقَةٍ من المعالى وتبنى العزَّ والغَلَبا
ضَعُوا القلوب أساسًا. لا أقول لكم ضعوا النُّضار فإنى أصْغِرُ الذَّهبا
وابنوا بأكْبادكم سورًا لها ودَعُوا قيلَ العدوِّ فإنى أعْرِف السَّببا[٣]
لا تقنَطوا إنْ قرأتُمْ ما يزُوِّقه ذاك العميدُ ويرْميكم به غَضبًا[٤]
وراقبوا يومَ لا تُغْنى حصائِدهُ فكلُّ حَيٍّ سيُجْزَى بالذى اكتسبا[٥]
بنَى على الإفْك أبراجًا مُشَيَّدَةً فابْنوا على الحقِّ بُرْجًا يَنْطَح الشُّهُبا
وجاوبوه بفعْلٍ لا يُقَوِّضهُ قوْل المفنِّد أنَّى قال أو خَطَبا
لا تهجَعوا إنهم لن يهجعوا أبدًا وطالبوهُمْ ولكنْ أجْملوا الطَّلبا

وختمها بقوله:

إنْ تُقْرضوا الله فى أوطانكمْ فلكمْ أجْر المجاهد طوبى للّذى اكتَتَبا

(١) يقصد عرس زواج (لأمير) حيدر فاضل من كريمة على فهمى (باشا) سنة ١٩٠٢ وكان من أعظم المهرجانات.
(٢) أى يبعث فيكم مجد العرب.
(٤،٣) يشير إلى ما كان يقيمه المعتمد البريطانى من العقبات فى سبيل إنشاء الجامعة.
(٥) حصائد أى حصائد الصيد أى ما يقوله ليثنى به العزائم عن مشروع الجامعة.

رعاية الأطفال

وألقى فى إبريل سنة ١٩١٠ القصيدة الآتية فى احتفال أقامته جمعية رعاية الأطفال يصف بؤس أم فقيرة حامل وكيف لقيت الرعاية والإسعاف فى مستشفى الجمعية:

شَبَحًا أرى أم ذاك طَيْفُ خيال؟ ... لا، بل فتاةٌ بالعَرَاء حيالى
أمستْ بمَدْرَجَة الخطوب فما لها ... راعٍ هناك وما لها منْ والى
حَسْرى تكاد تُعِيد فَحْمَةَ لَيْلها ... نارا بأنّات ذَكَيْنَ[1] طِوال
ما خَطْبُها عَجَبا، وما خطبى بها؟ ... مالى أشاطرها الوجيعة مالى؟
دانيتُها ولصوتها فى مسْمعى ... وَقع النِّبال عَطَفْنَ إثْرَ نبال
وسألتها: من أنتِ؟ وهى كأنها ... رَسْمٌ على طَلَلٍ من الأطلال
فَتَمَلْمَلَتْ جَزَعًا وقالت: حامِلٌ ... لم تدْر طعم الغَمض منذ ليالى
قد مات والدُها وماتَتْ أُمها ... ومَضَى الحِمامُ بِعَمِّها والخال

* * *

وإلى هنا حبس الحياء لسانها ... وجَرَى البُكاء بدَمْعها الهطَّال
فَعلمتْ ماتُخْفى الفتاةُ وإنّما ... يَحْنو على أمثالها أمثالى

ووقفتُ أنظُرُها كأنّى عابدٌ ... فى هيْكلٍ يَرنو إلى تمثال
ورأيتُ آياتِ الجمال تكفَّلَتْ ... بزوالهنَّ فوادحُ الأثقال
لاشىء أفْعَلُ فى النفوس كقامَةٍ ... هَيفاء رَوَّعها الأسَى بُهزال
أوغادة كانت تُريكَ إذا بَدَت ... شمس النَّهار فأصْبحت كالآل[2]

* * *

قلتُ: انهضَى قالت: أيَنْهَضُ مُيِّتٌ ... من قبره ويَسيرُ شَنٌّ بالى[3]
فحملتُ هيْكل عظمها وكأنّنى ... حُمِّلْتُ حين حَمَلْتُ عُودَ خَلال

---

(١) ذكين، أى توقدن واشتعلن.
(٢) الآل: السراب.
(٣) الشن. القربة الخلق البالية.

وطِفقْت أنْتَهب الخطا متيمًّا | بالليل (دار رعاية الأطفال)
أمْشى وأحْمل بائسيْن: فطارقٌ | باب الحياة ومؤْذنٌ بزوال[١]
أبْكيهما وكأنما أنا ثالثٌ | لهما من الإشْفاق والإعْوال[٢]

* * *

وطرقْتُ باب الدار لا مُتَهيِّبا | أحدًا ولامترَّقبًا لسؤال
طَرْقَ المُسافرِ آب من أسفاره | أوطَرْقَ رب الدار غير مُبالى
وإذا بأصوات تصيح: ألاافتحوا | دقاتُ مَرْضَى مُدْلجين عجال
وإذا بأيد طاهرات عوِّدَتْ | صنعَ الجميل تطوَّعَتْ فى الحال
جاءت تُسابقُ فى المَبرةِ بَعْضُها | بعضًا لوَجه الله لالِلمال
فتناولتْ بالرِّفق ماأنا حاملٌ | كالأم تَكْلأ طِفْلها وتُوالى
وإذا الطبيب مُشَمرٌ وإذا بها | فوقَ الوسائد فى مكان عالى
جاءوا بأنواع الدَّواء وطوفوا | بسَرير ضَيْقَتهم كبعْضِ الآل
وجثا الطبيب يجسُّ نبضًا خافتًا | ويَرُودُ مكمنْ دائها القتال
لم يَدْر حين دَنَا ليَبلو[٣]قلبها | دقَّاتِ قَلْبٍ أم دبيب نِمالَ؟

* * *

ودعْتها وتركْتُها فى أهلها | وخرجتُ مُنْشرحًا رضيَّ البال
وعجزْتُ عن شكر الذين تجرَّدوا | للباقيات وصالح الأعمال
لم يُخْجلوها بالسؤال عن اسمها | تلك المروءة والشعور العالى
خيرُ الصنائع فى الأنام صنيعةٌ | تَنْبُو بحاملها عن الإذلال
وإذا النَّوَال أتى ولم يُهْرَقْ له | ماء الوجوه فذاك خير نوال
من جاد من بْعد السؤال فإنه | -وهو الجوادُ- يُعدّ فى البُخَّال

* * *

لله دَرُّهُمُ فكم من بائسٍ | جَمِّ الوجَيعة سيِّء الأحوال

---

(١) طارق باب الحياة: الجنين. ويريد بالمؤذن بالزوال، أمه.
(٢) الإعوال. البكاء.
(٣) يبلو: أى يختبر.

ترمى به الدُّنيا فمن جوعٍ إلى ... عُرْىٍ إلى سُقْمٍ إلى إقْلال
عينٌ مُسَهَّدَةٌ وقلبٌ واجفٌ ... نَفْسٌ مُرَوَّعةٌ وجيْبٌ خالى
لم يدْر ناظره أعُرْيانا يَرَى ... أم كاسيًا فى تلْكم الأسمال
فكأنَّ ناحِلَ جسمه فى ثَوْبه ... خلْفَ الخروق يُطِل من غرْبال
يابَرْدُ فاحمِلْ قد ظَفِرْتَ بأعزلٍ ... يا حَرُّ تلك فريسةُ المُغْتال
يا عَينُ سُحِّى يا قلوب تَفَطَّرى ... يانفْسُ رقِّى يا مروءةُ والى
لولاهُمُ لقَضى عليه شقاؤُه ... وخَلا المجالُ لخاطف الآجال
لولاهم كان الرَّدى وقفًا على ... نفس الفقير ثقيلة الأحمال

* * *

لله دَرُّ الساهرين على الأُلى ... سهروا من الأوجاع والأوجال[1]
القائمين بخير ما جاءت به ... مدنيَّة الأديان والأجيال
أهْلِ اليتيم وكهفه وحُماته ... وربيع أهل البُؤس والإمحَال[2]

* * *

لاتُهْملوا فى الصالحات فإنَّكم ... لا تجهلون عواقب الإهمال
إنى أرى فقراءكم فى حاجةٍ ... -لاتعلمون- لقائلٍ فَعَّال
فتَسابقوا الخيرات فهى أمامكم ... ميدان سَبقٍ للجواد النَّال[3]
والمحسنون لهم على إحسانهم ... يوم الإثابة عَشْرَةُ الأمْثال
وجزاء رب المحسنين يجلُّ عن ... عَدٍّ وعن وَزْنٍ وعن مكيال

وقال فى سنة ١٩١١ يدعو إلى العطف على البؤساء:

دعوَةُ البائس المعذَّبِ سُورٌ ... يدفع الشَّرَّ عن حياض الكرامِ
وهى حرْبٌ على البخيل وذى البَغْـ ... ـى وسَيْفٌ على رقاب اللِّئام
إنَّ هذا الكريم قد صان عِرْضى ... وحَمانى من عاديات السقام

---

(١) الأوجال. المخاوف.
(٢) الإمحال. الجدب.
(٣) الجواد. الكريم. والنال. الكثير النائل وهو العطاء.

عـال طفـلى وعـالنى و حَبـانى   بـكسـاءٍ وبـدرةٍ وطـعـام
وهـو من مَعشرٍ أغـاثـوا ذوى البؤْ   س وقـامـوًا فى الله خـير القيام
وأقـامـوا لـلبرِّ دارًا فـكـانـت   خـير وِرْدٍ يَـؤمُّـه كـلُّ ظـامى
مُلِئَتْ رَحمـةً وفـاضـت حَنَـانًـا   فهى لـلبـائسـات دارُ الـسـلام

إلى أن قال فى الإحسان والزكاة:

قـد نَجَا المنعم الجـواد من المـوْ   ت بفَضْـل الـزَّكـاة والإنْـعـام
فـأطَفْنـا بهـا وقـد مـلأ الأنْـ   ـفس منّـا جـلالُ ذاك المقـام
وشهـدْنـا ثَغْـر الـوفـاء تجـلىّ   إذ تجـلى فى ثَـغْـرهـا البسـام
ورأيـنْـا شـخص المـروُءة والبـ   ـر تَبَـدَّى فى شخص ذاك الهمام
وعَلِمْنـا أن الـزكـاة سبيـل اللـه قبـل الـصَّـلاة، قبـل الـصِّـيام
خَصَّهـا الله فى الكتـاب بـذكـرٍ   فهى ركـن الأركـان فى الإسـلام
بـدأتْ مبـدأ الـيـقـين وظـلَّتْ   لحـيـاة الشعـوب خـير قـوام
لـو وَفى بـالـزَّكـاة مَن جَمَع الدُّنـ   ـيـا وأهـوَى عـلى اقتنـاء الحُطام
مـا شكـا الجـوعَ مُعْـدِمٌ أو تَصَدَّى   لـركـوب الـشـرور والآثـام
راكبًـا رأسـه طـريـدًا شـريـدًا   لايـبـالى بِـشْـرعـةٍ أوذِمـام
سـائـلا عـن وصيـة الله فيـه   آخـذًا قـوتَـه بحـدِّ الحُـسـام

ملجأ الحرية

ومن قصيدة له سنة ١٩١٩ فى تحية ملجأ الحرية، وفيها يهيب بالأثرياء أن يبروا الأيتام والفقراء، ويشير إلى يقظة الأمة سنة ١٩١٩ وما أحدثته الثورة فى النفوس من التطلع إلى المثل العليا.

أيهـا الـطفـل لـك البشـرى فقـد   قَـدَّر الله لـنـا أنْ نُـنْـشَـرا[١]
قَـدَّر الله حـيـاةً حُـرَّةً   وأبَى سـبـحـانـه أنْ تُـقْـبَـرا
لاتخفْ جـوعًـا ولا عـرُيًـا ولا   تَبْـك عينـاكَ إذا خَـطْبٌ عَـرا[٢]

---

(١) نشر: أى نحيا ونبعث.
(٢) عرا:ألم ونزل.

لـك عـنـد الـبرِّ فى مَـلْجئـه حيث تـأوى خـاطِـرٌ لن يُكْسَرَا
حيث تلقى فيـه حَـدْبًـا وتـرى بـين أتْـرَابـك عيْشًـا أنضـرَا

* * *

لاتسىءْ ظنّـا بعُشـريننا فقـد تـاب عن آثـامـه واستَغْفـرا
كـان بـالأمسْ وأقـصـى همّـه -إنْ أتى عـارِفـةً[1]- أن يـظْهـرا
فغـدا اليـوم يُـواسى شعبَـهُ وهـو لايـرغـبُ فى أن يُشْكَـرا
نـبَّهـتْ عـاطـفـةَ الـبرِّ بـه محنـةٌ عمـت ومـقـدارٌ جَـرَى
جَمَعَـتـنـا فى صعـيـد واحـدٍ وأرَادَتـنـا عـلى أن نُـقْـهَـرا
فتعـاهـدْنـا عـلى دَفـع الأذى بـركـوب الحَـزْم حتَّى نَـظْفَـرا
وتـواصَـيـنـا بـصـبر بيـنـنـا فَـغَـدَوْنـا قُـوَّةً لاتُـزْدَرى
أنْشَـرتْ[2] فى مصر شَعْبًـا صالحًا كـان قبـل اليـوم مُنْفَـكَّ العُـرا
كم محبٍّ هـائـمٍ فى حبِّـهـا ذاد عن أجفـانـه سـرح الكرَى
وشبـابٍ وكـهـولٍ أقسـمـوا أن يشيـدوا مجدهـا فـوق الـذُّرَا

* * *

يـارجـالَ الجِـدِّ هـذا وقـتـه آن أن يُـعْمَـلَ كُـلٌّ مـا يَـرَى
ملجـأً أومصـرِفًـا أومصـنعًـا أو نـقـابـاتٍ لـزُرَّاع الـقُـرَى
أنـا لاأعـذر مـنـكـم مـن وَنَى وهـو ذو مَـقْـدرةٍ أو قَـصَّـرا
فـابـدءوا بـالمَلْجـأ الحُـرِّ الـذى جئت لـلأيـدى لـه مُستَمـطِرا
واكفلوا الأيتـام فيـه واعـلمُـوا أنَّ كـلَّ الصيَّـد فى جَـوْف الفَـرا
أيهـا المُـثْـرى! ألَا تَكْـفُـل مَن بـات محرومًـا يتيـمًا معْسِـرا؟
أنت مـا يُـدريـك لـو أنبتَّـه ربمـا أطْـلَعـتَ بـدرًا نَـيِّـرا
ربمـا أطْلَعـت (سعـدًا) آخـرًا يُحكِمُ الـقـول ويَـرقى المنْبـرا
ربمـا أطـلعـت مـنـه (عَـبْـدَه) مَن حَمَى الـدِّين وزان (الأزهـرا)
ربمـا أطـلعـت مـنـه شـاعـرًا مثـل (شوقى) نـابهًـا بـين الـوَرَى
ربمـا أطـلعـت مـنـه فـارسًـا يدخل الغِيـل على أسْـد الشَّرَى[3]

---

(١) العارفة: العطية والمعروف.
(٢) أنشرت، أى أحيت.
(٣) الغيل: الشجر الكثير الملتف تأوى إليه الأسود، والشرى: مأسدة جانب الفرات يضرب بأسادها المثل.

كم طوى البؤس نفوسًا لو رعَت   منبتًا خصبًا لكانت جَوهرًا
كم قَضَى العُدم على موهبة   فتوارت تحت أطباق الثَّرى

* * *

كلُّ من أحيا يتيما ضائعًا   حَسبه من ربِّه أن يؤْجَرا
إنما تُحْمَد عُقْبَى أمره   مَن لأخراه بدُنياهُ اشترى

جمعية إعانة العُميان

وقال فى سنة ١٩١٦ فى احتفال أقامته جمعية إعانة العميان:

إن حق الضَّرير عند ذوى الأبـ   ـصار حقٌّ مستوجب التَّقْديس
لم يَضِرْه فقْدانُه نُور عينيـ   ـه إذا اعتاض عنهما بأنيس
آنسوا نفسه إذا أظْلم العيْـ   ـش بعلم فالعلم أنس النفوس
وَجِّهوه إلى الفلاح يُفدكم   فوق مايستفيده من دروس
أكملوا نَقْصَه يكن عبقريًّا   مثْل (طه) مُبرِّزًا فى الطُّروس
كم رأينا من أكْمهٍ لايُجارى   وضرير يرجى ليوم عبوس
لم تقف آفة العيون حجازًا   بين وثباته وبين الشموس
عَدِمَ الحِسّ قائدًا فحداه   هَدىً وجدانه إلى المحسوس
مثل هذا إذا تعلم أغنْى   عن كثير وجاءنا بالنفيس
ذاك أنّ الذكاء والحفْظ حَلًّا   فى جوار النُّهى بتلك الرءوس
فعلى كلِّ أكمهٍ وبصير   شكر أعضائكم وشكر الرئيس

المال والعلم والأخلاق

قال سنة ١٩٢١ باسم مصر، قصيدته - مصر تتحدث عن نفسها -:

وارفعوا دولتى على العلم والأخلا   ق فالعلم وحده ليس يجدى

وقال سنة ١٩١٠ من قصيدة له (ص ١٢٦) فى الحث على إعانة مدرسة للبنات ببورسعيد:

كَمْ ذا يُكابدُ عاشقٌ ويلاقى   فى حُبِّ مصْر كثيرةِ العُشّاق
إنِّى لَأحمِلُ فى هَوَاك صبَابَةً   يامِصْرُ قد خَرَجَتْ عن الأطْواق

لَهْفى عليك متى أراك طليقةً ... يَحْمى كريم حِماك شَعْبٌ راقى
كَلِفٌ بمحمود الخِلال مُتَيَّمٌ ... بالبذلِ بين يَدَيْك والإنْفاق
إنِّى لتطربُنى الخِلالُ كريمةً ... طَرَبَ الغريب بأوْبةٍ وتلاقى
وتَهُزُّنى ذكرى المروءة والنَّدى ... بين الشَّمائل هِزَّةَ المشتاق

* * *

فإذا رزقْت خِليقةً محمودةً ... فقد اصطفاك مُقَسِّمُ الأرزاق
فالناس هذا حَظُّه مالٌ وذا ... علْمٌ وذاك مكارم الأخلاق
والمال إنْ لم تدخره مُحَصَّنًا ... بالعلم كان نهايةَ الإمْلاق[١]
والعلم إن لم تكتنفه شمائلٌ ... تُعْليه كان مطيَّة الإخفْاق
لاتحسبنَّ العلم ينفع وحدهُ ... ما لم يُتَوَّجْ ربُّه بخلاق[٢]

فضل المرأة على المجتمع

وقال فى هذه القصيدة ينوه بفضل المرأة فى المجتمع:

من لى بتربية النِّساء؟ فإنها ... فى الشَّرق علَّةُ ذلك الإخفاق
الأمُّ مدْرسةٌ إذا أعددتها ... أعددتَ شَعبًا طيب الأعْراق[٣]
الأمُّ رَوضٌ إن تعهده الحيا[٤] ... بالريِّ أورَق أيما إيراق
الأمُّ أستاذُ الأَساتذة الألى ... شغلت مآثرُهم مدى الآفاق

* * *

أنا لاأقول دعوا النساء سوافرًا ... بين الرجال يَجُلْن فى الأسواق
يَدرُجن حيث أردن لا من وازعٍ ... يحذرن رقْبتَه ولا من واقى
يفعلن أفْعال الرِّجال لواهيا ... عن واجبات نواعس الأحداق
فى دورهن شئونُهُنَّ كَثيرةٌ ... كشئون ربِّ السيف المزراق[٥]

(١) الإملاق: الفقر.
(٢) الخلاق: النصيب من الخير والصلاح.
(٣) الأعراق: الأصول، الواحد عرق.
(٤) الحيا: المطر.
(٥) المزراق: الرمح.

كــلَّا ولاأدعــوكم أن تُســرفــوا — فى الحجْب والتَّضييــق والإرْهــاق
ليْست نســاؤكم حــلِّى وجــواهــرًا — خــوف الضِّياع تصــان فى الأحقاق
ليســت نســاؤكــم أثــاثــًا يُقــتنَى — فى الــدور بــين مخَــادعٍ وطبــاق
تــتشــكَّــل الأزمــان فى أدوارهــا — دُوَلًا وهنَّ عــلى الجمــود بــواقى
فَتــوسَّــطوا فى الحــالتــين وأنصفــوا — فــالشَّــرُّ فى التّقييــد والإطــلاق
ربُّــوا البنــات عــلى الفضيلة إنها — فى المــوقــفــين لهنّ خــيرُ وَثــاق
وعــليكــم أنْ تستبــين بنــاتكــم — نــور الهُدى وعــلى الحيــاءِ البــاقى

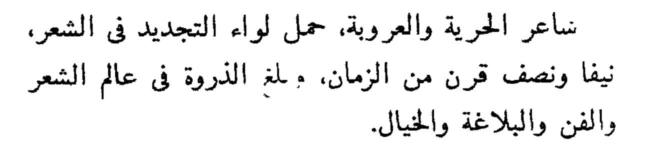
المناصب والفضائل

من قوله فى رثائه لمحمود سامى البارودى:

إنّ المنــاصب فى عــزل وتــوليــة — غــير المــواهب فى ذكــر وتخليــد

ومات حافظ سنة ١٩٣٢ بعد أن خلف لمصر والشرق ذخيرة من الوطنية وكنوزا من الشعر والحكمة والأخلاق لا تفنى ولا تنفد على مر الزمان.

خليل مطران
شاعر الحرية
١٨٧٢ - ١٩٤٩



شاعر الحرية والعروبة، حمل لواء التجديد فى الشعر، نيفا ونصف قرن من الزمان، وبلغ الذروة فى عالم الشعر والفن والبلاغة والخيال.

ولد سنة ١٨٧٢ فى بعلبك إحدى المدن الشهيرة بلبنان، ونشأ نزاعا إلى الحرية سمح النفس، كريم الخلق، صفى السريرة، محبًا للخير، وديعًا فى شمم وإباء، معتزًا بكرامته، عيوقا عن الصغائر.

ضاق صدرا منذ صباه بجوّ يضغط على حرية الرأى والفكر، فارتحل إلى باريس يتمم فيها دراسته وعلومه، وهناك ارتوى من مناهل الآداب الغربية، وإذ كانت شاعريته وليدة فطرته وسليقته، فقد اتجهت نفسه بتأثير الأدب الفرنسى إلى التجديد فى شعره، فجمع بين البلاغة العربية والأساليب والمعانى الأوروبية.

ثم هاجر إلى مصر، واتخذها موطنه الثانى، بل موطنه المختار.

أخلص لها، وغرّد فى أكنافها، وتعشق نيلها وأرضها وسماءها، وهو ثالث الثلاثة الذين عاشوا معا وانتهت إليهم زعامة الشعر فى العصر الحديث: شوقى وحافظ ومطران.

ألهمه حب الحرية نظم القصائد الرائعة فى تمجيدها والذود عنها، والجهاد فى سبيلها، فكان من أعلامها الخالدين.

كان إنسانا فى شخصه وفى أخلاقه وفى شعره وأدبه.

كان فى شعره ينشد الكمال، ويحلّق فى أجواء الحرية والوطنية.

كان يستلهم شعره من المثل العليا، وفى ذلك يقول عن نفسه فى الاحتفال بيوبيله الذهبى سنة ١٩٤٨.

كان فى الشعر لى مرامٌ خطير — فعَدَا طوقِىَ المَرامُ الخطيرُ
هائم فى الوجود أسأله الوحـ — ـى كما يسأل الغنىَّ الفقيرُ
أكبرونى ولست أكبر نفسى — أنا فى الفن مستفيد صغير
لا يَضِقْ صدرُ شاعر بأخيه — يكره الفضلُ أن تضيق الصدور
والسماوات لو تأملتَ فيها — ليس تُحصَى شموسُها والبدورُ
كل جرم يعلو ويصبح نجما — فله حيِّزٌ وفيه بدور
والنجوم التى تلوح وتخْفَى — رَبَوَاتٌ وما يضيق الأثير

وبهذه الروح العالية، والنفس الصافية، والود الخالص، والإيثار والأريحية، عاش محبوبًا من معاصريه: يحبهم ويحبونه، وينشد لهم الخير والكمال.

وقد أرخ فى شعره الوطنى العذب مراحل النهضة المصرية والشرقية، وسجل حوادثها ووقائعها، وترجم لرجالها وأشخاصها، وغذى بقصائده الروح الوطنية جيلا بعد جيل.

يمتاز شعره بسعة الخيال وجمال التصوير وبلاغة التعبير، هذا إلى اقتباسه من آداب اللغة الفرنسية التى درسها وتمكن منها تمكنه من آداب اللغ العربية، فجمع بين الثقافة العربية والثقافة الأوروبية، وهو زعيم مدرسة التجديد فى الشعر العربى، وسار على نهجه تلاميذه ومريدوه.

وقد عبر أبلغ تعبير وأرقَّه عن منهج التجديد فى شعره، بقوله فى مقدمة الطبعة الثانية لديوانه سنة ١٩٤٨ قال:

«هذا شعرى، وفيه كل شعورى، هو شعر الحياة والحقيقة والخيال، نظمته فى مختلف الآونة التى تخليت فيها عن العمل لرزقى، نظمته مصبحًا وممسيًا، منفردًا ومتحدثًا مع عشرائى، وقيدت فيه زفراتى وأحلامى، وسجلت بقوافيه أحداث زمانى وبيئتى فى دقة واستيفاء.

«أتابع السابقين فى الاحتفاظ بأصول اللغة، وعدمم لتفريط فيها، واستيحاء الفطرة الصحيحة، وأتوسع فى مذاهب البيان مجاراة لما اقتضاه العصر، كما فعل العرب من قبلى، أما الأمنية الكبرى التى كانت تجيش بى، فهى أن أدخل كل جديد فى شعرنا العربى بحيث لا ينكره، وأن أستطيع إقناع الجامدين بأن لغتنا أم اللغات إذا حفظت وخدمت حق خدمتها، ففيها ضروب الكفاية لتجارى كل لغة قديمة وحديثة فى التعبير عن الدقائق والجلائل من أغراض الفنون، وإنى لأرجو أن يرى المطلعون على هذا الجزء الثانى وما يليه من أجزاء (ديوان الخليل) مصداقًا لدعواى».

وقال عنه صنوه وصديقه حافظ يشيد بنزعته فى التجديد:

«هو فى طليعة أولئك الذين خرجوا من أفق التقليد وصدعوا قيود التقييد، وأوسعوا صدر الشعر العربى للخيال الأعجمى، وأفسحوا فيه للقصص وتصوير الحوادث، وطوَّفوا بسرد وقائع التاريخ، ففتح بذلك فتحا جديدًا شنَّ فيه الغارة على أهل الحفاظ والتمسيك».

وكان من أركان المسرح العربى بما كتب لهذا المسرح وعرَّب، فقد ترجم ليالى الفريد دى موسيه، ورواية هرنانى لفكتور هيجو، كما ترجم لكورنيل مسرحيات (السيد) وسينا وبوليكت، وترجم روايات شكسبير: هاملت، ومكبث، وعطيل، وتاجر البندقية.

النهضة العربية

قال سنة ١٩٠٨ يحيى نهضة الشعوب العربية:

داعٍ إلى العهد الجديد دعاكِ	فاستأنفى فى الخافقين عُلاكِ
يا أُمَّة العرب التى هى أُمُّنا	أىُّ الفَخار نَمَيْتِه ونَماك؟
يمْضى الزمان وتنقضى أحداثه	وهواك منَّا فى القلوب هواك
إنَّا نقاضى الدهر فى أحسابنا	بالرأى لا بالصَّارم الفتَّاك
ومِلاكُ شيمتنا الوفا فإنَّه	لسعادة الأقوام خير مِلاك
آمالنا آلامنا أرْواحنا	أشْباحنا يوْم الفدَاء فداك
بالعلم ننْشُرُ ما انطوى من مجدنا	وبه نزكِّى فى الوَرى ذكراك

مطران ومصطفى كامل

كان بينه وبين الزعيم مصطفى كامل صداقة وود داما طول العمر، كان مؤيدا لدعوته نصيرًا لرسالته، دافع عنها فى حياة مصطفى، وظل وفيا لها بعد وفاته، ويبدو مبلغ إعجابه به وتقديره لعبقريته فى قصيدته التى أنشدها سنة ١٩٠٨ فى حفلة الأربعين لوفاته، وقد نشرها فى ديوانه وصدرها فى طبعته الأولى بهذه الكلمة التى تعد فى ذاتها قصيدة من النثر المنظوم، قال: «مصاب الشرق فى رجله المفرد، وبطله الأوحد، مصطفى باشا كامل، أيتها الروح العزيزة! إن فى هذا الديوان الذى اختتمه برثائك، نفحات من نفحاتك، ودعوات من دعائك، فإلى هيكلك المدفون بالتكريم تحية الأخ المخلص للأخ الحميم، ووداع المجاهد المتطوِّع للقائد العظيم».

وجعل عنوان القصيدة (حق الوطن وحق الإخاء) قال:

أعلى مكانتك الإلهُ وشرَّفا ... فانعم بطيب جواره يا(مصطفى)
اليوم فُزت بأجر ما أسلفتهُ ... خيرًا، وكلٌّ واجدٌ ما أسلفا
وجزيت من فانى الوجود بخالد ... ومن الأسى الماضى بمقتبل الصفا

***

أعظمْ بيومك فى الزمان ومن له ... بك واصفًا ذاك الجلال فيوصَفا
حيث الوفود من الملائك أقبلوا ... حافّين حولك فى السرير وعُكّفا
وتحمَّلوك على الأشعَّة وارتقوا ... سربًا يجوز بكَ الدرارى موجفا
فوردت وِرْدك فى الخلود منعَّما ... والأرضُ مائدةٌ عليك تأسّفا
لم تُلْف قبلك أمَّةً فى مشهد ... يذرو الرجالُ به المدامع ذُرَّفا
يمشون من حول الجنازة ضائقًا ... بهم الرحيبُ من المسالك مصرفا
متثاقلين من الوقار وإنما ... ساروا بطيفٍ ناحلٍ أو أنحفا
بحرٌ من الأحياء نعشُك فوقه ... فُلْكٌ يظِّلله اللواء مرفوفا
يبكون فى آثاره العَلَم الذى ... آثَارُهُ من رفعةٍ لا تُقْتفى

***

سَعَت الخوادِرُ حاسراتٍ والأسى ... مُلْقٍ على الأبصار سِتْرا أغدفا
ولئن سفرن ولم يخَلْنَ فإنه ... خطبٌ ألانَ بروْعه صُمَّ الصفا
فزِع الشبابُ إلى الشيوخ بثأرهم ... من دمعهم إن خانهم متكفكفا
ومن الغضاضة أن دعا داعى العلا ... بعد الفقيد فتًى بهم فتوقفا
جزع النصارى واليهود لمسلم ... هو خير من والى وأوفى من وفى
بكَوا المرجَّى فى خلافٍ عارضٍ ... ليزيل ذاك العارض المتكشفا
واشتد رُزْءُ المسلمين وحزنهم ... لما مضيتَ ولست فيهم مُخْلِفا

***

مَن بَعْدَ كاتبهم وبَعدَ خطيبهم ... يُعلى لهم صوتًا وينشرُ مصحفا ؟
من يبرىء الإسلامَ من تُهم العِدى ... ويردّ نقد الناقدين مزيَّفا ؟
يُبدى لأعين جاهِليه فضلَهُ ... ويزيلُ ما يلدُ التناكرُ من جفا

ويثير من غضب الغضاب لمجده ... همًّا تعيد له المقام الأشرفا
لكنَّ من أقلام جندك حوله ... سُمرًا تهزُّ لكل خطبٍ معطفا
ولعل حُرًّا لا يدين به انبرى ... ليذودَ عنه خصمهُ المتعسفا
قِفْ أيها الناعى عليه جمودَهُ ... فلقد تجاوزت الهدى متفلسفا
إن يَعترِ الشمس الكُسوفُ هنيهةً ... أيكون منقصةً لها أن تُكسفا ؟
وهل الكسوف سوى تَعرض حائل ... يثنى أشعتها إلى أن يُكْشفَا
لم تنزل الأديان إلا هاديا ... للعالمين ورادعًا ومثقِّفا
بشعارِ حيَّ على الفلاح وما بها ... أن قصر الأقوامُ عنه فأخلفا
وبكل أمر موجبٍ إصلاحهم ... أن خالفوه فما استحال ولا انتفى
قد كان للإسلام عهدٌ باهرٌ ... نلنا به هذا الرّقىّ مُسَلّفا
ملأ البلاد إنارةً وحضارةً ... ومُنَى السماحةِ عودُهُ مستأنفا
فالخيرُ كلُّ الخير فيه مقبلاً ... والشرُّ كل الشر أن يتخلفا
يدعو البقاءُ إلى التكافؤ بالقوى ... بين العناصر أو يهينَ ويضفعا
والخلق جسمٌ إن ألمَّ ببعضه ... سَقمٌ ولم يُتلافَ عَمَّ وأتلفا
بشرى البريةِ بعد مُزْمِن دائها ... بسلامة الإسلام وهى لها شِفَا
إن أغضبت تلك السلامة جائرًا ... أرضت خبيرًا بالحياة ومنصفا
يا من نهضتَ بنصرهِ وأبنتَه ... حقَّ الإبانة هل تبالى مرجفا ؟
مازلتَ فى مصر تقيم منارَه ... حتى أنارَ الكونَ منها مُشْرِفا

* * *

مصر العزيزة قد ذكرتُ لكَ اسمها ... وأرى ترابَكَ من حنين قد هَفَا
وكأننى بالقبر أصبح مِنبرًا ... وكأننى بك مُوشكٌ أن تهتفا
مصرُ التى لم تحظَ من نجبائها ... بأعزَّ منك ولم تعزَّ بأحصفا
مصرُ التى لم تبغ إلا نفعَها ... فى الحالتين ملاينًا ومعنِّفا
مصرُ التى غسلت يداك جِراحَها ... بصبيب دمعك جاريًا مستنزفا
مصرُ التى كافحتَ لدَّ عُداتها ... متصدرًا لرماتها مستهدفا
مصرُ التى سُقتَ الجيوش مناقبا ... ومُنًى لتكفيها المُغير المجحفا

مصرُ التى أحببتها الحبَّ الذى ... بلغ الفداء نزاهةً وتعففا
حتى مضيتَ كما ابتغيتَ مؤلِّفا ... من شملها ما لم يكن ليؤلَّفا
أمنيةٌ أعييتْ خلالك دونها ... لو لم يضافرُها رداك فُيسعِفا
وهى التى لو قُسِّمت لَنمَا بها ... شعبٌ يعزّ بنفسه مستنصفا

* * *

من كان أجرأ منك يوم كريهةٍ ... بالحق لاشكسًا ولامتصلفا
من كان أقدرَ منك تصريفًا لما ... يُعيى الحكِيمَ مدبِّرًا ومصرِّفا
من كان أطهرَ منك خُلْقًا جامعا ... فيه مهيب الطبع والمستظرَفا
من كان أزهد منك إلا فى الذى ... يُجدِى البلادَ فتبتغيه مُلْحفا
من كان أسمعَ منك منَّاعًا لما ... تهوى ومعطاءً لغيرك مُسرفا
من كان أصدق منكَ لامتنصلاً ... مما تقولُ ولا تعاهدُ مُخِلفا

* * *

لهفى على فخر الصِبى هادى النهى ... عالى اللواء حمى المروءة والوفا
يا من نعى تلك الفضائلَ والعلى ... أغدت معالمهنّ قاعًا صفصفا
لالا وحقك يا شهيدَ وفائه ... ورجائه كذبَ النعىُّ وأرجفا
ما أنتَ بالرجل الذى يمسى وقد ... ملء الوجودُ به ويصبح قد عَفَا
إنى أراك ولا تزال كعهدنا ... بك فى جهادك أو أشد وأشعفا
ثابرْ على تلك العزائم ذائدًا ... عن مصر تضربُ فى البلاد مطوِّفا
أصدر صحائفك التى تحيى بها ... بضْوَ الطريق وتدفع المتخلفا
تجرى بها الأنهارُ وهى دوافقٌ ... همًا وتوشك أن تَطمَّ فتجرفا
وتكاد أسطُرها تهبُّ نواطقًا ... ويكاد يعزِفُ كلُّ حرف مَعْزفا
فإذا حنوتَ على الحمى متحببًا ... فهو النسيم وقد ذكا وتلطفا
وكأنما الألفاظ مما خَفَّفتْ ... نَقشَ المدادُ رسومَها وتخففا
تُستام من أثوابها أرواحهُا ... وتعاف تحلية لئلَّا تكشفا
قمْ للخطابة فى المجامع وامتلك ... تلك النفوس مروّعا ومشنفا
أعد القديم من الممالك والقرى ... ذكرى وعرِّفنا الحياة لنعرفا

شـدِّدْ عـزائمنـا وقـاتـلْ ضعفنـا حـتى نَبـيتَ ولا نـرى مـتـخـوِّفـا
مـا هـذه الآيـاتُ يَـرْمى لفـظُهـا شـررًا وتهـوى الشهبُ فيهـا أحـرفـا
مـا ذلـك التـرصيعُ ليس مـرصَّعًـا مـا ذلـك التفـويفُ ليس مفـوَّفـا
وحـيٌّ بـأهـجيـةٍ إذ مـا أطْلَقتْ هبـطت رواسبَ عنـه والمغـزى طَفـا
تُحيى حـرارتُهـا ويَهْـدِى نـورُهـا متمـاهِـلَ الإشـراق أو متخـطِّفـا
تـالله مـا أنـت الخـطيـبُ وإنمـا وقَفَ القضـاءُ من المنصّـة مـوقِفـا
عَن نـطقـهِ تقـعُ الصـروف مـواعـظًا وكـأمـره أمـرُ الـزمـان مصـرَّفـا

* * *

يـا حبـذا لـو كـلُّ ذلـك لم يَـزَلْ لكنـه حُـلمٌ مضـى مسـتـطرَفـا
والآن نحن لـدى ثـراك نحجّـه متلهـبـين تشـوقـا وتـشـوفـا
نُثنى وهـل يـوفَى ثنـاؤك حقّـه وبـأى ألفـاظ المحـامـد يُكتفَى
مـاذا يُعيضك من شبـابـك نـظْمُنـا فيـكَ الـرثـاءَ منسَّقـا ومصفَّفـا
ويُعيض منك وكنت جوهـرة الحمى صـوغُ الكلام مـرصَّعًا ومـزخـرفـا

* * *

يـا أخلص الخلصـاء أبكى بُعـدَه كبكـاء مصـر تحـرّقـا وتلهفـا
هـذا مثـالُـك لاحَ يـرعـانـا وقـد كشف الجوى عنه الحجاب فأشرفا
جـاد الهـلال بـرسمـه تـاجًـا لـه وكستـهُ ناسجـةُ الطهـارة مُـطرَفـا
يـا من رمـاه عُـداتُـه بتـطـرف حققت آمـال الهُـدى متـطرفـا
كهـواك لـلأوطـان فليكن الهـوى لامـفتـرى فيـه ولا متـكـلِّفـا
يجـرى عـلى قَـدر المـطالب تـاميـا ويَجِـلُّ فى مجـراهُ عن أن يَصْـدِفـا
أنشـأتَ من مصـرَ الشتـاتِ بفضله مصـرَ الفتـاةَ حِمى يُعـز ومـألفـا
أحـدثت فيهـا أمـةً أنـدى يـدًا للصـالحـات وبـالعـظائم أكلفـا
عـرَّفتَ أهليهـا حقيقـةَ قـدرِهم وكفـاهُم من قـدرهم أن يُعـرَفـا
نفحـاتُ روحك خـامرت أرواحَهم فهم مـرامُـك سـاءَ دهـرٌ أو صفـا
حِصْنٌ أشـمُّ تسـانـدت أجـزاؤه عِـلمًا وأمَّنـه الـنُّهى أن يُـنسـفَـا

فـارقُـدْ رقـادَك إن ربـك قـد محـا　　بك ذَنْبَ مصر كما رجوتَ وقدْ عفا

وله فى سنة ١٩٣٣ قصيدة عصماء ألقاها لمناسبة مرور عام على وفاة حافظ إبراهيم، ضمنها وصفًا رائعًا للنهضة القومية التى كونت حافظا، وجعلته الشاعر المطبوع المترجم عن آمالها وآلامها، وكيف أن هذه النهضة هى غرس مصطفى كامل، وكيف تعهدها بجهاده إلى أن مات، وبموته كانت الآية التى تم بها استقرارها، قال فيها:

طـرأتْ حـالـةٌ تيقَّظ فيهـا　　لدعاة الهدى ضمير السواد[1]

فإذا (حافظ) وقد بثَّ ما فى　　نـفسـه مـن تجهّـم واربـداد

وبـدا للمنى الجـلائـلِ فيهـا　　أفقٌ واسـع المـدى لارتيـاد

مـا تجَـلى نبـوغُـه كتجلّيـه　　وقـد هبَّ (مصـطفى) للجهـاد

يوم نادى الفتى العظيم فلبَّى　　من نَبا[2] قبلَه بصوت المنادى

وَوَرىَ[3] ذلك الشعور الذى كا　　ن كمينًا كالنـار تحت الرمـاد

فتـأتَّى بعد القنـوط الدَّجُـوجـ　　ـىّ[4] رجـاءٌ للشاعـر المجواد

مس منه السوادَ فانبجست نا　　ر ونور من طىِّ ذاك السواد

أكـبر الـدهـرُ وثبـةً وثبتهـا　　مصـرُ مفتكّـة من الأصفـاد

وثُغـاءُ[5] غدا هـزيمًا[6] فـألقى　　رُعبـه فى مـرابض الآسـاد

ما الذى أخرج الشجاعة من حيـ　　ـث طـوتها قـرونُ الاستبـداد

وجَـلا غُرة الصـلاح فـلاحت　　تـزدهى من غيـاهب الإفسـاد

فـإذا أمـةٌ أبـيـةُ ضـيـم　　مـالها غـير حقهـا من عَتـاد

نهضت فجـأة تنـافـح فى آ　　نٍ عـدوّين أسرفـا فى اللداد

أجنبيًـا ألقى المـراسىَ حتى　　تقلع الـراسيـاتُ فى الأطـواد

وهـوانًـا كـأنما طبـع الشعـبَ عـليـه تقـادمُ الإخـلاد

حلبـة يُعـذرُ المقصِّـر فيهـا　　والخـواتيم رَهن تلك المبـادى

ليس تغيـيرُ ما بقـوم يسيـرًا　　كيف مـا عُـودوه من آمـاد؟

غـير أن الإيمان كـان حليفًـا　　لـقلوب الـطليعـة الأنـجـاد

---

(١) يريد الجمهور.

(٢) نبا: جافى وتباعد.

(٣) ورى الزند: خرجت ناره.

(٤) المظلم.

(٥) الثغاء: صوت الشاة والمعز.

(٦) الهزيم: صوت الرعد.

فاستعانوا به على ما ابتغوه غير باغين من بعيد المراد

إلى أن قال:

بعد وثْبٍ فى إثر وثْبٍ عنيف وارتدادٍ فى الشوط غِبَّ ارتداد
ساور الأمة التردُّدُ والتا ث[1] عليها فى السير وجهُ الرشاد
لا تسل يومذاك عن جلد القا دة فى مُلتقى الخطوب الشداد
كلما ازدادت الصعاب أبْـوا إ لّا كفاحا وعزمُهم فى ازدياد
يبذلون القوى وفوق القوى غيـر مبالين أنها لنفاد
و (الزعيمُ الأبرُّ) أطبيهم نفسـ ـًا عن النفس صراع العوادى
هل ينجى شعبًا من اليأس إلا حَـدَث من خوارق المعتاد
مصطفى مصطفى بحسبك إن يذ كرْ فداءٌ أن كنتَ أول فاد
مصطفى مصطفى ليهنئك أن أحـ ـييت قومًا بذاك الاستشهاد
دب فيهم روحٌ جديد له ما بعدَه فى القلوب والأخلاد[2]
تنقضى الحادثات بعدك والرُّو ح مقيمٌ فيهم على الآباد
كادَ يومٌ شيعتَ فيه يريهم لمحةً من جلال يوم المعاد
صدروا عنه بالتعارف فيما بينهم وهو قوة الأعداد
واستشفوا لبأسهم فيه سرا كم تحامى أن يدركوه الأعادى
هذه مصر الفتية هبَّتْ فى صفوفٍ فتيَّةٍ للذياد
رجل مات مُخلفًا منه جيلًا رابط الجأش غير سهل المقاد
عهد نور من الحفاظ ونار بعد طول الخمود والإخماد
تخذت عبقرية الشعر فيه سلمًا للعروج والإصعاد
أبلغت (حافظًا) من الحظ أوجًا زاد منه العَلياء كل مراد

إزاحة الستار عن تمثال مصطفى كامل

وله فى سنة ١٩٤٠ قصيدة عن مصطفى كامل نظمها لمناسبة إزاحة الستار عن تمثاله بعد ظل حبيسا فى «مدرسة مصطفى كامل» من سنة ١٩١٤. قال:

---

(١) التاث عليه الأمر: اختلط والتبس.
(٢) الأخلاد: العقول.

أمنـوا بموتـك صولـة الرئبـال ... ماذا خشوا من فتنة التمثال؟
حبسوه عن مقل إليه مشوقة ... فاضت أسى ودموعهن غـوال
حتى أرادت مصر غير مرادهم ... وجـلاء من أوفى بنيها جـال
أتُهيِّىء استقلالَ قومك جاهـدًا ... وتُـذادَ عنهم يوم الاستقـلال؟
أنصفت بعض الشيء بل هى توبة ... فى بـدئهـا ولكـل بـدء تـال
فلقد تئوب وجد غيرك عاثر ... فيما ادعى صلفا وجـدك عال
يا حسن عودك والكنانة حـرة ... تلقـاك بـالإكـرام والإجـلال
أيروعك الحشد الذى بك يحتفى ... من غُـرٍّ فتيانٍ وصيـد رجال
ماذا بثثت من الحياة جـديدة ... فى هــذه الآســاد والأشبــال
بعث لـموطنك العـزيز رجوتَه ... وسـواك يحسبـه رجـاء محـال
خاطرت فيه بالشبـاب وبذلـه ... سـرف لمطلوب بعيـد نـوال

* * *

أى مصطفى! ولت سنونٌ وما اشتفى ... شوقى إليك فهن جـد طوال
عجب بقائى بعد أكـرم رفقة ... زالوا ولم يشأ القضـاء زوالى
هم صفـوة الدنيـا وكانـوا صفـوهـا ... فـأحق حىٍّ بـالأسى أمثـالى
حـــزن بعيـد الغـــور فى قلبى فـــإن ... وجب الرثاء فـإنما يُـرثى لى
مـاذا أقـول وهـذه أسمـاؤهم ... وشخوصهم ملء الزمان حيالى
تعتادنى فى مسمعى أو ناظرى ... وإلى يَميـنى تـارة وشـمـالى
إنى لأحفظ عهـدهم وأصونـه ... فى كـل حادثـة ولست بـآل
وكأن حسى حسهم فرحا بما ... يقضى الحمى من حقهم ويوالى
كم فى مغـارسهم جنى ألفيته ... متجـددا بتعـاقـب الأحـوال
سلوى أتـاحتها مـآثرهم وقـد ... يغدو الفراق بها شبيه وصـال
وكذاك مجد العبقـرية والفـدى ... لا ينقضى بتحـول الأحـوال

* * *

أى مصطفى ما كنت إلّا كاملا ... لو كان يتصف امـرؤ بكمال
ماذا لقيت من الصبى ونعيمه ... غـير المكـاره فيـه والأهـوال
إنى شهدت شهادة العينين ما ... عـانيت فى الغدوات والآصال
متطوعا تسخو بما يفنىٰ القوى ... من جهـد أيام وسهـد ليـالى

إذ قمت بالأمر الجسام ولم يكن ... فيمن أهبت بهم مجيب سؤال
حال التورع دون إغراء المنى ... زمنا نما من مسعد وموال
والقوم فى ظمأ ووعدك مطمع ... لكن يرونٍ له رفيف الآل
تسعى ويعترض السبيل قنوطهم ... فى كل حِلٍ منك أو ترحال
فتظل تضرب فى جوانبه وما ... تلقى إلى نظر الحبوط ببال
لك دون ما تبغى مضاء مصمم ... لا ينثنى وبلاء غير مبال
حتى إذا وضح اليقين وصدقت ... دعواك آية ربك المتعالى
فثويت أظهر ما تكون على عدى ... مصر بعقبى دائك المغتال

* * *

هزت منيتك البلاد ولم تكن ... بأشد منها هزة الزلزال
فالقومُ من جزع عليك كأنهم ... آل وقد رزئوا عزيز الآل
كشف الأسي لهم الحجاب فأيقنوا ... أن الحياة مطالب ومعال
وتبينوا أن الخنوع مهانة ... لا يستطال بها مدى الآجال
لله حسن بلائهم لما أبوا ... متضافرين دوام تلك الحال
وتوثبوا بعزيمة مصدوقة ... برئت من الأحقاد والأوجال
يردون حوضا والمنايا دونه ... مستبسلين ضروب الاستبسال
حتى أتيح الفتح يجلو حسنه ... فى يومه إحسان يوم خال
فتح بدا اسمك وهو فى عنوانه ... متخضبا بدم الشباب الغالى
إيها شديد الحب للبلد الذى ... لا أنت ساليه ولا هو سال
أبهج بأوبتك السنية طالعا ... فى أفقه كالكوكب المتلالى
للذكر آفاق سحيقات المدى ... ولزهرها المتألقات مجال
فإذا دنت منا فتلك عوالم ... وإذا نأت عنا فتلك لآلى
تطوى من الأدهار مالا ينقضى ... وتجول فى الأفكار كل مجال
أنوار وجهك طالعتنا اليوم من ... برج حللت به لغير زيال
قد أثبتتها مصر بين عيونها ... فالحال متصل بالاستقبال
نعم الثواب لذى مآثر فى الفدى ... فرضت محبته على الأجيال

* * *

فتيان مصر وعهدها غير الذى ... عانته فى الأصفاد والأغلال

حيوا مديل حياتها من يأسها ومــذلــل الآلام لــلآمــال
حيوا زعيم اليقظة الأولى بها وخطيب تورتهـا فى الاستهلال
هـذى مواكبهـا وتلك وفودهـا فى ملتقى ذى روعـة وجمـال
حفلت بـرمز نهوضهـا ومثالـه مـالا تدانى صنعـة المثـال
لكنهـا مهـج بنتـه ولم تكن إلا ذرائعهـا فضـول المـال
وكفاه فخرا أن ذاك المال لم يك مكس جاب أو تطول وال
رسم يلوح وفيــه معنى أصله فيــروع بـين حقيقــة وخيـال
لان الحديد لـه فصاغ لعينـه أثـرًا على الأيـام ليس يبـال
كم فى بليغ سكوته من عبرة أوفى وأكفى من فصيـح مقال
هو خالد ويظل مـدره قومـه فى كـل نازلـة وكـل نضـال

تحيته للمجاهدين فى المؤتمر الوطنى ببروكسل سنة ١٩١٠

ونظم فى سنة ١٩١٠ قصيدة ناجى فيها الوطنيين الأحرار الذين اغتربوا عن مصر لحضور المؤتمر الوطنى الذى عقد برآسة المرحوم محمد فريد بمدينة بروكسل فى سبتمبر سنة ١٩١٠. قال:

أتـراه فـوق منـاكب الأدهـار شفقٌ تخلَّفَ عن بديع نهار[١]
حقبٌ دَجَت منها السُّفوح ولم يزل فوق الذرى منها بريقُ نضار[٢]
يا مغرب الماضى أما من آية فتعود فى سَحَر من الأسحار؟
هـذا صباحٌ مقبـل من غيبـه فتبيَّنُــوه يــا أولى الأبصــار
تجد العُيون على نواصى أفقه ضـواءًا تألَّق من وراء ستـار
سَحَر الرجاء بدا لكم وإزاءَهُ شفق البقية من عُلًا وفخار[٣]
شقان من حَلى أغرَّ تصوغـه تـاجًا لمصـر أنامـلُ المقـدار[٤]

(١) يشير إلى ذكرى المجد القديم وأنها باقية على الدهر ويعبر عنها بالشفق، أى النور المتخلف عن الشمس بعد غروبها.
(٢) الحقب السنون. ودجا أظلم. الذرى؛ جمع ذروة، أعلى الشىء. والنضار الذهب. أى أن عهود التأخر قد تركت ظلامًا مخيما على البلاد. ومع ذلك لا يزال فوق الذرى نور الشمس التى غربت.
(٣) أى يتجلى فجر الأمل وأمامه الذكرى الساطعة للمجد القديم.
(٤) الحلى وجمعه حلى ما يصنع من مصوغ المعدنيات، أو الحجارة الكريمة والمقدار هو القدر، يريد أن مجد الماضى والمجد المأمول للمستقبل يتقابلان كشقى تاج لمصر.

تـــاجٌ ستلبسـه الفتـــاة مخلَّفـا   عن أمها فى سالف الأعصـار
ويكـون من آيـاتـه وشُعـاعـه   آيـات مجـد رجـالها الأخيـار

* * *

نجبـاءَ مصر الـواترين لِعـزها   وجـلالها من ذلـــة وصغـار[١]
خوضوا غمار الضيم دون رجائكم   لا فوز إلَّا بعد خوض غمار
ما شاء سعْدُ الدار أن تشقَوْا له   فاشقَوْا له ما شاء سعد الدار
إن شَقَّ ترحالٌ فهذى هجرةٌ   لا شُقـةٌ[٢] فى مثلهـا فبـــدار
سيروا تتموا فى الحياة فطالما   كـان التقـاعس مؤذنـا ببـوار
ما اللُّجُّ وادَعَ أو تشاكسَ حارِنًا   إلا ذلـول الراكب الكـرار[٣]
ما البَرُّ أنجد أو أغار بجائب   إلا سليب خطًى ونَهْبُ قطار[٤]

* * *

ركبَ النجاة استطلعوا لبلادكم   فى الغرب كل مطالع الأنوار
هُـزوا منابِـرَه بعـالى صـوتكم   حتى يـرنّ صداه فى الأقـطار
أنتم جنود السِّلْم رُسُل جهاده   أنتم أشعَّة مصر فى الأمصـار
أنتم أشعَّـة حـزمهـا شَفَّـافـــةً   عن حـزنها والنورُ بَثُّ النـار
ترجون أن تحيوا وتحيا مصركم   حق الحياة وما بها من عار
لا تسـأمون تغـربا فى مبتغى   أسمى الهنات وأشرف الأوطار

* * *

الحكم شورى لا تفرُّد صالحٌ   فى غير حكم الواحد القهار
لا تسترقُّ عشيرةٌ وديـارُها   لعشيـــرة غـــلَّابـــةٍ وديـــار

---

(١) يخاطب ركب المؤتمر وأعضاءه. ويصفهم بأنهم ذاهبون ليثأروا لمصر مما أصابها من ذلة وضيم.
(٢) الشقة: السفر البعيد.
(٣) لجج البحر أمواجه. أى ليس البحر إن سهل أو صعب إلا كالركوبة الذلول للفارس الذى يروضها.
(٤) الجائب المسافر.

العدل إن يُقصَد فليس بكائن ... فى نُكْر معرفة وغصب جوار
الرأى تكمَد شمسُه فى موطنٍ ... متناقض الإعلان والإسرار
الخير تُفقد سُبله فى مجمع ... متعارض الإقبال والإدبارِ

* * *

ماذا عليكم أن تكون شعاركم ... هذى المطالبُ وهى خير شعار
لستم بسفاكى دم، لستم إلى ... غير الحقيقة طامحى الأنظار
لستم غلاة، والأقل مرامكم ... بين الشعوب السُّبَّق الأحرار
لستم غلاة، خال ذلك منكم ... من لم يخلكم من ذوى الأخطار[١]
ليس الذى تبغونه من مطلب ... إلا أحقَّ مطالب الأحرار
من لم يخل فى مصر عبدًا شاكيًا ... فى فترة التفكير والإضمار
أجزِعْ بسارٍ آمنٍ فى معهد ... وثبتْ عليه فجاءةُ التزآر[٢]

* * *

إنى ليعجبنى كبيرُ مرامكم ... وهو الحقيق بغاية الإكبار
وأقول للمزرى بسنٍّ صغاركم ... ليس العظيمُ نفوسُهم بصغار
أمهاجرى أرض الكنانة إنكم ... وجميعُ من فيها من الأنصار[٣]
إمضوا دعاةً للهدى واستنصفوا ... بالحق للبلد العزيز الجار
كونوا الشهود له على أعدائه ... برجوع شمسِ نهاره المتوارى

الثبات فى الكفاح

وقال لما زاد اضطهاد الحكومة للأحرار وسلطت قانون المطبوعات على الصحف:

شَرِّدُوا أَخْيارَها بَحْرًا وبَرًّا ... واقْتُلوا أَحْرارها حُرًّا فَحُرًّا

---

(١) أى لستم غلاة كما توهم ذلك من ظن أنكم لستم من ذوى الكفايات والأقدار.

(٢) أجزع: أى ما أشد جزع. والفجاءه مصدر فجأة. والتزآر زئير الأسد. يريد أن الإنجليز فوجئوا بالحركة الوطنية فى ذلك العهد، كما يفاجأ السارى بزئير الأسد.

(٣) يسعى أعضاء المؤتمر المهاجرين. وسكان مصر الأنصار، تشبيها لهم بالمهاجرين والأنصار فى صدر الإسلام.

إنَّما الصَّالحُ يَبْقىَ صالحًا آخِرَ الدَّهرْ ويبقي الشَّر شَرًّا
كسِّروا الأقلام هَلْ تكْسيرُها يمْنعُ الأيْدِىَ أنْ تَنْقُش صَخْرا
قَطِّعوا الأيدىَ هل تقطيعُها يمنع الأقدامِ أن تركب بحرا
حَطِّموا الأقدام هل تحطيمها يمنع الأعْيُنَ أن تنظر شَزْرا
أطْفِئوا الأعْيُنَ هل إطْفاؤُها يمنع الأنْفاسَ أنْ تَصْعَدَ زَفْرًا؟
أخْمِدوا الأنْفاس، هذا جُهْدُكم وبِه مَنْجاتُنا مِنْكُمْ... فَشُكْرًا!

وقال فى هذا المعنى حين توعدته الحكومة بالنفى من مصر على أثره نشره الأبيات السابقة:

أنا لا أخافُ ولا أرَجَّى فَرَسى مُؤَهَّبةٌ وسَرْجى
فإذا نَبا بِىَ مَتْنُ بَرٍّ فالمَطِيةُ بَطْنُ لُجٍّ
لا قولَ غيرِ الحقِّ لى قَوْلٌ وهذا النَهْجُ نَهْجى
ألوعدُ والإبعادُ ما كانا لَدَىَّ طريقَ فُلْجِ[1]

يحيى رأس السنة الهجرية

ونظم سنة ١٩١١ قصيدة عصماء حيًّا بها العام الهجرى (١٣٢٩)، خاطب فيها شباب مصر ودعاهم إلى الاعتبار بما فى هجرة الرسول الكريم من المعانى الجليلة، والأغراض السامية. وأهاب بهم أن يضاعفوا جهودهم لبعث الحياة فى مصر والشرق. قال:

هَلَّ الهلال فَحَيُّوا طالعَ العيد حَيُّوا البشير بتحقيق المواعيدِ
يا أيها الرّمز تَستَجْلِى العقول به لحكمة الله معنًى غيرَ مَحْدود
كأنَّ حُسنك هذا وهو رائعنا حُسْنٌ لبِكرٍ من الأقمار مولود
لله فى الخلْقِ آياتٌ وأعجبُها تجديدُ رَوْعتها فى كل تجديد

***

فِتيانَ مصر وما أدعو بدعوتكُمْ سوى مجيبين أحرارًا مناجيد[2]
سوى الأهلَّة من علمٍ ومن أدبٍ مؤَمِّلين لفضلٍ غير مجحود

(١) الفلج: الظفر.
(٢) المناجيد: الشجعان السباقون إلى النجدة.

المستَسِرُّ شعار المقتدين به | العَاملين بمغزًى منه مقصود[١]
ما زال من مبدإ الدُّنيا يُنبِّئنا | أنَّ التمَّام بمسعاةٍ ومجهود
فإنْ تسيروا إلى الغايات سيرته | إلى الكمال فقد فُزْتم بمنشود

* * *

يا عيدُ جئتَ على وعدٍ تُعيدُ لنا | أوْلَى حوادثك الأُولى بتأْييد
بل كنتَ «عيدين» فى التقريب بينهما | مَعنًى لطيفٌ ينافى كل تَبْعيد
رُدِدْتَ يومًا يُسَرُّ المؤمنون به | ولم تكن بادئًا يومًا لتعيْيد

* * *

رسالةُ الله لا تُنْهَى بلا نَصَبٍ | يُشقِى الأمينَ وتغريبٍ وتنْكيد
رسالة الله لو حلَّتْ على جبلٍ | لانْدَكَّ منها وأضحى بَطنَ أُخدود
ولو تحمَّلها بحْرٌ لَشبَّ لظًى | وجَفَّ وانهال فيه كلُّ جُلْمود
فليس بِدْعًا إذا ناء الصَّفِيُّ بها | وبات فى ألمٍ منها وتسهيد
يَنْوِى التَّرَحُّل عن أهلٍ وعن وطنٍ | وفى جوانحه أحزان مكبود
يكاد يمكثُ لوْلا أنْ تداركه | أمر الإله لأمرٍ منه موْعود

* * *

فإذْ غلا القوم فى إيذائه خَطَلًا | وشرَّدوا تابعيه كلَّ تشريد
دعا الموالين إزْماعًا لهجرته | فلم يجْبهُ سوى الرَّهط الصناديد
مضى هو البَدْءُ، والصِّدِّيقُ يصحبه | يُغامِرُ الحَزَن فى تَيْهاءَ صَيْخُود[٢]
مُولِّيًا وَجْهه شَطْر (المدينة) فى | لَيْلٍ أَغرَّ على الأدهار مشهود
حتى إذا اتخذ الغار الأمين حِمًى | ونام بين صَفَاهُ نوم مَجْهود
حماهُ وَشْىٌ بباب الغار منسدلٌ | من الألَى هَدَّدوه شرَّ تهديد[٣]
يا للعقيدة والصِّدِّيقُ فى سَهَرٍ | تؤذيه أفْعى ويبكى غير مَنْجُود

(١) المستسر: المستتر، أى القمر الذى لم يبدُ فى مطلعه إلا أقله.
(٢) التيهاء: أرض يتيه فيها السالكُ. وصيخود شديدة الحر.
(٣) إشارة إلى ما نسج العنكبوت ببابه فضلل المتعقبين للرسول.

إن العقيـدة إن صحـت وزلـزلهـ ... مُفنى القُرى فهى حصْنٌ غير مهدود
أمَّا الصِّحاب الذين استأخروا تَلَوْا ... سارين فى كل مَسْرَىً غير مرصود
ماجند قَيْصر أو كسرَى إذا افتخروا ... كـهـؤُلاء الأعـزَّاء المـطَاريـد(١)
كأنهم فى الدُّجى، والنَّجم شاهِدهم، ... فـرسان رُؤْيـا لشـأنٍ غـير معهـود
كـأنهم وضيـاءُ الصُّبـح كـاشِفُهُم ... مـال خيرٍ سرت فى مهجـة البيـد
فى حَيْـطَةِ الله مـا شعَّت أسنَّتهـم ... فـوق الظِّلال عـلى المهْرِيَّـة القُـود

* * *

عـانى «محمَّد» مـا عـانى بهجـرتـه ... لمـأرَبٍ فى سبيـل الله محـمـود
وكم غـزاةٍ وكم حَرْبٍ تجَشَّمهـا ... حتى يعـود بـتمكـين وتـأييـد
كـذا الحيـاة جهـادٌ، والجهـاد عـلى ... قدْر الحياة، ومن فـادَى بها فُـودِى
أدْنى الكفاحِ كِفاحُ المرء عن سَفهٍ ... لـلاحتفـاظ بعمـرٍ رهْنِ تحديـد
ليغنم العيْش طَلْقًـا كـل مقتحـم ... وليبغ فى الأرض شقًّا كـلُّ رِعديـد
ومن عـدا الأجَلَ المحتـوم مـطلبُـه ... عَـدَا الفنـاءَ بـذكـرٍ غـير ملحـود

* * *

لقـد علمتم، ومـا مثـلى يُنبئكـم ... لكنّ صوتى فيكم صوتُ تَـرْديـد
مـا أثمـرَت هجْـرةُ الهـادى لأمتـه ... من صـالحـاتٍ أعَـدَّتهـا لتخليـد
وسـوَّدتهـا عـلى الـدنيـا بـأجمعهـا ... طِـوال ما خَلُقتْ(٢) فيهـا بتسويـد
بَـدَا وللشِّـرْك أشيـاعُ تُـوَطِّـده ... فى كـلِّ مسْـرَح بـادٍ كـلَّ تـوطيـد
والجـاهليون لا يـرضـوْن خـالقَهمْ ... إلا كعبْـدٍ لهم فى شكـل معبـود
مؤَلِّهـون عليهم مِـن صنـاعـتهـم ... بعضَ المعادن أو بعض الجَلاميـد(٣)
مستكبـرون أُباةُ الضيَّم غُـرُّ حِجى ... ثقـال بطشٍ لِـدانٌ كـالأمـاليـد(٤)
لا ينـزل الـرأى منهم فى تفـرُّقهم ... إلا مـنـازلَ تَشتيـتٍ وتـبـديـد
ولا يـضـمُّ دُعـاءُ مـن أوابـدِهـم ... إلا كـما صِيـحَ فى عُفـرٍ عبـاديـد

(١) المطاريد. فرسان الطراد فى الحرب
(٢) خلقت: استحقت.
(٣) الجلاميد: الصخور.
(٤) لدان، جمع لدن، وهو اللبن.

ولا يطيقون حكْما غير ما عقدوا   لذى لواءٍ على الأَهواء معقود

* * *

بأىِّ حلمٍ مبيد الجهل عن ثقةٍ   وأىِّ عزمٍ مُذلِّ القادة الصيِّد
أعاد ذاك الفتى الأُمِّىُّ أمته   شملًا جميعًا من الغُرِّ الأماجيد
لتِلْك تاليةُ الفرقان فى عجبٍ   بل آيةُ الحقِّ إذ يُبغَى بتأكيد
صَعبان راضهما: توْحيد معشرهم   وأخذُهم بعد إشراكٍ بتوحيد
وزاد فى الأرض تمهيدًا لدعوته   بعهده للمسيحيين والهود
وبدئه الحكمَ بالشُّورى يتمُّ به   ما شاءه الله عن عدْل وعن جود
هذا هو الحقُّ والإجماع أيَّدَه   فمن يُفَنِّدُه أولى بتفنيد

* * *

أىْ مسلمى(مصر)إن الجدَّ دينكم   وبئس ما قيل: شعبٌ غير مَجْدود
طال التّقاعس والأعوام عاجِلةٌ   والعام ليس إذا وَلَّى بمرْدود
هُبوا إلى عمل يُجْدِى البلاد فما   يفيدها قائلٌ: يا أمّتى سودى
سَعيًا وحزمًا، فودُّ العدل وُدُّكم   وإن رأى العدلَ قوْمٌ غير موْدود
تعلَّموا كلَّ علمٍ وانبُغوا وخذوا   بكلِّ خُلْقٍ نبيهٍ أخذَ تشديد
فكُّوا العقول من التَّصْفيد[1] تنطلقوا   وما تبالون أقْدامًا بتصفيد

* * *

(مصر)الفؤاد فان تُدْرِكْ سلامتَها   فالشَّرق ليس وقد صحَّت بمفؤود[2]
الشرْق نصْفٌ من الدنيا بلا عملٍ   سوى المتاع بما يُضنِى وما يودى
والغرب يرْقى وما بالشرق من همم   سوى التفاتٍ إلى الماضى وتعْديد
تشكو الحضارةُ من جسمٍ أشلَّ به   شَطرٌ يُعَدُّ وشطرٌ غير معدود

* * *

أبناء(مصر)عليْكم واجبٌ جَللٌ   لبعث مجدٍ قديم العهد مفقود

---

(١) التصفيد: التقييد.

(٢) المفؤود: المصاب فؤاده.

فلْيَرْجِع الشرق مرفوع المقام بكم — وَلتُـزْهَ(مصر)بكم مرفوعة الجيد
ما أجمل الدهرَ إذ يأتى وأربُعُنا — حقيقة الفعل والذِّكرى بتمجيد
والشرْق والغرب مِعوانانِ قد خلصا — من حاسدٍ كائد كيْدًا لمحسود
صنوان بَرَّان فى علمٍ وفى عملٍ — حُرَّان من كلِّ تقييدٍ وتعبْيد
لافِعلَ يُخْطِئُ فيه الخيرَ بَعضُها — إلا تداركه الثَّانى بتسديد
ولا خصومة إلَّا فى اسْتباقهما — لما يَعُمُّ بنفع كلَّ موجود
هذى الثِّمار التى يرجو الأنام لها — من رَوْضكم كلُّ نامٍ ناضر العود
لمصر والشرْقِ بل للخافقَين معًا — دَعْ زعم كلِّ عدوِّ الحقِّ مريِّد[١]

* * *

جُوزوا على بركات الله عامَكم — فقد تبدَّل منحوسٌ بمسعود
رجاؤكم أبدًا ملءُ النفوس، فما — يُنْفَى بحسنىَ ولا يُوهىَ بتهديد
بدا الفلاحُ، وفى هذا الهلال لكمْ — بُشْرى التَّمام لوقتٍ غير ممدود
غدًا نرى البدر فى طِرْسِ السماء مَحَا — بخاتَمِ النُّور زلَّاتِ الدَّجى السود

يحيى بعثة الأطباء إلى حرب طرابلس

وقال سنة ١٩١١ يحيى بعثة الأطباء المصريين الذين ارتحلوا إلى ليبيا لمعاونة المجاهدين العرب الذين قاوموا العدوان الإيطالى:

سيروا على بركات الله واغْتنموا — أجر الجهاد وأجر البِرِّ بالناس
لِيَشْفِ مِبضعُكم والرفقُ يُعمِلُهُ — صدع الرَّصاص وجرح الصَّارمِ القاسى
لَهْفِى على شُوس[٢] أبطالٍ تَلوكهم — غولُ الرَّدى بين أنيابٍ وأضراس
كانوا وقد ركِبوا للحرب أبهج ما — ترى العيونُ غياضًا فوق أفراس
واليوم قد عَثَروا تَنْدَى نضارتُهم — نَدَى الجفاف وتخْبو شعلةُ البَاس
كونوا لهم إن شكوا إخوان تأسيةٍ — وإن هم استوحشوا إخوان إيناس
رُدُّوا على الوطن الباكى أعِزَّتَه — ودافعوا الموت عنْهم دَفْعَ أكْياس[٣]

---

(١) مريد: الخبيث.
(٢) شوس جمع أشوس وهو الشجاع الجرىء.
(٣) أكياس جمع كيس وهو الفطن الذى يحسن الفهم.

فإن أسقامهم فى كل جارحةٍ ... منّا وآلامهم فى كلّ إحساس
للّهِ مسعاتكم والحق يشكرها ... والخَلْق يذكرها ترديد أنفاس
مبَرَّةٌ طَهُرَتْ أرواحُكم وسَمَتْ ... بها مراتب فوق الضَّيمْ والياس
خوضوا المصاعب لا يُلْمِمْ بأنفسكم ... ما قد تُلاقون من ضُرٍّ ومن باس
هذا الهلال لكم رَأْدَ النهار هُدَى ... وفى اعتكار الدَّياجى خير نبراس
وإن فى ظلّه النّادى برحمته ... لَيَبْلُسمًا لجراح القلب والرَّاس
أىْ عصبةَ الخير داووا أبرياء هَوَوْا ... صرعى مطامعَ قُوَّادٍ وسُوَّاس
لو صوَّر الله فى جسم امرِىءٍ مَلَكًا ... لَصوَّر الملَكَ الإنسىَّ فى آسٍ [1]

عتب وطنى

وقال سنة ١٩٢٠ يعتب على أحرار مصر فى موقف تردد:

إن تكونوا حُماتها وبنيها ... ما لتلك الذِّئابِ تَعَسُّ فيها؟[2]
أفترضَوْن أن تهونَ عتيدًا ... بعد ذاك الإِباء فى ماضيها؟
تلك أوطانكم تُباع عليكم ... صَفْقَةً بَخْسَةً فمن مشتريها؟

رثاؤه لمحمد فريد

ونظم قصيدة رائعة فى رثاء الزعيم الشهيد محمد فريد سنة ١٩١٩؛ قال:

أفريدُ لا تبعد على الأدهار ... أنت الشهيد الخالد التذكار
بالأهل بالدم بالرفاهة بالغنى ... فَدَّيت مصر وفُديت من دار
حررت نفسك دائب المسعى إلى ... تحريرها لتعزّ بعد صغار
مسترسلا والدهر فى إقباله ... مستبسلا والدهر فى الإدبار
ثَبْتًا إذا ما الراسخون تقلقلوا ... متوافق الإعلان والإسرار
فبررت بالعهد الذى عاهدته ... ووفيت فى الإيسار والإعسار
ما كان ذاك العمر إلا قُربة ... موصولة الآصال بالأسحار
ومن المنى ما ليس يوفى حقه ... حتى يكون الجود بالأعمار

---

(١) آس أى مداو للجروح

(٢) تعتس تطرق ليلا.

فريد ومصطفى:

إنى لأذكر مصطفى ورفيقهَ ... فى مستهلهما وفى الإبدار
متوخيًا إعتاق مصر كلاهما ... وكلاهما لأخيه خير مبار
وكلاهما يسعى الغداة مذللا ... سبل النجاح لمقتفى الآثار
وكأن مصر حيال كل مخاطر ... إذ ذاك فى شغل عن الأخطار
فى قلبها حب الحياة طليقة ... لكنها تخشى أذى الإظهار
وضميرها آنًا فآنًا يُجتلى ... فيُرى كما اقتدح الزناد الوارى
عرفا حقيقتها وبثا بثها ... ثقة وما كانا من الأيسار
لم يلبثا متآزرين بنية ... مصدوقة فى خفية وجهار
حتى إذا ما أيقظا إيمانها ... فذكا ذكاء النور قبل النار
أبدت أساها يوم فارق مصطفى ... هذا الجوار ورام خير جوار

فريد رئيسًا للحزب الوطنى:

ذهب الرئيس فنيط عبء مقامه ... بالأنزه الأوفى من الأنصار
أفريد هذا الشأو قد أدركتَه ... وسبقت من جاراك فى المضمار
فتقاض أضعافَ الذى قدمته ... واستسق صوب العارض المدرار
إن تلتمس جاها أصِبْ ما تشتهى ... أو رفعةً فاظفر بالاستيزار
والشرق يقبل قد عملت من الأولى ... يتحملون غرائب الأعذار
الشعب شبه البحر لا تأمن له ... ما أمن مقتعد متون بحار
فغدًا ويا حذرا لمثلك من غد ... قد تستفيق ولات حين حذار
يسلو الأولى عبدوك أمس وربما ... كوفئت من عرف بالاستنكار
فتبيت صفر يد وكنت مليئها ... وتذوق كل مرارة الإقتار
لكن أبيْتَ العرض إلا سالما ... وإن ابتليت بشقوة وضرار
لم تعتقد إلا الولاء وقد أبى ... لك أن تلبى داعى الإخفار
وسموت عن أن يستميلك خادع ... بالمنصب المزجَى أو الدينار
فظللت مبدؤك القويم كعهده ... عند الوفاء وفوق الاستئثار

تــزداد صـدق عــزيـمـة بمــراسـه ورســوخ إيمــان بــالاسـتـمــرار
مــا إن تبـالى ســاهـرًا متــرصـدًا يــرنــو إلـيــك بمـقـلة الـغــدار
يجنى عليــك لغــير ذنب بــاغـيــا والـبغـى جنّــاء عــلى الأطـهــار
من كــان جــار الســوء يـومـا جـاره عــدت فــضــائـله مــن الأوزار

فريد فى السجن:

قــل للرئيس إذا مــررت بسجنـه إن السجــون معــاهــد الأحــرار
وافيتــه طــوعــا ورأيــك ثــابـت أن اعتقــالــك مــطلق الأفـكــار
إن يحجبــوك فــإن فكــرك رافــع نــورًا تضـاء بــه سبيـل الســارى
كم تحجب الـظلمات طـودًا شـامخًا فـيـلوح فــوق ذراه ضــوء مـنــار
إنـا لنسمـع من سكــوتـك حكمــة ونـرى هـدى فى وجهــك المتـوارى
وإذا النفــوس تجــردت لمــرامهــا غَنِيـتْ عن الأسمــاع والأبصــار
حــاشاك أن تـأسى وهل تـأسى على عــلم بــأن الـتـمُّ بـعــد سِـرار
الأنـبـيــاء انــتــابهـم زمــن بــه لــزمـوا التفـرد عن رضًـا وخيــار
لجـأوا إلى الخلوات واحتبسـوا بهــا شـظفى المعـايش لا بسى الأطمــار
مسـتـجـمـعــين مــروضــين قلوبهم لقيــام دعــوتهـم عــلى الأخــطار
ومن الغيــابـات التى أمســوا بهــا بعثـوا الهدى كـالشمس فى الإزهـار
سـل موحشًــا فى طور سينـا سامعًـا كلم المهيمـن فى اصــطعــاق النــار
ســل طيف جلجلة يكاد من الـطوى يـــسـمـــو بــه راقٍ مــن الأنـــوار
ســـل خــاليــا بحــرًا يلبى ربــه فى الغـار عن صـرعــاتـه فى الغــار
بــالعـزلــة اكتملوا ورب مــروض للنفس حــررهــا بــالاستـئـســار
لا شىء أبلغ بــالــدعــاة إلى المنى مــن أن تمـحـصـهـم يــد المـقــدار

فريد فى طريق المنفى:

لم يكفه ما كـان حتى جاءه ما فوق غَلٍّ الجيد والإحصار
النفى بعد السجن: تلك عقوبة أعـلى وأغلى صفقـة للشـارى
يسموا بها السجن القريب جداره شرفا إلى سجن بغـير جدار
لا يترك الجارى عليه حكمه إلا ليـدركـه القضـاء الجـارى

أى السفائن تستقل كأنها ... إحدى المدائن سيرت ببخار
ينأى بها عن أهله ورفاقه ... دامى الفؤاد وشيك الاستعبار
ينبو ذرا البلد الأمين بمثله ... والزاحفات أمينةُ الأحجار
متلفتًا حين الوداع وفى الحشى ... ما فيه من غصص ومن أكدار
متشبعًا متروِّيًا مما يرى ... لشفاء مسغبة به وأوار
يرنو إلى صُفر الشواطىء مُنطقت ... أعطافها بالأزرق الزخار
ويذوب قبل البين من شوق إلى ... أنس الحمى وجماله السحار
يستاف ما تأتى الصبا بفضوله ... من طيب تلك الجنة المعطار
وبسمعه لحن المواطن جامعا ... لغة الأنيس إلى لغى الأطيار
لهفى عليه مشردًا قبل الردى ... سيهيم فى الدنيا بغير قرار
من أجل مصر يؤم كل ميمم ... فى قومه ويزور كل مزار
لا يوم يسكن فيه من وثب، ومَن ... بسكينة للكوكب السيار؟
فى غربة موصولة آلامها ... أنْضته فى الرحلات والأسفار
تنتابه الصدمات لا يشكو لها ... إلا شكاة المحرب الكرار
ثقة بأن الفوز ليس لجازع ... فى العالمين، الفوز للصبار
وتعضه الفاقات لا يلوح بها ... عزا ويسترها بستر وقار
حرصا على المتطولين بفضلهم ... أن يجنحوا وَجَلًا إلى الإقصار

فريد فى مرضه:

ما كان هذا الحد حد عذابه ... تردى الأسود ضرورة الأخدار
صال الشقاء على فريد صولة ... بين الجوانح أنذرت ببوار
قصرت لياليه على مجهوده ... واليوم عدن عليه غير قصار
ما بال ذاك الوجه بعد تورّد ... خلع النضارة واكتسى ببهار؟
ما بال ذك الوجه بات من الضنى ... كالرسم فى جرف به منهار؟
ما بال ذاك العزم بعد مضائه ... عثرت به العلات كل عثار؟
ما بال ذاك القلب بعد خفوقه ... تنتابه هدآت الاستقرار؟
أمسى يعالج سكرة فى نزعه ... من لم يذق فى العمر طعم عقار

ولو استطاع لما أضاع دقيقة ... يمضى الزمان بها مضى خسار
وفّى بما أعطاه حق بلاده ... والموهبات ترد ردّ عوارى
أمكانه هذا أتلك حليه ... والبيت خال والمقلد عارى؟
أكذاك يختم فى الشقاء حياته ... من كان جم الجاه والإيسار
ماذا تفى من حقه بعد الذى ... عاناه كل قلائد الأشعار
إن الذى يبلوه شارى قومه ... غير الذى نتلوه فى الأسطار

عظة وفاته:

مات الرئيس فراع مصر وأهلها ... ذاك النعىُّ وذاع فى الأمصار
مات العصامى العظامى الذى ... ما كان بالعاتى ولا الجبار

تحية الختام:

أفريد هذا ما يهيئه الفدى ... لعشيرة فديتها وديار
نم إن مصرا عنك راضية وفز ... من شكرها بمثوبة الأخيار
أوشكت أجزع فانتهيت بأننى ... آنست فيك مشيئة للبارى

تحية الشهداء

قال فى حفلة أقيمت سنة ١٩٢٤ لتحية أرواح شهداء الحركة الوطنية:

إلى أرواح الشهداء

تحيَّةً أيها القَتلَى وتسليما ... بلغتم الشَّأْوَ تخليدًا وتعظيما
لا يعبُد المرءُ ربًّا لا ولا وطنًا ... بمثْل إغْلائه القُربان تقديما
قلتم وصدّق ما قلتم تحمُّلكم ... أذى يَرُدُّ فِرنْدَ الصبر مثلومًا[1]
ما الموت إن كان إنقاذ البلاد به ... من غاصبٍ وانتصافُ الشَّعب مظلوما
يُحطَّم العظمُ منكم دون بُغيتكم ... فتصبرون ويأبى العزم تحطيما
برًّا (بمصر) وخوفًا أن يُسلِّمَها ... إلى العِدَى واهِنو الإيمان تسليما
ليس الشهادة إلا من يموت على ... حقٍّ ومن لا يبالى فيه ما سيما

(١) القرند: حد السيف.

إمضوا رفاقًا كرامًا، حسبكم عِوضًا ... مجدٌ عزيز على الخُطّاب إنْ ريما
للمشترى بصباهُ عِزَّ أمته ... ذكرٌ يُديمُ اسمه بالتِّبر مرقوما
وللتى استبدلت بالقبر مرتعها ... قِسْطٌ من الفخر فوق العمر تقويما
لا تحسبوا مصر تنساكم فكُلُّكمو ... يَبقَى على الدهر مرْؤومًا ومرحوما
وفى المرابع من أرواحكمْ نَسَمٌ ... تظلُّ تَأْتى بها لأرواحُ تنسيما

تحية للذين أطلقوا من الاعتقال

وقال فى هذه القصيدة مخاطبا من أفرج عنهم من الاعتقال:

يا خارجين كرامًا من محابسهم ... ومبْهجى كلِّ قلبٍ كان مغموما
كم كُبِّلَ الحقُّ بالأصفاد من قِدَمٍ ... ثم انطوَيْنَ وباء البُطْلُ مهزوما
يا سوء دهرٍ قَضتْه قبل نهضتها ... (مِصْرٌ) يخيِّم فيها الذُّلُّ تخييما
تَهِى قوَى اللَّيث من عَيْثِ الذِّئاب بها ... ويلْتوى الأمرُ تحليلاً وتَحْريما
فاليومَ عاد إلى رأىٍ يُشرِّفها ... من ظنَّ إقليمها للخفض إقليما
دَلَّتْ على قوةٍ فيها صلابُتكم ... تذود عنها الأشِدَّاءَ المقاحيما
هل يُجْزِىءُ الشكر من ضَيم تحمَّلَه ... بالأمس من كان منكمو فى رأيه ضيما
قد أثَّموكم وكم من مُثلَةٍ نزلَتْ ... بالأبرياء وبالأبرار تأثيما
وبعض ما عاقبُوكم فيه جَعْلُكمو ... صِدْقَ الهوى لِلحِمَى دِينًا وتعْلِيما
لا حاكمًا دون ما أوحتْ ضمائرُكم ... تُرَاقبون ولا تَرْعَوْنَ محكوما

* * *

لقد ظفرتم بما أدنى القَصِىُّ لكم ... من المرام فليس الفوْزُ مزعوما
هل استقام زمانٌ لا يُقَوِّمه ... بنوه بالصبر والإقدام تقويما؟
أو نال حُرِّيةً قومٌ بها جَدُرُوا ... وهم يبالون تَقْتيلاً وتكليما[1]

* * *

يا سادةً كالنجوم الغُرِّ منزلةً ... وسيداتٍ كعِقْد الدُّرِّ منظوما

---

(١) التكليم: التجريح.

حمـدًا لإقبـالكم هـذا وحفْلتكم ... تُهنِّئـون الـصَّـنـاديـد المقـاديـا
من الأُولى مـاونَـوْا عن واجبٍ فَبَـنـوْا ... لعزِّ «مِصْـر» طـرافًـا[1] كـان مهـدومـا
أولئكم إن بَـدَا مـن فـضـلهم أثـرٌ ... فكم لهم من جميـلٍ ظـلَّ مكتـومـا
فـلْتَحْـىَ «مِصْـرُ» وأبـرَارٌ نُـجِلُّهمـو ... ونـحـتـفـى بهـم حُـبـا وتـكـريمـا

رثاؤه لأمين الرافعى

ومن قصيدة له فى رثاء المرحوم أمين الرافعى الذى انتقل إلى جوار ربه فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٧. وقد ألقيت هذه القصيدة فى حفلة تأبينه:

بـاعـوا المخَلَّدَ بـالحـطام الفـانى ... وَشَـرَيْتَ بـالأغـلَى من الأثمـان
تـلك الحيـاة أمـانـةٌ أدّيـتـهـا ... بـتـمـامـهـا لله والأوطـان
بـالصبر والإيمان أُخْلِصَ بَـدْؤُهـا ... وختـامهـا بـالـصـبر والإيمـان
أُعْـرضت عن لـذاتهـا منـذ الصِّبى ... والـرَّوْضُ تُغـرِى والقـطوف دوانى
متـوخِّـيًـا مـن دونها أُمنـيَّـةً ... لم يـوهِ وَحـدتهـا شتيتُ أمـانى
تَهـوى البلادَ ولا هَـوًى لك غيرهـا ... أو تُـفْـتـدى مـن ذلَّـةٍ وهـوان
ظلت تنـازعـك الصُّـرُوف بما بهـا ... مـن مُنَّـةٍ، وظلت ثَبْتَ جَنـان
مستنـزفًـا دمـك الـزَّكىَّ ولم يُـرَقْ ... بِشَبَـاةِ قِـرْضـابٍ ولا بسنـان
فى صـولـة للدهـر تعقُب صولـةً ... مـنْـتـابـةً فى الآن بـعـد الآن
حتى قَضَيْتَ شهيـدَ رأيـك وانقضى ... مـا كـنت تـلقَـى دونـه وتـعـانى
ويـحَ الأبىِّ تـسـوءه أيـامـه ... وتَسُـرُّ كـلَّ ممـاذقٍ[2] مـذْعـان
ممن يقـدِّم فى الـرجـال ومـا بـه ... إلاالـطِّلاءُ بـكـاذب الألـوان
ماذا دهى «الفسطاط» حين تجاوبت ... أصـداؤهـا لنـواك بـالإرنـان؟[3]
وجـلا عن القـدَر المخبَّـأ ليلُهـا ... وبـدا الصباحَ مقـرَّحَ الأجفـان

* * *

---

(١) الطراف: البيت.
(٢) مماذق: أى غير مخلص.
(٣) الإرنان: رفع الصوت.

خـطبٌ أرانـا فى مجـالات الفِـدَى   والصـدقِ كيف مصـارعُ الشجعـان
فـالشرق فى شَـرَقٍ من الدمـع الذى   أجـرى العيـون وفـاض بـالغُـدران

* * *

أى «مصـطفى» يبكيك قـومـك كلما   عـادتْهمـو ذكـرى فتى الفتْيـان
يـوم الـوفـاءُ دعـا فكنتَ لـواءَه   وطـليعـةً لـطليعـة الفـرسـان
هـذا شهيـدٌ من ولاتـك خـامسٌ   يَهـوَى بحيث هـويت فى الميـدان
لـكـأنَّهم، والمـوتُ أسـوأُ مغـنمٍ،   يتـراكضـون إليـه خيـلَ رهـان
بـذلَـوا النفـو لله آ ذُلْت وأرْخَصـوا   مـا عـزّ مـن جـاهٍ ومن قُـنيـان
فـإذا ذُكـرتَ وأنت عنـوان الفـدى   فـاسم الـرفـاق تتمـة العنـوان

وظلَ خليل مطران يغرد بشعره ألحان الحـرية، ولا ينقـطع عن التغريـد حتى فاضت روحـه الكريمة مساء ٣٠ يونيه سنة ١٩٤٩.

* * *

أحمد محـــرم

١٨٧١ - ١٩٤٥



شاعر ملهم، من شعراء الوطنية والأخلاق، كان أدباء الجيل يضعونه فى صف شوقى وحافظ ومطران، وكان شيخ الشعراء إسماعيل صبرى يتغنى بشعر هؤلاء الأربعة ويطيب له التحدث عنهم، وامتاز محرم إلى جانب مكانته الشعرية بحرارة العاطفة، وتذوقه للفن والجمال، وقوة إيمانه، وتأملاته العميقة الفلسفية، واستمساكه طول حياته بمبادئه الوطنية، فكان شعره كله وقفًا على المبادىء، لم ينحرف عنها يومًا فى قصيدة أو فى أى بيت من الشعر، ظل مقيما عليها وفيًا لها فى السراء والضراء، فكان حقًا مثلا أعلى فى الشعر والوطنية، وكان مصطفى كامل يعجب به وبشعره، ويشيد به على صفحات (اللواء)، ويسميه (نابغة البحيرة)، وبقى أحمد محرم على صلته به ووفائه له ولذكراه، كما ظل وفيًا لمبادىء الوطنية إلى أن توفاه الله فى ١٣ يونيه سنة ١٩٤٥.

كان شاعرًا بفطرته وسليقته، قال الشعر وهو فى سن مبكرة. ومعلّقته التى يقول فى مطلعها:

منـازل سلمى لا عـدتـك الغمـائم وإن درست بـالجـزع منـك المعـالم

قد نظمها وهو فى السادسة عشرة من عمره.

وطنيته فى شعره

تتجلى روحه الوطنية التى ألهمته الشعر أكثر ما تتجلى حين أصدر الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠٨، فقد أهداه إلى (النيل)، وكتب كلمة الإهداء فى عنوان الكتاب (هدية النيـل)، وأعقبها بهذا البيت الذى يترجم عن وطنيته الأصيلة مخاطبًا النيل قال:

وَهَبْتُـكَ مُلْك القـريض العتيـد وذلـك أفـضـل مـا يـوهبُ

وقال فى مقدمة ديوانه يشرح المعنى الذى استوحاه فى إهداء ديوانه إلى النيل:

«لقد جرى أكثر الكتاب والشعراء على أن يهدوا مؤلفاتهم إلى من شاؤا من ذوى الثروة

والجاه تعرضًا لمؤازرتهم والانتفاع بهم وسط هذا الكساد الآخذ بأكظام الأدب فى بلادنا، ولكننى انصرفت بشعرى عن تلك المواقف، وبرئت إلى نفسى أن آخذ بهذه الأسباب، على ما أعلم من وعورة مسلكى، وضيق مضطربى، وما كنت فى ذلك إلّا جاريًا على سنتى فى سياسة نفسى، وتصريف ما آتى وأدع من أمور الحياة، فما استظهرت بغير أخ حفّى، أو صديق صفّى، ولا آثرت أن أهدى ديوانى إلى غير (النيل)، ذلك الأب الذى وهبنى نعمة الحياة، وأفاض علىّ هذه المنح والصلات.

فيا نيلُ أنت الهوى والحياة ... وأنت الأمير وأنت الأبُ
ويا نيل أنت الصديق الوفىّ ... وأنت الأخ الأصدق الأطيب
وأنت القريض الذى أقتفى ... فيزْهى به الشرق والمغربُ
فإن أهب الخصبَ هذه العقول ... فما سننتَ لها تخصب
وإن أنا أطربت هذه النفوس ... فصوتك لا صوتى المطرب
تسيل فتتدفق الرائعات ... وتجرى فتستبق الجوَّبُ

إلى أن قال:

لئن فاتنى الذهب المستفاض ... فما فاتنى الأدب المذهب
وهبتُك مُلْك القريض العتيد ... وذلك أفضل ما يوهب

وقد ظهر الجزء الثانى من ديوانه سنة ١٩٢٠.

دعوة الوطنية

قال يدعو مواطنيه إلى الإخلاص لبلادهم والعمل على استعادة مجدها:

دعا فأثار الساكنين دعاؤه ... ونادى فراع الآمنين نداؤه
أخو وصَب ما أن يجم انقضاؤه ... وذو أرب ما أن يحين قضاؤه
به من بنى مصر عناءٌ مبرِّحٍ ... فياليت شعرى هل يزول عناؤه؟
أما إنه لو كان يُشفى غليلَه ... بكاء على مصر لطال بكاؤه
تَقَسمها الأقوام لا ذو حمية ... فيحمى ولا واق فيُرْجَى وقاؤه
وما مصر إلّا موطن نحن أهله ... عزيز علينا أرضه وسماؤه

إلى أن قال يستنكر الاحتلال البغيض ويهيب بالأمة أن تحاربه:

ثوى فيه أقوامٌ مللنا ثـواءهم ... ويـا رُبَّ ثاوٍ لا يُمـلُّ ثواؤه
لقد كان يأبى أن يذلّ لغاصب ... فيـاليت شعرى أين ضـاع إباؤه ؟
لقد كان يـرعاه رجـال أعزة ... بهم من صروف الدهر كان احتماؤه
همُ ناضلوا عنه فصانوا ذماره ... بصـارم عزم مـا يُـردّ مَضـاؤه

* * *

بنى وطنى لا تسخـطوه عليكُمُ ... فليس سـواءً سخطه ورضـاؤه
بنى وطنى خلّوا التخـاذل إنه ... بـلاؤكـم يجتـاحـكم وبـلاؤه
سلامٌ عليكم من أخ ذى حمية ... دعى فـأثار السـاكنين دعـاؤه

لواء الوطنية

وقال يمجد لواء الوطنية ويدعو إلى الالتفاف حوله والتضحية فى سبيله:

فداؤك نفسى من لواء محبب ... حمى جانبيه كل ماضٍ مدرّب
إذا ما دعى أنصارَه التف حوله ... جحا جحةٌ[1] من ذائد ومذبب
فمنهم قؤول للصـواب مسـدّد ... يصرِّف صرّارًا له وقع أشطب
يـدين له الجبـار غير معـذل ... ويعنـو له المغـوار غير مؤنّب
ومنهم فعـولٌ للمكـارم مـاجـدٌ ... يلبى نـداه كل داعٍ مثـوّب
هم الصحب صانوا للديار لواءها ... وصالوا على أعدائها غير هُيّب
يكرّون كرّ الدارعين إلى الردى ... إذا الحرب أبدت عن عبوس مقطب
إذا طلبوا حقا تداعوا فأجلبوا ... على سالبيه فانثنوا غير خُيّب

إلى أن قال:

ومـا منع الأوطـانَ إلّا حمـاتُهـا ... وذادتُها من ذى شباب وأشيب
همُ ذخرُها المرجوُّ فى كل حادث ... وعُدَّتها فى كل يوم عَصَبْصب
سلامٌ عليهم من كهول وفتية ... وبورك فيهم من شهود وغُيّب

(١) جحاجحة جمع جحجاح السيد المسارع فى المكارم.

كبوة الشرق

وقال تحت عنوان (كبوة الشرق) يستصرخ أهله ليعيدوا إليه سالف مجده:

متى ينهض الشرق من كبوتهْ ... وحتى متى هو فى غفوتهْ؟
كَبَا وكذلك يكبو الجواد ... براكبه وهو فى حلبته
ونام كما نام ذو كربة ... تملكه اليأس فى كربته
وَهَى عَزْمُه ما يطيق الحراك ... وقد كان كالليث فى وثبته
تجرّ عليه عوادى الخطوب ... كلا كلَها وهو فى غفلته
نواهبُ ما كان من مجده ... سوالبُ ما كان من عزّته

إلى أن قال:

فيالهف قلبى لمجدٍ مضى ... ويا شوق نفسى إلى عودته!
ويالهف آبائنا الأولين ... على الشرق إن ظل فى نكبته
همُ غادروه كروض أريض ... تتوق النفوس إلى نضرته
ونحن تركناه للعاديات ... ولم نرع ما ضاع من حرمته
فأذْهَبْن ما كان من حسنه ... وأفنين ما كان من بهجته

* * *

فهل يسمح القول أهل القبور ... خطيبٌ فيسهب فى خطبته
يناديهم فيم هذا الرقاد؟ ... كفى ما دهى الشرق من رقدته
لقد ضاع بعدكمو مجدُه ... وكل المثالب فى ضيعته
وأنتم رجال ذوو نجدة ... فلا تقعدوا اليوم عن نجدته

يدعو إلى بعث مصر

وقال يذكر مجد مصر الغابر ويدعو مواطنيه إلى النهوض لاستعادة هذا المجد:

أهذى ديار القوم غَيّرها الدهرُ ... فعوجوا عليها نَبكها أيها السفر
محى آيَها مرُّ العصور وكرُّها ... إذا مرّ العصرُ كر من بعده عصر

نسـائلها أين استقـلّ قـطينهـا وهـل تنـطق الـدار المعـطلة القفـر؟
وكـائن ترى من ذى ثمـانين خَضّبتْ لطول البكا من شيبـه الأدمعُ الحمـر
بكى وطنـا أودت بسـالـف مجـده حـوادث دهـر من خـلائقـه الغـدر
أغـارت عليـه من جنـوب وشَمْـأل فـما بـرحت حتى أتيـح لهـا النصر

* * *

ألا إنها مصـر التى شقيت بنـا فياويح مصـر ما الـذى لقيت مصر؟
مضى عزّها القُدْموسُ[1] ما يستعيده بنـوهـا فـلا عـزٌّ لـديهم ولا فخـر
هم رقـدوا عنهـا فـطال رقـادهم فـديتكمـو هُبـوا فقـد طلع الفجـر!

ذكرى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢

وقال عن ذكرى احتلال الإنجليز القاهرة يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢:

نلومـك يـا يـوم النحـوس ونعـذل وأنت عـلى مـا أنت تمضى وتُقبـل
فلا نحن ما عشنا عن اللوم نرعـوى ولا أنت مـاكـرّ الجـديـدان تحفـل

إلى أن قال:

لـعلك أن تـأتى بمـا تـعـد المنى نـفـوسَ رجـال أوشكـت تململ
لحى الله قـومـا حّملونـا من الأذى بمـا ضيّعوا الأوطـان ما ليس يحمـل
همُ خـذلـوهـا فـاستبيـح حـريمهـا ومـا بـرحت تبغى انتصـارًا فُتخـذل

يهاجم الاحتلال

وقـال سنة ١٩٠٢ ينعى عـلى الاحتـلال بغيـه وعـدوانـه، وعـلى الإنجليـز نقضهم للعهـود والمواثيق:

فى كـل يـوم شـرعـة ونـظام مـا هـكـذا الأحكـام والحـكّـام
عشـرون عـامـا والـديـارُ مـريضـةٌ تـنـتـابهـا الأدواء والأسـقـام
لم يـعـرف المتـطبّبـون دواءهـا فـتـنـوعـت فى دائهـا الأوهـام

(١) القدموس: القديم.

إن الأُساة لتعلم الداء الذى ... ترك العليل تذيبه الآلام
ولربما غشّ الطبيب عليله ... حتى يعود الداء وهو عقام
كيف الشفاء لمصر من أدوائها ... أم كيف يرجَى عزُّها ويرام؟
والمصلحون كما علمتَ وأهلُها ... عنها على زَجر المهيب نيام

إلى أن قال مخاطبا بريطانيا:

يا دولةً رفعت على أوطاننا ... علما تُنكّسُ تحته الأعلام
أين المواثيق التى أبرمتِها ... إن كان منكِ لِموْثِقٍ إبرام؟
لم تحفلى بعهودنا فنقضتِها ... يا هذه، نقضُ العهود حرام
عشرون عاما ما كَفَتكِ وهكذا ... تأتى وتذهب بعدها الأعوام
طال المقام وأنتِ أنتِ ولم يكن ... ليطول لولا الجهل منكِ مقام

وقال يهيب بالأمة أن تهبّ للجهاد:

غنموا نفائسه ونَمَّ بقية ... ستنيلها أيديهم الأيام

* * *

عجبا لهذا النيل كيف نعقُّه ... ويدوم منه البرُّ والإكرام
لو كان يجزينا بسوء صنيعنا ... أودى بهاتيك النفوس أُوام
لكنها رَحِمُ الجدود ولم تزل ... تُرعى لدى أمثاله الأرحام

* * *

يا آل مصر خذوا نصيحة شاعر ... أبدًا يكلف نصحكم ويسام
لا تغفلوا عنها فليس بغافل ... عنكم وعنها ذلك الضرغام
يا أمة خاط الكرى أجفانَها ... هُبىّ فقد أودت بك الأحلام
هبّى فما يحمى المحارمَ راقدٌ ... والمرء يُظلم غافلا ويُضام
هبّى فما يغنى رقادك والعدى ... حول الحمى مستيقظون قيام
شيئان يذهب بالشعوب كلاهما ... نومٌ عن الأوطان واستسلام
إلاّ يَحِنْ للراقدين قيامُ ... فعليهمُ وعلى الديار سلام

يدعو إلى البذل والتضحية فى سبيل مصر

من قصيدة له نظمها سنة ١٩٠٤ لمناسبة إنشاء مدرسة محمد على الصناعية بالإسكندرية:

من يُسعد الأوطانَ غيرُ بنيها ... وينيلها الآمال غيرُ ذويها
ليس الكريم بمن يرى أوطانه ... نَهْبَ العوادى ثم لايحميها
ترجو بنجدته انقضاء شقائها ... وهو الذى بقعوده يشقيها
وتودُّ جاهدةً به دفعَ الأذى ... عن نفسها وهو الذى يؤذيها
سُبُلُ المكارم للكرام قويمة ... فعلامَ يخطئها الذى يبغيها؟
ما أكثر المتفاخرين وإنما ... فخر الكرام بماحبت أيديها
يحوى الكريم المالَ لايبغى به ... شيئًا سوى أكرومة يحويها
والجود يُحمد حيث كان وخيره ... ما نال أوطان الفتى وبنيها
ولقلما أرضى امرؤ أوطانه ... حتى تراه بنفسه يفديها

* * *

يا آل مصر وما يؤدى حقها ... إلا فتى يكفى الذى يعنيها
هى أمكم لا كان من أبنائها ... من لايواسيها ولايُرضيها
وهَبَتكم الخيرَ الجزيل فهل فتى ... منكم بحسن صنيعها يجزيها؟
سعدت لعمرى بالصنائع حقبةٌ ... دلّت على (عجل) فمن يتنيها؟
دار الصنائع خير دار تُبتنى ... فالله يجزى الخير من يبنيها

يطعن فى الملوك، ويستهجن الرتب والألقاب

من قصيدة بعنوان (الشرف والملوك)، وإذا عرفت أنه نظم هذه القصيدة ونشرها سنة ١٩٠٨ فى الجزء الأول من ديوانه، لرأيت أنه أول شاعر وطنى حمل على الرتب والألقاب، وأول من هاجم الملكية والملوك بهذه القوة والشجاعة، فسبق بهذه القصيدة الخالدة عجلة الحوادث بنصف قرن من الزمان، قال:

كَذَب الملوك ومن يحاول عندهم ... شرفًا ويزعم أنهم شُرَفاءُ؟
رُتَبٌ وألقاب تغُرٌّ وما بها ... فخرٌ لمحرزها ولا استعلاء

آنـًا تبـاع وتـارة هى خـدعـة ... تُمنى بشر سُعـاتهـا الأمـراء
كـم رتبـة نَعِمَ الغبيّ بنيلهـا ... من حيث جلّلهـا أسى وشقـاء
لـو كـان يعلم ذُلّها وهـوانها ... مـا طـال منـه الزهـو والخيلاء
يَلْقى الكـرامـة حيث كـان وفعلُه ... جَمٌّ المسـاوئ والمقـال هـراء
تلك الجهـالـة والغـرور وبـاطـلٌ ... مـا يصنـع الأغـرار والجهـلاء

* * *

ذنب الملوك رمى الشعـوب بنكبـة ... جُـلّى تنـوء بحملهـا الغبـراء
لا المجـد مجـدٌ مـا عبـثت بـه ... أيـدى الملوك ولا السنـاء سنـاء
مـالُوا عن الشرف الصميم وأحدثـوا ... مـا شـاءت الأوهـام والأهـواء
رفعـوا لطغام على الكـرام فـأشكلت ... قِيَمُ الـرجـال ورابـت الأشيـاء
وإذا الـرعـاة تنكبت سبـل الهـدى ... غـوت الهـداة وطـاشت الحكـماء
وإذا الـطبيب رمى العليـلَ بـدائـه ... فـبِمـن يؤمـل أن يـبـلّ الـداء ؟

* * *

لـو جـاور الشـرفُ الملوكَ لأورقت ... صُمّ الصخـور وضـاءت الـظلماء
ظلمٌ يُـبـرِّحُ بـالبـرىء وغـلظةٌ ... يـشقى بهـا الضعفـاء والـفقـراء
الحـق منتَـهـكُ المحـارم بينهـم ... والعـدل وَهْمٌ والـوفـاء هـبـاء
رفعـوا العـروش عـلى الـدماء وإنما ... تبقى السفينـة مـا أقـام المـاء !

يرثى مصطفى كامل

قال سنة ١٩٠٨ من قصيدة له فى رثاء مصطفى كامل :

مـازلت تقتحم المصاعب مجهـدا ... نفسـا موطّنـةً عـلى الأهـوال
حتى طـواك المـوت غير مجامـل ... شـعـبـا يجلك أيـما إجـلال
أحييتـه وقتلت نفسك بـالـذى ... حمّلتهـا مـن فـادح الأثـقـال
هـلا رحمت نفوسنـا فرحمتهـا ... وبـقيـت تكـفينـا أذى المغتـال

وختمها بقوله:

إن كان قد حُمَّ الفراق فوقفة ... تشفى نفوسا آذنت بزوال
هيهات ما جزع النفوس لراحل ... سارت به الحدباء غير خيال
سرْ فالحياة كما علمت رواية ... محتومة الأدواء بالآجال

يدافع عن حرية الصحافة، ويلوم الخديو عباس

قال من قصيدة له سنة ١٩٠٩ ينعى على الحكومة تقييدها حرية الصحافة، وفيها يوجه اللوم إلى الخديو عباس الثانى فى خذلانه للأمة:

صُبوا المداد وحطّموا الأقاما ... واطووا الصحائف وانزعوا الأفهاما!
وخذوا على الوجدان كل ثنية ... واقضوا الحياة مزملين نياما
ودعوا البلاد تذوق من عنت العدا ... ما شاء خادمها الخؤون وناما

* * *

اليوم نُمنع أن نئن لمؤلم ... أو نشتكى الإعنات والإرغاما
والله لا ندع الشكاية منهم ... أو يمنعوا الأوصاب والآلاما
كيف القرار على الإساءة والأذى ... أم كيف نكتم فى القلوب ضراما؟
ومتى رضينا أن نعيش أذلة ... فنطيق مسكنة أو استسلاما؟

إلى أن قال يخاطب الخديو عباس الثانى ويلومه:

ماذا بدا لك فاعتزلت صفوفنا ... أفأصبحَت حرب الغزاة سلاما؟
الحرب دائرة وجيشك قائم ... ينضى السيوف ويرفع الأعلاما
والملك مضطرب ومصر كعهدها ... تدعو الحماة وتشتكى الأقواما
إن كنت خاذلها ولست بفاعل ... فحماتها لا يخفرون ذماما[1]
أتخون مصر وما تحوّل نيلها ... سمّا وما انقلب الضياء ظلاما
نبغى لها الشرف الأشمّ مؤيدًا ... بالبأس نؤيس صرحه الهداما

---

(١) يقصد بحماتها أبناءها المجاهدين.

ونعز رايتها ونمنع حوضها ونزيد صادق حبها استحكاما
عباسُ رأيك في البلاد وأهلها أن الأذى يستضرم الأوغاما
إن كان عسف فالزمان مؤرخ يحصى لنا الحسنات والآثاما

* * *

قلمى. كتابى. أمتى. وطنى. متى نشفى نفوسا تستطير أواما؟

يندد بملوك الشرق

من قصيدة له سنة ١٩١٢ بعنوان (الملك الزائل) يندد فيها بملوك الشرق لمناسبة ضياع مراكش بعد توقيع السلطان عبد الحفيظ المعاهدة التى قبل فيها وضع بلاده تحت حماية فرنسا:

هَوَت العروش وزُلْزِلت زلزالا عرشٌ هَوَى وقديم مُلكٍ زالا!
رِيعتَ لمصرعه المشارق إذ مشَى فيها النَّعِيُّ وأجفلت إجفالا
سَلَبَ المغيرُ حياتَه واستأصلت أيدى الجوائح عِزَّه استئصالا
تَنْجُو الممالكُ مانجا استقلالُها فإذا اضمحلَّ أعارها اضمحلالا
أين (الخليفة) ما دهاه وما له؟ أَرْضى المغيرَ وطاوع الغتالا

* * *

ماقام شعبٌ نام عنه حماتُه واستشعر التفريط والإهمالا
تأبَى العنايةُ أن تصافحَ أمةً ترضى الهوان وتألف الإذلالا

* * *

قد كان يأنف أن يكون قرينهم ويعدهم لجلاله أمثالا
لعب الغُرورُ به فضيَّع ملكه واعتاض منه مذلة وخبالا
وإذا أراد الله شرا بامرىء تبع الغواةَ وطاوع الجهالا

* * *

أخليفة يعطى البلاد وآخر يهوى القيان ويعشق الجريالا؟
أغرور مفتون وصبوة جاهل بئس (الخلائف) سيرةً وفعالا

فظائع الإنجليز فى مصر إبان الحرب العالمية الأولى

من قصيدة له سنة ١٩١٨ يندد بفظائع الإنجليز فى مصر إبان الحرب العالمية الأولى:

أيها الجند ظافرًا يتمشى … فى الجماهير معجبًا مختالا
يوم غاب الحماة واستصرخت مصـ … ـر تنادى الرجال والأبطالا
أقتلت الكماة فى الحرب غلبا[1] … أم قتلت النساء والأطفالا؟
أنصفى (الظالمين) يا (دولة الفا … روق) منا وعلمى (الجهالا)
علمينا كيف الحياة نُعا … نيها وصونى النفوس والآجالا
خففى الفتك إننا قد عيينا … ولقينا فى ظلك الأهوالا
إقبضى ظلك (المحبب) عنا … واجعليها عقوبة ونكالا

إلى أن قال يندد بغدر الاحتلال:

ماذكرنا لكم من الخير شيئًا … مارضينا لكم على الدهر حالا
نذكر الحكم ظالمًا مارأينا … فيه عدلا ولاوجدنا اعتدالا
نذكر العهد سيئًا ماعرفنا … فيه حرية ولااستقلالا
نذكر الشر والبلاء جميعًا … فاذكروا عهدكم وشدوا الرحالا
رصعوا(التاج)بالوفاء وحلوا … بحلى الصدق(عزه والجلالا)
لاتريقوا دم الضعيف عليه … وانظروه من فوقه كيف سالا
أكرموا التاج إنكم إن أبيتم … زاد فينا مهانة وابتذالا
طال عهد احتلالكم فحسبنا … أن يوم الحساب يدعى احتلالا

إلى أن قال منذرا الإنجليز بسوء العاقبة:

هل من الله مهرب أونجاة … حين يزجى جنوده والرعالا[1]
يأخذ البر والبحار عليكم … ويريكم نزاله والدحالا[2]
تلك عقبى الأذى فلاتنكروها … جاءكم يومكم فذوقوا الوبالا!

---

(١) غلبا، جمع أغلب.
(٢) الرعال جماعه الخيل.
(٣) الدحال. الامتناع.

فظائع الإنجليز فى ثورة سنة ١٩١٩

ومن قصيدة له سنة ١٩١٩ يندد بفظائع الإنجليز فى إخماد الثورة وما ارتكبوه من القتل والتنكيل بالأبرياء:

يا سوءَ ما حمل البريدُ ويا لها ... من نكبة تدع النفوس شعاعًا!
يا ربِّ ما ذنبُ الذين تتابعوا ... يسترسلون إلى المنون سراعًا
جرحى وما حملوا السيوف لغارة ... صَرْعىَ وما سألوا العدو صراعًا
قالوا (الحياة) فعوجلوا أن يقرعوا ... عند النداء بتائها الأسماعًا
(عزريل) نُبىء ما أصاب جموعهم ... فارتاب ثم رآهمو فارتاعًا!
مرأى يشق على العيون ومشهد ... يدمى القلوب ويقصم الأضلاعًا
لما أطل الظلم فيه بوجهه ... ألقى عليه من الحياء قناعًا
ودعا (بنيرون الرحيم) فما رنا ... حتى تراجع طرفه استفظاعًا
وصفو المصاب (لدنشواى) فكبرت ... (للمصلحين) مقابرًا ورباعًا
واستيقنت أن الأولى نكبت بهم ... كانوا أبر خلائقًا وطباعًا

* * *

يا مصر خطبُك فى الممالك فادح ... ومصاب أهلك جاوز المُسْتطاعًا
قومٌ يَروعهم البلاء مضاعفًا ... وتصيبهم نُوَب الزمان تباعًا
لاذوا بحسن الصبر حتى زلزلت ... هوج الحوادث ركنه فتداعى
حملوا القلوب تفور مما تصطلى ... وتمور مما تحمل الأوجاعًا
إن هاجهم طمع الحياة رمى بهم ... خطب يروّع منهم الأطماعًا
وإذا أرادوا نهضة نفرت لهم ... حمر خلا الوادى فكن سباعًا

* * *

سفكوا الدماء بريئة وتنمروا ... يرمون شعبًا لايطيق دفاعًا
لم يذكروا إذ نحن نبذل قوتنا ... ونظل صرعى فى البيوت جياعًا
بئس الجزاءُ وربما كان الأذى ... عدلا لمن يألو العدو قراعًا

جـاءوا فقـوم يضمـرون مـودة ورضى. وقـوم يـظهـرون خـداعـا
فتكـافـأ الحـزبـان فى حـاليهـا ومضت حقـوق العـالمين ضيـاعـا

إلى أن قال يهيب بالشعب أن يذود عن حقوقه بالمهج والأرواح والإقدام والشجاعة:

لايستقـلّ الشعبُ يتـرك حقـه ويـرى البـلاد تجـارة ومتـاعـا
يخشى العـدوَّ فلا يـطيق تشددًا ويهـال منه فـلا يـريـد نـزاعـا
إن الحيـاة لأمـة مقـدامـةٍ تعيى العـدو شجاعـة ومصـاعـا
تزجى إليه من الحفاظ جحافـلا وتقيم منـه معـاقـلا وقـلاعـا
إن شـامها فى الحـادثات تفـرقا عقـدت على خـذلانه الإجمـاعا
وإذا أراد بهـا المضيمـة أرهفت همـا يضيق بها الـدهـاة ذراعـا

* * *

ياربَّ مصر تولَّ مصر وهبْ لهـا شعبًا يريـد لها الحيـاةَ شجاعـا
لـو سيم يومـا أن يبيـع بـلاده بممـالك الـدنيا معًـا ما بـاعـا!

يرثي فريدا

من قصيدة له سنة ١٩١٩ يرثى محمد فريد:

أتـرى الكنانـة كيف تعبث بـالدم الله لـلشـهـداء إن لم تـرحـم!
أدنى المـراتب فى الصبابـة عنـدهم تلف المحب وطـول وجـد المغـرم
تـزجى تحيـتهـا فـيكـذب دونها أمـل الملول ومـطمـع المتبـرم
ضل امرؤ قتلتـه (مصر) فلم يصن عهـد الـولاء لهـا وحق المـنعم
معشـوقـة يجـرى مـع الـدم حبهـا فى قـلب نصـرانـيِّهـا والمسـلم
بعثتـه (مصـر) مجـاهـدًا ورمت بـه فـرمت بجيش للفتـوح عـرمـرم
خـاض الغمـار يهـدّ كـل كتيبـة ويهـز رايـات الـكمـى المعـلم
مـتـجـردًا لله يـطلب حـقـه ويقيـم جـانب شعبـه المتهـدم
فـإذا القيـاصـر بـالأرائـك تتقى وإذا الأرائـك بـالقيـاصـر تحتمى
كـل بـه فـزع وكـل جـازع يبقى القـرار ولا قـرار لمجـرم

إلى أن قال:

يــا سيـد الشهــداء بعـد رفيقــه ... أرضيت ربـك فى جهـادك فــاغنم

ليس الـذى بـدأ الجهــاد فلم يمت ... إلا كــبــادىء حـجــة لم تختـتم

والنـاس فى شرف الحيـاة وعـزهـا ... ضــدان من مـاض وآخــر محجم

وأجـل مـا رزق الـرجـال همـامـة ... تـنفـى غــرام المـطلب المتـهجـم

تتجشم الصعب المخـوف وعنـدهـا ... أن المنيــة مــركـب المتـجـشـم

مـأوى الممالـك والشعـوب ومـالهـا ... وصفــوك ظلمًا بـالغــريب المعـدم

لـك من يقينـك ثــروة إن قــدرت ... قيست كنــوز العــالمـين بـدرهم

إيمــان ذى الإيمـان أعــظم ثــروة ... ويقـينٌ ذى الوجـدان أفضل منجم

ضـج النعـاة فضـج كـل مـوحـد ... وارتــج مـا بــين الحطيم وزمــزم

ثم قال:

يا مصر حسبك مارضيت من الأذى ... وبـرئت من مـاضيـك إن لم تنقمى

إن التى رمت الممــالـك بـاعـدت ... بـين المضـاجـع والشعـوب النــوّم

الأر تــركض بـالشعــوب حثيثـة ... فـامشى عـلى آثــارهـا وتــرسمى

إن كــان قيـدك لم يحــلّ فــإنــه ... خلق المــريب وشيمــة المتــوهم

سيـرى فما بـك غير تلك ومـا بنا ... إلا مــراقـبــة الـعــدى والــلوم

* * *

يــا نــازحًــا لم نقض حق بـلائــه ... الله جــارك فــاغـتـبط وتـنـعـم

وانفضِ همـومـك عن فؤادك إننــا ... نلقى الهمــوم بكــل أغلب أضخم

إن المنـاكبَ والنفـوس بـأسـرهــا ... لـفــداء (مصــر) مـن المهـم المؤلم

مــاذا حفـظت لأهلهـا من حـرمـة ... وقـضيـت من حـق عليــك محـتم

حيتـك (مصر) عـلى البعاد فحيهـا ... ودعـت مسلمــة عليــك فـسـلم

جـاوزت حسن الصنع فى خـدامها ... وكفيت سـوء الـذكـر من لم يخـدم

كــذب المضلل لن ينــالــك سعيـه ... إلا إذا نــال الســمـاء بــســلم

أقسمت مـالـك فى جهـادك مشبـه ... والحــر مــؤتمـن وإن لم يــقـسـم

مـازلت تسرف فى المغـارم دائبًـا حتى جعلت النفس آخـر مغـرم
أى القـواضب بعد مـا قطع الـظبا ولـوى الأسنـة فى الـوغى لم يثلم
رددت صـوتى فى الـرتـاء وإنمـا رددت من صـوت الكنانـة فى فمى
حيتـك فى المـلأ العـلى وأزلفـت حـور الجنـان إليـك شعـر (مخـرم)
أسفى لأوبـة راحـل لم تقضهـا عـدة المـنى وتحيـة لم تـنـظم

ذكرى فريد

وقال سنة ١٩٢٢ فى ذكرى محمد فريد:

ألا فاذكروا من قـومنا كـل مقدام ففى هـذه الذكـرى حيـاة لأقـوام
وما الناس إلا الخالدون عـلى البلى وصـرف الليالى من هـداة وأعـلام
هُم ثـروة الأجيال لـولاهم انطوت عـلى فـاقـة مـا تستـطاع وإعـدام
إذا المـرء لم يعمل لمـا بعـد يـومه طـوى كل حىٍّ ذكـره بعـد أيـام

* * *

سـلامٌ على الحىّ المقيم وإن طـوى إلى المنـزل الأقصى ثـلاثـة أعـوام
على الكوكب الطافى على لُجَّة الردى إذا ما طوى الأقمار طوفانُهُ الطامى

* * *

ألا فاذكروا الأبطال وابتذروا الوغى وكـونوا أولى بـأس شديـد وإقدام
هى الـوثبـة الأولى وإن وراءهـا لما يستجيش الوثب من كل ضرغام

* * *

وقال سنة ١٩٢٥ من قصيدة له فى ذكراه:

جـددوا الـذكـرى لأهـل المشرق وصَـفـوا المجـدَ لـشعـب شيـق
يـعشـق المـجـد فـان لجّـت بـه لـوعـة الـوجـد تنحىّ يتّـقى
عَـلّمـوه كيـف يـقـضى حـقّـه نـابـه المـوقف حـرّ المصـدق
وأروه الـسـبـل نـارًا ودمًـا من يَهَبْ فيهـا المنـايـا يصعق
مـزقـوا الأوهـام عـنـه إنـه لـيـظنّ السـبـلَ من إسـتبـرَق

إلى أن قال:

يا (شهيد النيل) لو ناجيته ... لشفاه منك عذبُ المنطق
شاقه الصوت البعيد المرتمى ... والمقام الكسروى الرونق
وشجاه أن يرى صمصامه ... غير وضاح السنا فى المأزق
جاشت الأحداث تستقصى المدى ... وارتمت من كل صوب تلتقى

إلى أن يندد بانقسام الأحزاب وبمساوئ الحكم القائم وقتئذ (نوفمبر سنة ١٩٢٥) حكم الرجعية والسراى:

سائل الأحزاب ماذا عندها ... غير ترجاف وهَمٍ مقلق
وتأمل هل ترى اليوم سوى ... دولةٍ فوضى وحكمٍ أخرق
فات (نيرون) رجال رزقوا ... من فنون الظلم ما لم يرزق
لو جرى (فرعون) أو (هامانه) ... يتعاطى شأوهم لم يلحق
سجنوا الدستور طفلا ناعيا ... واستبدوا بالسجين الموثق
لاجرى (النيل) على الوادى ولا ... بورك الشعب إذا لم يُطلق

* * *

تلك ذكرى (النيل) للنفس التى ... عكف (النيل) عليها يستقى
هى عينٌ من حياة عذبة ... فى يفاع من سناء مشرق
فزعت مصر إلى أبطالها ... فالبس النقع وسِرْ فى الفيلق
سائل القوم أما من غضبة ... لذمام صادق أو موثق
لا أرى النجدة إلا فى الأُولىَ ... هم أولو العهد الأبر الأصدق
ننصر الله ونحمى أمة ... نحن منها فى الصميم المعرق
همة المقدام من آلائها ... وبيان العبقرى المفلق

الحالة السياسية سنة ١٩٢٥

فى سنة ١٩٢٥ عين اللود جورج لويد معتمدا (مندوبا ساميا) لبريطانيا فى مصر خلفا للمارشال أللنبى الذى استقال من منصبه، وقد حضر المعتمد الجديد إلى مصر فى أكتوبر

سنة ١٩٢٥، فنظم أحمد محرم قصيدة يخاطبه فيها ويحذره مغبة السياسة الاستعمارية، وفيها يندد بانقسام الزعماء وتنكبهم سبيل الإخلاص والسداد، ويهيب بالأمة ألا تقع فى شرك الاستعمار ومناوراته، وأن تصمد فى الجهاد. قال:

أتسأل مصر ما حمل (العميد) ... وهل عند الرماة لها جديد؟
هو السهم الذى عرفته قدما ... وجرّبَ وقْعَه الشعب الوئيد
تمرد مبدئ وطغى معيد ... ولم تزل الرميّة تستزيد
(مسيح الهند) إن بمصر شعبا ... يشق عليك إن خضع الهنود
فما نظر المسالم أين تبغى ... ولا عرف المساوم ما تريد
دع الزعماء إن لهم لَدِينًا ... يدين بغيره الشعبُ الرشيد
إذا ذكروا الزعامة فهى دعوى ... يكيد بها (الكنانة) من يكيد
ولا تبقى البلاد إذا أصيبت ... بمن يبغى الزعامة يستفيد
لمن تتألب (الأحزاب) شتى ... وما هذى الصواعق والرعود؟
تداعوا للوغى فهوى صريعا ... على أيديهم الوطنُ الشهيد
مضت أسلابهُ تُزجَى إليهم ... فمأتمة لدى الأقوام عيد
إذا ساد التخاذل فى أناس ... فأعوزُ ما ترى شعبٌ يسود

إلى أن قال:

عميدَ (الغاصبين) نزلت أرضا ... يبيد الغاصبون ولا تبيد
يذود الواحد القهار عنها ... إذا قهرت جنودك من يذود
أتذكر إذ لقومك ما أرادوا ... وإذ (لكرومر) البطش الشديد
تطوف جنوده فتصيد منا ... ومن سرب الحمائم ما تصيد
أتذكر (دنشواى) وكيف كادت ... جوانبها بأهليها تميد
تضج من العذاب ولا سبيلٌ ... إلى غير العذاب ولا مَحِيد

إلى أن قال مشيرا إلى طغيان كرومر وكيف أكرهته مصر على الاستقالة من منصبه:

سيوف الجند مظهر كل حق ... ورأى (كرومرَ) الرأى السديد
أتذكر إذ نعاتبه فيطغى ... ويهدر فى مقالته الوعيد[1]

---

(١) يسير إلى خطبته سنة ١٩٠٧ قبيل رحيله عن مصر وقد توعد فيها المصريين ببقاء الاحتلال

أخذناه بقارعة أَلَحَّتْ ... عليه فزال واشتفت الكبود
صدعنا ركنَه فانقضَّ يهوى ... وذاب الصخر أجمع والحديد
هوى جبلٌ من العدوان عالٍ ... وزلزل للأذى صرحٌ مشيد
ونحن القائمون بحق مصر ... إذا ما استسلم القوم القعود
ونحن المقبلون على المنايا ... إذا الأبطال كان لهم صدود
نضن بمصر إن عدت العوادى ... ولكنا بأنفسنا نجود
هى الذمم المصونة والعهود ... فما يبغى (كرومرُ) أو (لُويدُ)

* * *

أخا (السكسون) هل نبئت أنا ... جلاوذة لقومك أو عبيد
لقد كذبوا عليك فليس فينا ... لمن يبغى الهضيمة مستقيد
إذا سعت (الوفود) إليك فاحذر ... عواقب ما تقول لك (الوفود)
فما أحد بمالك أمر مصر ... وما بالشعب جبنٌ أو جمود
مضت دنيا القيود وتلك دنيا ... تُذَمُّ بها وتُحتقر القيود
حمينا ما حمى الآباء قدما ... وصان لنا وللنشء الجدود
بلاد ما تباع وباقياتٌ ... من الآثار معدنها الخلود

يدعو إلى اليقظة السياسية، ويندد بالتراخى فى الوطنية

قال سنة ١٩٢٧ من قصيدة فى (الشعر السياسى):

تسعى الشعوب ونحن فى غفلاتنا ... نأبى الفعالَ ونكثر الأقوالا
ركبوا متون العاصفات وشأننا ... أن نركب الأوهام والآمالا

* * *

يا باعثَ الموتى ليوم معادها ... تنساب من أجداثها أرسالا
أعد الحياة لأمة أودت بها ... غفلاتها فَثَوت سنين طوالا
وأضىء لها سُبُل النجاة ليهتدى ... من زاغ عن وضْح الطريق ومالا
وتولَّها بالصالحات ولقّها ... منك الأمان ووقها الأوجالا

وامنُن عليها من لدنك بقوة ... توهى القيود وتصْدع الأغلالا
واجمع على صدق الإخاء فضاضنا ... فلقد تفرق يمنة وشمالا
أودى بنا بين الشعوب تباغضٌ ... صدع القلوب ومزَّق الأوصالا
تستفحل النكبات بين ظهورنا ... ويزيد معضل دائنا استفحالا
الله يحكم فى الممالك وحده ... ويصرِّف الأقدار والآجالا

إلى الشعب

وقال سنة ١٩٢٧ فى هذا المعنى موجها الخطاب إلى الشعب:

ادفع بنفسك لا تكن متهيبا ... ما اعتز فى الأقوام من يتهيب
شرف الحياة وعزها لمغامر ... يمضى فلا يلوى ولا يتنكب
أشرع لأمتك الحياة ولا يكن ... لك فى حياتك غير ذلك مأرب

* * *

مصر الحياة وحبها الشرف الذى ... بطرازة الغالى أدل وأعجب
نفسى وما ملكت يداى لأمتى ... وسراة آبائى ومن أنا منجب
أبنىَّ إنك للبلاد وإنها ... لك بعد والدك التراث الطيب
شمِّر إزارك أن نُدبت لنصرها ... إن الكريم لمثل ذلك يندب
ما لمرء إلا قومه وبلادُه ... فانظر إلى أى المواطن تنسب
ليس التعصب للرجال معرّة ... إن الكريم لقومه يتعصب
للمرء من شرف العشيرة زاجر ... ومن الخلال الصالحات مؤدب

حكم التاريخ

مِنْ أنعُم التاريخ أن حسابه ... حق وأن قضاءه لا يُشجِب
تقف الخلائق تحت راية عدله ... فيقام ميزان الحقوق ويُنصب
فى موقف جلل تجيش جموعه ... فيداس فيه متوَّجٌ ومعصَّب
ملك الزمان فما لعصر موئلٌ ... يحميه منه وما لجيل مهرب

يخاطب النيل

يانيل والموفون فيك قلائل ... ليت الزعاف لمن يخونك مشرب
قُتل الوفاء فما غضبتَ وإنما ... يحمى الحقيقة من يغار ويغضب
تهب الحياة له وليس لقاتل ... فى غير حكمك من حياة توهب
مَن لى بشعب فى الكنانة لا القُوَى ... تنشق منه ولا الهوى يتشعب
متألب يبغى الحياة كأنه ... جيش على أعدائه يتألب
أين الرجال العاملون فإنما ... تبقى الممالك بالرجال وتذهب

وطن يعذب فى الجحيم

فلسطين الشهيدة

من قصيدة نظمها سنة ١٩٣٨ عن مأساة فلسطين:

لَبَّيْك يا (وطن الجهاد) ومرحبا ... لبيك من داعٍ أهابَ وثَوَّبا
لبيك إذْ بلغ البلاء وإذ أبى ... جدُّ الزمان وصَرْفه أن نلعبا
من ذا يرى دَمَهُ أعزَّ مكانةً ... من أن يُخضَبَ من (فلسطين) الرُّبَى
وطنٌ يُعَذَّبُ فى الجحيم وأُمَّةٌ ... أعْززْ علينا أن تُصابَ وتُنْكبا
بقلوبنا الحرَّى وفى أحشائنا ... ما شَبَّ من أشجانها وتلهَّبا
وبنا من الألم المبرِّح ما بها ... وأرى الذى نَلْقَى أشدَّ وأصعبا
نتجرَّع البلوى وندرَّع الأسى ... نرعى لإخوتنا الذِّمام الأقربا
إنا لنعلم أن آكل لحمهم ... سيخوض منا فى الدماء ليشربا
جعلوا الكفاح عَن العروبة حرثهم ... وتعهدوه فكان حرثًا طيبا
يَسْقون مازرعوا دمًا فى مخصب ... لولا الدمُ الجارى لأصبح مُجدبا
(البيتُ) يَطْربُ من أنين جراحهم ... أرأيت فى الدنيا أنينًا مطربا؟

وقال يحمل ساسة بريطانيا وأمريكا مسئولية مأساة فلسطين:

إن الذى زعم السلام مُرادُه ... جعل الدماء سبيله والمركبا
إن كان قد غَمَرَ الزمانَ وأهلَه ... كذبًا فمن عاداته أنْ يكذبا

أرأيت إذ سكب الدموع غزيرةً ... يأبى الحياء لمثلها أن يُسكبا
متصَنِّعٌ باسم الضعيف يُريقُها ... وهو الذى تَرَك الضعيف مُعَذَّبا
ما كان أصدق نُسْكه لو أنه ... رحمَ البرىءَ ولم يُحاب المذنبا
يَهْذِى بذكر العدل فى صلواته ... أرأيت عدلا بالدماء مُخضَّبا؟

وقال يهب بالأمم العربية أن تهب لنجدة فلسطين:

رُسُل العروبة هل أسيتم جُرَحها ... ما باله استعصَى وماذا أعقبا؟
جُرْحٌ تقادم عهده وتفتحت ... أفواهه تدعو الأساةَ الغُيَّبا
أنتم أُساةُ الجُرْحِ فاتَّخِذُوا له ... مِنْ طِبِّ شَيْخٍ أُساتِكُم ما جَرَّبا
وصفَ الدواءَ لكم وخَلَّفَ عِلْمه ... فيكم فأين يريد منكم من أَبَى؟

* * *

ياقومُ لستم بالضعاف فغامروا ... وخذوا مطالبكم سراعا وُثَّبا
أفما كفاكم قوةً من دينكم ... ماجَمَّعَ الإيمان فيه وألَّبا
يا(آلَ يَعْرب)مَنْ يريني(خالدا) ... يُزْجِى الخميس ويستحث المِقْنبا
من شاء منكم فَلْيَكُنْهُ ولايقل ... ذهب القديمُ، فإنه لن يذهبا
السِّرُّ باقٍ والزمانُ مجدَّدٌ ... والسيفُ مافقد المضاء ولانَبا

* * *

رُدُّوا المظالم عن محارم أمة ... رُدَّت ظنون ذوى الجهالة خُيَّبا
لم يَعْطِ أوطانَ العروبة حقها ... من كان يطمع أن تُبَاعَ وتوهَبا

يشفق على الفلاح

ومن قصيدة له بعنوان (رحلة عابسة) سنة ١٩٤٠، وقد مر ببعض القرى وتحركت شاعريته إشفاقًا على الفلاح. قال:

وَيْلى على فلاح مصر أماكَفَى ... ما ذاق من عنتٍ ومن إرهاق
يُغنى ألوف المترفين بماله ... ويعيش فى فَقْرٍ وفى إملاق
سبحان من شرع السبيل لخلقه ... أكذا يكون تفاوت الأرزاق؟

أحمد نسيم

١٨٨٠ - ١٩٣٨

شاعر مبدع، من أعلام الشعر الوطنى، يمتاز بجذالة الأسلوب، وتدفق المعانى والأحاسيس الوطنية فى قصائده، لا يقل شعره رواء وحسن ديباجة عن شعر شوقى وحافظ وأحمد محرم.

ولد سنة ١٨٨٠، واعتنق منذ صباه مبادىء الوطنية، وتجلت مواهبه الأدبية وهو فى سن مبكرة، فامتزجت الوطنية بروحه الشاعرية، وتمشت فى قصائده الغر، وأضفت عليها جمالا ورونقا وبهاءًا، وجعلت لها رنينا موسيقيا يأخذ بمجامع القلوب.

سمى (شاعر الحزب الوطنى)، واعتز هو بهذا اللقب، وسجله فى ديباجة ديوانه الذى ظهر فى جزءين سنة ١٩٠٨ وسنة ١٩١٠، وأهداه إلى المرحوم محمد فريد زعيم الحزب الوطنى إذ ذاك، قال فى كلمة الإهداء:

رئيسى المحبوب

«أما بعد فإنى أتشرف بإهداء الجزء الثانى من ديوانى إلى سعادتكم لاحتوائه على القصائد الوطنية التى نظمتها ما بين سنتى ١٩٠٩ و ١٩١٠ ميلادية، وقد اعتمدت فى نقلها على الصحف التى تفضلت بنشرها مبقيا ديباجتها كما هى حتى لا يغرب عن ذهن القارىء على مدى الأيام وصف الحادث الذى نظمت القصيدة بسببه».

«وإنى إذا أهديت ديوانى إلى سعادتكم فكأنى أهديته إلى الأمة المصرية التى يمثلها حزبكم الموقر».

أحمد نسيم

شاعر الحزب الوطنى

ويعدّ نسيم ثانى الطبقة الأولى من شعراء الحزب الوطنى، وأولهم أحمد محرم، وثالث الثلاثة المعاصرين أحمد الكاشف الذى سنتحدث عنه فيما يلى، وجميعهم تبدأ أسماؤهم (بأحمد).

وتبدو مكانة نسيم الممتازة فى عالم الشعر من قول إسماعيل صبرى شيخ الشعراء فى تقريظ الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠٨:

لـكَ فى الشعـر يـا (نسيمُ) معـانٍ   بـاهـراتٌ تحـار فيهـا العقـولُ
كُـلُّ بيـت يُـطلُّ منـه علـى أفـهـام أهـل النُّهـى مُحيًّـا جميـل

ولما ظهر الجزء الثانى سنة ١٩١٠ قرظه صبرى أيضًا ببيتين آخرين رقيقين قال:

أىُّ غُصْنٍ فى الـرَّوْض هَزَّ (نسيمٌ)   نُـثِـرَتْ منـه هـذه الأزهـارُ
حـبـذا شعـره الجـنىّ وأهـلا   ببيـان تُـزهَى بـه الأشعـارُ

يؤيد مصطفى كامل فى قطع علاقته بالخديو

قال نسيم مخاطبا مصطفى كامل بمناسبة كتابه إلى الخديو عباس الثانى بقطع علاقته به سنة ١٩٠٤:

خطيبَ الشرق لا تلوى العنانا   فـأنت المـرء أوقـرهم جنـانـا
وأمضـاهم إذا كـتبـوا يـراعًـا   وأذلـقهـم إذا نـطقـوا لسـانـا
لـقـد دافعتَ دهـرًا عن بـلاد   قـد افتخـرت بمـدرهِهَا زمـانـا
وكم رُمتَ العـلاء لقَـوْم مصـر   وكنت أشـد من فيهـا جنـانـا
بـقـلب عـافَ أرزاءَ الـليـالى   كـما عـافَ المـذلـة والهـوانـا

***

وجـانبتَ الأمـير وأنـت تنـوِى   فعـالا لا يكـون بهـا مُـدانـا
وكم من فُـرقـة صعبت فهـانت   وكم من طـارىء أخنى فهـانـا
فـزِدْنـا مصـطفى وازدد ثبـاتـا   يَـزِدْك القـوم شكـرًا وامتنـانـا
مـدحـتـك لا لجـائـزة ولـكـن   وجـدتك خـير من يُهـدَى البيـانا
هـدية شـاعـر ا ظـل يُـطرى   ويمـدح فيـك أخـلاقـا حسـانـا
فكن للشـرق سـاعـده المرجّى   تـزرك قصـائـدى آنـا فـآنـا

يهاجم المعتمد البريطانى

ومن قوله سنة ١٩٠٧ مخاطبا اللورد كرومر لمناسبة رحيله عن مصر بعد خطبته التى هاجم فيها المصريين والإسلام:

يا لورد هل لك فى الإسلام من غرضٍ ترمى إليه بسهم منك مسنونِ ؟
هجوتَ قومى وما فارقت أرضَهم حتى تجرأتَ أن تنحى على الدين
رأيتُ أنك لست المرء تصلحنا ولست فينا على مصر بمأمون
غادرتها وهى للتقرير صارخَةٌ إلى الإله بقلب منكَ محزون
فلا رماك الحيا إلَّا بداجنةٍ تهمى عليك بزقّوم وغسلين

يمجد الشرق ويحزن لحالته

قال يمجد الشرق ومصر ويحزن لحالتها:

تَداعتْ رواسى الشرق فانهار جانبه وما همَّ حتى أقعدته نوائبهْ
تحاربه الأعداء من كل جانب ولم يكفهم أن الزمان يحاربه
تحدّ على هاماته شفراته وترهف فوق الناصيات قواضبه
وحسبك أن الشرق فى كل أمة مآثره مشهورة ومناقبه
تخرَّج منه الفاتحون لأرضه فماجت به بطحاؤه وسَبَاسِبُهْ
وكم كان للشمس المضيئة مطلعا أفق معالٍ لا تغيب كواكبه

إلى أن قال:

وما الشرق إلَّا موطن عبثت به على غرة أبناؤه وأجانبهْ
أضاعوا حمىً يجرى النضار بأرضه وتهمى عليه باللجين سحائبه

يهاجم أسرة محمد على

وقال سنة ١٩٠٨ يخاطب مصر ويهاجم أسرة محمد على وهى فى إبَّان سلطانها:

رَثَيْتُكِ يا أرض الفراعنة الألى قضوا فى بلوغ المجد ما الحقّ واجبُهْ
ورثتِ بفضل العلم عزًّا ممنّعًا فما بات إلَّا وابن غَيركْ غاصبهُ

ولا خير فى عرشٍ من الغرب رَبُّه ... ولا خير فى مال من الغرب كاسبه
أفيقى فما فى الجهل إلّا مذلة ... ولا العلم إلّا سؤددٌ عزَّ صاحبه
أنيرى ظلام الشرق بعد انسداله ... فعند طلوع الشمس تجلو غياهبه
ولا تقنطى من رحمة الله مرةً ... إذا شيم من برق انخذالك خالبه
وددت بلادى أن تسود بنفسها ... لأكتب فيها خير ما أنا كاتبهْ!

يدعو الأمة إلى الجهاد

ومن قوله سنة ١٩٠٨ يدعو الأمة إلى الجهاد والذود عن حقوقها واستقلالها:

هَلُمّ ندافع جهدنا عن بلادنا ... دفاعَ كماة أو ضراغم غاب
كذلكم الرئبال تعروه سورةٌ ... إذا احتّلَّ يوما خيسه بذئاب
ومن فقد استقلالَه عاش هَينا ... يسام صنوفا من أذىً وعذاب
هلم نَخُضْ غمر الصعاب إلى العلا ... ونفرقْ من الإقدام كلَّ عُباب
عسى يسعد الجد الذى مال نجمه ... وتشرق شمس المجد بعد غياب
ألم نَكُ كاليونان أهلاً لمجلس ... يدافع عنا عند كل مصاب
ألم نَكُ كالبلغار والصرب فى الحجا ... وأخصب منهن اخضرار جَناب
ألم نك أرقى من ممالك لم تقم ... لدأبٍ ولم تهمم لأىّ طلاب
أليست بلاد النيل أوَّلَ أمة ... أماطت عن العرفان كل نقاب
علومٌ وأخلاقٌ وفضلٌ وهمة ... وتذليل أوعارٍ وذكُّ صعاب

وقال يفند مطاعن كرومر على المصريين:

فحتَّام ذيَّاك العميد ينوشنا ... بناجذ سرحان وظفر عقا
فطورًا يعادينا بتقرير كاشح ... وطورًا يناوينا بنشر كتاب
وياليته ردَّ الدليل بمثله ... وخفَّض من طعن له وضراب
إذا عجز المقهور عن قهر خصمه ... لدى البطش لم يلجأ لغير سباب

يرثى مصطفى كامل

وقال سنة ١٩٠٨ فى رثاء مصطفى كامل من قصيدة تزيد على ستين بيتا:

ما بال دمعكَ لا هامٍ ولا جارى ... هل اكتفيت بما فى القلب من نار؟

جفَّت دموعك من عينيك واستترت ... فيهـا لـواعـج أحـزان وأكـدار
ضـاع الصواب ونفس المرء ساهمـة ... مـا بـين أقضيـةٍ تجرى وأقـدار

* * *

يا طائرَ البين لا قـرَّبت من سكنٍ ... ولا هـدأت بـأفـنـان وأوكـار
نعيـتَ خـير فـتى كـنـا نـؤمـلـه ... يـوم الـرجـاء لأوطـان وأوطـار
فليمـرح الذئب مـا شاءت مهـانته ... فقد غَفَتْ عنه عَيْنُ الضيغم الضارى
لا أيَّـدَ الله أعـداء أذلَّهُـمُ ... حتى أقـامـوا بـدار الـذل والعـار

* * *

يا بائع الصبر إن النـاس فى جزع ... فبـع لهم كـل مثقـال بـدينـار
مـا زال يـدأب حتى خـانـه قـدرٌ ... ألقى عليـه عصـا دأب وتسيـار

وقال يصف الجنازة واحتشاد الجموع فيها:

أعـززْ عـلى حـامليـه فـوق أعينهم ... أن يـرجعـوا بـأكف منـه أصفـار
كـأنمـا النعش عـرشٌ زانـه مَلكٌ ... يمشى الهـوينـا بـإجـلال وإكبـار
كـأنما النـاس حول النعش مـائجةٌ ... أمـواج مضـطرب الآذىّ زخَّـار
فلو يعـدُّون مـا أوفى بهـم عـدد ... كصيِّب القـطر لا يحصى بمقـدار
كـأنمـا لجب البـاكـين مـن هلع ... هـزيم رعـد أجشُّ الصـوت هـدَّار
كـأنما الأرض قـد سدَّت طـرائقها ... بـالنـاس من ثـابت فيهـا وسيَّـار

ومن قصيدة أخرى له سنة ١٩٠٨ فى رثائه:

أمَـلٌ نـأى عن أرض مصـر وزالا ... أصْمَى القلوبَ وقـطَّعَ الأوصـالا
يـا نـائبًـا عنـا وكنت محسَّـدًا ... فينـا كـما كنت الشـريف فعـالا
مـدَّت إليـك يـد المنـون فـأنشبت ... بـقلوبـنـا قضـبـا لهـا ونصـالا

إلى أن قال:

إنـا سنبقى ذكـر فضلك خـالـدا ... لنكـون فى صـدق الـوفـاء مثـالا
قـد كنت أفضل من يـذود لسـانُـه ... عنـا وأصـدَق من يقـول مقـالا
فليسْقِ شؤبوبُ الحَيَا لـك موحشـا ... قـد ضـم مجـدًا بينـه وجـلالا

يؤيد فريدًا فى جهاده

قال سنة ١٩٠٨ مخاطبا محمد فريد رئيس الحزب الوطنى مؤيدا له فى جهاده:

إجهر برأيك إن الحق قد غَلَبا ... هذا يراعُك يحكى السيف ما كتبا
أرى المضلين قد زاغت بصائرهم ... ومن يظن الدجى صبحا فقد كذبا
سِرْ فى طريقك لاتحفل بذمِّهم ... ولا يهزك مغرور إذا غضبا
لاأنت ترجو افتقارًا منهم نشَبًا ... ولا تؤمل مِن إحسانهم رُتَبا
لازلت بالحق بين القوم تخذلهم ... حتى تراهم وكُلٌّ فى الوغى هربا
فاهزم كتائبهم وافلل مضاربهم ... واسلل يراعك واكتب عنهم العجبا

يندد بوزارة مصطفى فهمى

وقال فى نوفمبر سنة ١٩٠٨ يندد بوزارة مصطفى فهمى على أثر سقوطها، وكانت موالية للاحتلال:

ما للوزارة ذات الضعف والفشل ... باتت على دارس أعْفَى من الطلل ؟
وزارة بلغَت بالوهن غايتها ... فى كل نائبة أو حادث جلل
ترحلت غير مبكّىٍ على أحد ... وودعت غير مأسوف على رجل
إن زال مجد الفتى أو زال منصبه ... فذكره بعد فى التاريخ لم يزل
يا هيئة الصُّمِّ بِبِنىٍ غيرَ راجعة ... إلى جمودك فى أيامك الأول
وزارة مالها فى الخير صالحة ... ولا على صولة الأيام من قِبَل
كانت تماثيل بين القوم قائمة ... بلا لسان ولاقلب ولاعمل

يندد بالخديو عباس

وقال فى ديسمبر سنة ١٩٠٨ حين تنكر الخديو عباس الثانى للحركة الوطنية، وحيل بين جموع الشعب والأقتراب من موكبه لمطالبته بالدستور:

خطوبٌ ما لها أبدًا نصير ... وأمر حل فى مصر خطير
لئن كُرهت حياة الشعب يوما ... فخير لو تفتحت القبور

* * *

أيـــاربَّ الأريـكـــة قـــد رضـينـــا ... بـــأنـــك لا تُـــزار ولا تـــزور
وهَبنْــا نـطلب الـدستـور جهــرا ... ألا يــرضيــك ذيَّــاك الشعــور؟
أغـيـــرك فى المـلوك وأنـــت أدرى ... لــه شعبٌ عــلى البلوى صبــور؟
فهـل خـدعتـك فى البهتـان نـــاس ... أرادوا أن يـســوء بـنــا المصـير؟
(أمـــور يضحـــك السفـهـــاء منهـــا ... ويبكـى من عـــواقـبهـــا الخـبــير)

يمجد الوطنية فى رأس السنة الهجرية

وقال سنة ١٩٠٩ فى الاحتفال بعيد رأس السنة الهجرية (١٣٢٧) الذى أقـامته لجنـة الحزب الوطنى الفرعية ببولاق بمدرسة الشعب يمجد الوطنية ويخاطب فريدًا:

قـــد مـثلونــا فى الـتعـصـب مـثلما ... قـــد شـــاءت الآثـــام والأوزارُ
كـذبٌ قـد أبتــدعـوه حتى مـــا لهم ... فى مـصــر إلّا الكـيــد والإضــرار
بـانَ الضـلالُ من الهـدى وبـدا لنـا ... فى مـنهــج الحَقِّ الـقــديم مـنــار
يـــا أمـة ثبتت عـــلى كيد العــدى ... لا تجـزعـى إن الثبــات فـخــار
سيـــرى إلى طلب (الجــلاء) ولاتنى ... تمنـــحْ من العليــاء مـــا تـختـــار
أفـــريـد لا تخـذل بـلادك بعــدمـا ... جُمعت لــديــك أولئـك الأنـصـــار
هـذى الشبيبـة قـــل لهـا لا تحجمى ... مـــافى ثـبــات المقــدمــين شنــار
لـك من يـراع الكــاتبـين صــوارم ... ولـــديـــك مـنهم جـحـفــل جــرار
تـرمى العداة إليـك سهم سمـومهـا ... ويــذود عنـك الــواحـــد القهـــار
دعهم كـــما شــاءوا ليــوم حســابهم ... فـلهم كـــما شـــاء الهــوى أطـــوار
إنـا قـد اختـرنــاك خـير مـدافــع ... يـــرضـى بـــه الـــرحمن والمـختـــار

وفى سنة ١٩١١ ألقى قصيدة أخرى فى تحية السنة الهجرية (١٣٢٩) بالاحتفال الذى أقامته الطلبة لهذه المناسبة بدار التمثيل العربى يوم أول يناير سنة ١٩١١، وقد حضره المرحوم محمد فريد، وأشار الشاعر فى مطلع قصيدته إلى مـا أصاب الحـركة الوطنية من اضطهاد فى العـام السابق. قال:

تَجـلَّى العــام فـــاستجلْوا الهـــلالا ... فـــإنى شِمْـتُــه لــلسعــد فـــالا
ســأطــريــه متى عـــزّت بـــلادى ... وقـــد رُزقــت كـــما رُزق الكـمـــالا

وأمـدحـه مـتى قـمـنـا بمـصـر ... وأرجـعـنـا لهـا ذاك الجـلالا
فـأمـا والـبـلاد وسـاكـنـوهـا ... يـزيـد الـدهـر حـالتهم نكـالا
فـلست بـنـاظم فـيـه قـريضـا ... ولا أنـا قـائـل فـيـه مقـالا

* * *

إلا نـطالـب الأعـوام خـيـرًا ... ولم تـنـعـم لـنـا الأعـوام بـالا؟
تمـر وتـنـقـضـى مـنـهـا لـيـال ... بـأرزاء الـزمـان غَـدَتْ حُبـالى
وتـلك ممـالـك الإسـلام كـادت ... صـروف الـدهـر تخبلهـا خبـالا
فلست أخصهـا بـالـذكـر عنـا ... ونـحن مـن الـبـلاء أشـد حـالا

* * *

أيـا عـامـا تـقضـى بئسَ سـهمٌ ... رميت بـه الـغـوائى والـرجـالا
فقـالـوا هـل صـروف الـعام كـانت ... نـزاعًـا قلت بـل كـانت نِـزالا
همـومٌ لـو رَشَـقْـت بهـا فـؤادًا ... لـكـانـت فى جـوانـبـه نـبـالا
لـقـد حمّلتـنـا لـلضـيم عـبئـا ... ثـقيـلا لا نـطيق لـه احتمـالا
وقـد أجـريت دمـع القـوم حتى ... كـأنـا كـلنـا قـوم ثـكـالى
ولـولا ذكـر أحمـد[1] كـل عـام ... لمـا صُغْنَا لـك الـذكـر الحـلالا

المضى فى الجهاد

أرى فِـرَقًـا قـد افتـرقت بمصـر ... ورامـت عن أواصـلهـا انفصـالا
أنـاس أخلصـوا من بـعـد زيـغ ... وثـابـوا بعـد أن ألفـوا الضـلالا
وأقـوام قـد أرتـدوا جـهـارًا ... فـسـاءوا فى عـواقـبـهـم مـآلا
وقـال الـنـاكصـون كـفى غـلوًا ... وإلّا ذقـتـم مـنـه الـوبـالا
خـلائـق فى المـكـارم لم يمـدوا ... يمـينـا لـلفـعـال ولا شـمـالا
أولـئـك عصبـة بـالخـزى بـاءوا ... فسمّـوا الخـزى والجبن اعتـدالا

---

(١) يقصد الرسول ﷺ.

وقال يخاطب الشباب:

أنـابـتـةَ الـبـلاد وخـيرَ نشء ... غَـدَوا لـلنشء بعـدهـم مثـالا
عـليكـم بـالإخـاء ولا تَـفَـلوا ... عـرى القُـربَى فتنخـذلـوا انخـذالا
سيـنـدب حـظه الـوطن المفـدى ... إذا لم تحسنـوا عنـه الـنضـالا
فـجـدّوا فى عـلومـكـم صـغـارا ... ولا تشكـوا السـآمـة والكـلالا
فـمن رام الكـواكب والـدرارى ... بـلا عـلم فـقـد رام المـحـالا
وإن صـرتم رجـالَ النيـل يومـا ... فـلا تـنسـوا بـربكم القتـالا
وذودوا عنـه مـا اسـطعتم بـرأى ... حصيـف واجعلوا الحسنى جـدالا
ومـا زال الـرئيس[1] لكم كفيـلا ... عـلى رغم الخـطوب ولن يـزالا
وكـونـوا لـلأجـانب خـير عـون ... تـزيـدوا عـروة الـود اتصـالا
إذا عـشـتـم وإيـاهـم بـخـير ... مَحَـوْتم عنـكـم قـيـلا وقـالا
لقـد أوجـزت خيفـة أن يقـولـوا: ... نـسـيم فى قـصـيـدتـه تـغـالى

الجهاد فى سبيل الدستور

وقال يستحث الأمة على طلب الدستور وعلى الاتحاد والثبات فى ميدان الجهاد:

فلاتفكوا عـرى القُرْبَى ولـو رجعت ... عنكم شفـار الظبـا مخضـوبـةً بـدمِ
ولاتضيعـوا من الـدستـور فـرصتـه ... فتقـرعـوا السنّ من ذلٍ ومن نـدم
إن تيـأسوا فـانتهاء اليـأس مسكنـة ... أوتسـأموا فـاحتمـال الـذل فى السأم
مـا نـال قط المعـانى وهى دانيـة ... قـومٌ نيـامٌ وشعـبٌ غـير مـلتئم
خـيرٌ لنا المـوت من عيش نكـابـده ... مـع الهـوان إذا كـنتـم ذوى شمـم

ذكرى مصطفى كامل

وقال فى فبراير سنة ١٩٠٩ فى ذكرى مرور العام الأول على وفاة مصطفى كامل، وقـد ألقى

---

(١) يريد الزعيم محمد فريد وكان حاضرا الاحتفال. وكانت النيابة العامة قد استدعته لاستجوابه فى تهمة صحفية باطلة، ثم أحالته إلى محكمة الجنايات، وقد حوكم فعلا وقضت عليه المحكمة ظلما فى ٢٣ يناير سنة ١٩١١ بالحبس ستة أشهر.

هذه القصيدة فى دار اللواء بين يدى محمد فريد وأعضاء الحزب الوطنى قبل أن يتحرك موكب الذكرى بالمسير:

مـا بـال عينـك بـالمـدامع تسجمُ — رِفْقًـا بنفسـك فـالـقضـاء محتم
قـد عادت الـذكرى فجـدَّدَ عودُهـا — بـين الحشـا جـرحـا يثـور فيؤلم
يـا يـوم كـامـل كنت يـومًـا قـاتمًـا — كـالليـل أقبـل وهـو أسـود أقتم
يـايـوم لا كـانت طـلائعـك التى — بـالنحس أنـذر وجههـا المتجهم

وختمها بقوله مخاطبا محمد فريد:

أفـريـدُ يـا ابن الأكـرمـين تحيةً — من شـاعـر لعقـود مـدحـك يَنْظِمُ
أفـريـد يقـرئُـكَ السلامَ معـاشـرٌ — مـدُّوا إليـك يـد الـولاء وسلَّمـوا
حصَّنت بيضتـهم وصنتَ ذمـارهـم — بعـزيمة قـد أصغَرت مـا استعـظمـوا
رَكبـوُا مـطايـا الحـزم نحـو رئيسهم — إذْ أنـت بـينهـم الأجـلّ الأحـزم
فـاضـرب بـرأيـك فى مـواقفَ جمة — فـالـرأى فى بعض المـواقف مخـذم

يهاجم الاحتلال فى إبان سلطانه

قال سنة ١٩٠٩ من قصيدة يحمل فيها على الاحتلال ويفضح نكثه بعهوده ويستنهض الهمم للجهاد، وقد بدأها يستصرخ الإنسانية لتمد إلى مصر المكافحة يد العون والتأييد، وهى من عيون الشعر الوطنى:

يـا نَـاشِـرينَ لـواء العـدل فى الأمم — الله فى أمـة أنـت مـن الألمِ
مُـدُّوا إلينـا يـدا بيضـاء نشكـرهـا — عنـد التحـدث شكـر الـروض للدِّيمِ
إنَّـا مُـنينـا بـأقـوام جـبـابـرة — مـا بـين مغتـصب منهم ومحتكم[1]
لـو استـطاعـوا لساقـونـا أمـامهم — مـا بـين متَّهـم منـا ومجـتـرم
جـاءوا إلـينـا وفى أيمـانِهم سـرف — يـوِّهـون بـه فى العهـد والـقسم
قـالـوا لنـا: إننـا جئنـا بـلادكم — نـبنى لـكم ركـن مجـد غـير منهـدم
حتى تخـدرت الأعصـاب وانسـدلت — عـلى العقول سجـوفُ البطل والـوهم
ولم يـزالـوا عـلى هـذا الـدعـاء وهم — لايقصـدون سـوى الإخمـاد للهمـم

---

(١) يريد المحتلين.

حتى إذا انتبهت منا جوارحُنا ... وأدرك الحالَ فهمُ الحاذق الفهِم

حَكّوا القلوب فأذكوها ورُبّتما ... أدّى إلى النار حكّ البارد الشيم

فلا عهود لهم ترعى ولا ذمم ... كما استباحوا الدينا النكث فى الذمم

صبّوا على مصر سَوْطا من تعنتهم ... وأججوا فى حشاها جَمْرَ بَغْيهم

هم أحرجونا بهذا الضيم من زمن ... فإن هممنا بدفع الضيم لم نُلَم

* * *

ياقائمين بأمر النيل حَسْبُكم ... ما أحرج القوم من ظلم ومن غشم

ناموا هنيئًا قريرى العين أن لنا ... عَيْنًا من الشعب لم تغفل ولم تنم

وقال فيها يدعو الشعب إلى الاعتماد على نفسه:

أنتَ ياشعب وادى النيل كن حَكَما ... فليس غيرك من مستنصف حكم

كم أمة حكمت فى مصر وارتحلت ... عنها حليفة جد بعد لم يقم

سَلْ أمة الروم هل أبقت لنا أثرًا ... يبقى على الدهر أو سَلْ أمة العجم

مضوا ولم يتركوا فى مصر مأثرة ... ينبيك عنها لسان النيل والهرم

هذى عجائب هذا القطر من زمن ... وتلك حالات وادى النيل من قدم

يحيى جريدة العَلَم

قام فى سنة ١٩١٠ خلاف على ملكية (اللواء) بين بعض ورثة المرحوم مصطفى كامل، طرح أمره أمام القضاء، وعين حارس قضائى على اللواء، وكانت صحيفة الحزب الوطنى، وأراد الحارس أن يتدخل فى تحريره وتوجيه سياسته، فرفض المرحوم محمد فريد هذا التدخل، وأنشأ جريدة (العلم) وجعلها لسان حال الحزب الوطنى، وابتدأ ظهورها يوم ٧ مارس سنة ١٩١٠، فحياها نسيم بقصيدة بديعة، قال:

ألَا فليخفق (العَلَمُ) الجديد ... يمينا إن طالعه سعيد

أيا عَلَم البلاد عليك منى ... سلامُ الله ما خفقت بنود

أرى الأعلام معلقُها بناءٌ ... ومعقِلك الجوانحُ والكبود

بِرَبك خَبرِّ الأقوام عنى ... بما تنوى الوزارة والعميد[1]

---

(١) وزارة محمد سعيد والعمد إلدون جورست معتمدا بريطانيا.

رفعتَ لنا وبالأبصار شك … من الشبهات والأيام سُودُ

فجئنا من لدنك بكل فأل … تحدّاه التيمّن والسعود

وإن كنا نرى الأعلام شتى … فأنت وربِّك العَلَم الفريد

* * *

أيا(عَلَم) البلاد أرى احتلالا … كأنا عنده نفرٌ عبيد

أصرّ على الجفاء ونحن شعب … أضرّ به التعسف والوعيد

وكم من جذوة فى القلب شبت … فلم يدرك تأججُّهَا الخمود

فقل لهم أثيروا كل عسف … فريحُ العاسفين لها ركود

متى ينأى احتلال النيل عنا … وتصدق منه هاتيك الوعود؟

قَضَوْا فينا بما شاءوا وصدُّوا … كما راموا فهل نفع الصدود؟

لقد فرحوا بما أوتوا فجاروا … وللباغى إذا عقلوا حدود

ضروب فى المكايد يوم تُحْصَى … عليهم ليس يحصيها العديد

وكم ودّوا الشقاء لأهل مصر … كما شقيت بظلمهم (الهنود)

مكايد يفزع التاريخ منها … ويصدف عن إعادتها المعيد

* * *

أقول الحقَّ لا أخشى انتقاما … يَهمّ إليه (طاغيةٌ) مريد

أإنْ أنَّ المضيمُ فقال رفقا … تُشدُّ له السلاسلُ والقيود؟

إذا مدّوا حبال السوء يوما … فإن الله يومئذ شهيد

* * *

أيا(عَلَم) البلاد إليك شعرا … تردده التهائم والنجود

ودونك عقد نظمى من جمان … ومن درر يقال لها قصيد

يريد الشامتون بنا نكالا … (ويأبى الله إلاّ ما يريد)

فكن فى الحق مثل الحق يمضى … يكُنْ لك بينهم بأسٌ شديد

ولا تتْبع هواهم بعد عِلْمٍ … يضلوا فى الغوالاة أو يزيدوا

فليس بنافع فيهم رشاد … ولا من بينهم رجل رشيد

إلى الزعيم محمد فريد فى سجنه

فى سنة ١٩١١ حوكم الزعيم محمد فريد أمام محكمة الجنايات بتهمة أنه حبّذ الجرائم وأهان الحكومة إذ كتب مقدمة لكتاب (وطنيتى) الذى تضمن قصائد نظمها الأستاذ على الغاياتى، ومع أن هذه المقدمة كتبها الزعيم دون أن يطلع على محتويات الكتاب وقبل أن يتم المؤلف وضعه ثم سافر الزعيم إلى أوروبا فى مايو ولم يظهر الكتاب إلاّ فى شهر يوليه، وليس فى المقدمة ما يقع تحت أى نص من قانون العقوبات. ومع ذلك فقد أقامت عليه النيابة الدعوى العمومية، وكان الغرض من محاكمتة إرهابه وتهديد أنصاره واضطهاد الحركة الوطنية، وقد حكم عليه فى ٢٣ يناير سنة ١٩١١ بالحبس ستة أشهر فى هذه التهمة الباطلة، ونفذ فيه الحكم يوم صدوره.

فنظم أحمد نسيم قصيدة من روائع الشعر الوطنى بعنوان (إلى الرئيس فى سجنه) حيَّاه فيها أبلغ تحية، وعبر عن الشعور العام بإزائه أصدق تعبير، قال:

يــاليتَ سجنــكَ لم يكــن بمقــدَّر ... فـاصبرْ عـلى المقـدور ستـة أشهـر
قــد جــلَّ رزءُ الشعــر حتى خلتُــه ... بعض الـرثـاء وأنـت لمـا تـقـبر
لــولا احترام الحــاكمـين وحكمهم ... لجعلتـه مثـل الشـواظ الأحمـر
أقْصَـرتَ فى مــا قلتَ حتى لم تَسَــلْ ... أمقصـرا أم كـنتَ غـير مـقصـر[1]
وتــركـت أقيــالـلدفــاع فـلم تـعـن ... بـالمِـدْرَه المشهـور أو بـالأشْهَـرِ
يكفيــك عـطفُ العـالمين ووجــدهم ... من أكـبرٍ يـطأ الثَّـرَى أو أصْغـر
حتى لقــد مـاد (البقيـع) و (يثـرب) ... وتـزلـزت أرض (الصَّفـا) و (المشعـر)
الْتَــاعَ قـلبُ (محــمــد) لـمحــمــد ... رب المحــامــد والعــلا والمـفخـر

* * *

إنى نــظرتــك فى اتهــامــك واقـفًــا ... فــظننـتُ أنــك واقــف فى المِنْـبر
لـتقــول شعـبـى أو بــلادى إنـنى ... لِهَــواكُـما بـين اللَّظَى المتَـسَعِّـر
ولقــد رأيتــك جـالسًــا مستبســلا ... خلف الشِّباك جلوس من لم يُـذْعَـر
فــرأيتُ فى هـذا الشبــاك مَعــانيًــا ... فهى العـرينُ وأنـت أجـرأ قَسْـوَر

---

(١) يشير إلى إيجاز الفقيد فى جوابه على أسئلة المحكمة وعدم استعانته بمحامين للدفاع عنه إيمانا منه ببطلان التهمة وتحديا للمؤامرة التى اتخذت شكل المحاكمة.

ولقد لمحتك ماشيا فى ثُلَّةٍ ... تعتز بينهم بقدر أوفر
فسألت هل هذا المسور «خالد» ... أم «جوهر» يختال بين العسكر

* * *

أفريدُ يا ابنَ الأكرمينَ تحيةً ... من شاعر بسوى الأسى لم يشعر
فى مصر قوم ناوأوك بشرِّهم ... فارددْ مكايدَهم إليهم وانحر
ذكروك فى حب البلاد وأهلها ... ما قيمةُ الإنسان إن لم يُذكر؟
لو كنتَ ممن تاجروا بضميرهم ... للعبتَ لعبا بالنضار الأصفر
أو كنتَ ممن يطلبون مراتبا ... لشأوت فى العلياء نجم المشترى
وسبقت أجرام السماء وفُتَّها ... من مظلم فى ذاته أو نيِّر

* * *

أ (محمدُ) كن فى النوائب ضيْغَما ... مستجمعا للطارئ المتنمر
إن بتَّ أنت من الفوادح جازعا ... ما فضل مفتول الذراع غضنفر؟
أشرقْ لعلك بين سجنك مشرقا ... تهدى سبيل الطارق المتنور
فالشعب بعدك بات ينتجع العُلا ... وغدا مُناهُ ورود هذا الكوثر
أنعمْ بسؤددك العظيم ومرحبا ... بك من كريم الأصل زاكى العنصرُ
أَعْزِزْ علينا يا ابن «أحمد» حالةٌ ... جاءت بعيش بالهموم مكدر

* * *

فكأنه بدْرٌ يحجب نورَه ... ظلماتُ غيم فى السماء كَنَهْوَر
أو دُرَّةٍ مكنونة فى زاخر ... أو دمعة مخبوءة فى محجر
أو زهرة فيحاء خيف ذبولُها ... وضياع نفحتها إذا لم تستر
أو ناظر غمضت عليه جفونه ... حذرا عليه من القذى والعثير
أو أنت سر الكائنات محجب ... أو بعض مكنون القضاء المضمر

* * *

إلى أن قال:

أمحمد ما أنت أولُ مبتَلى ... بالفادحات من الزمان الأكدر

إنى عهدتك خير من يسدى الورى ... رأيًا وخير مفكر ومدبِّر
فاشهرْ لدى الأهوال عزما صادقا ... فلربَّ عزمٍ كالحُسام الأبتر
ما الناس إلا اثنان ذاك مييسَّرٌ ... للصالحات وذاك غير ميسر
جلّ الإله فقد أرانا علمه ... من كل شيء فى الوجود مسخر
بانت مراحمه بأكمل رونق ... وبدت مآثره بأكمل مظهر
لولا الفؤاد وما أصاب دفينه ... ما كنتُ عن ذكراك بالمتأخر
لولا مراس الداء صغت قصيدة ... أربت على شعر الأديب المكثر

* * *

عفوًا رئيسَ المخلصين فإننى ... ما رمت إلاَّ جل عفوك فاغفر
قد جئتُ أزجى فى القريض خريدة ... قد بات يحسدنى عليها (البحترى)
عطرية فيحاء طورا عن شذا ... وَرَدٍ وطورا عن أريج العنبر
فيها معان صاغها لك مبدع ... جم البيان خياله لم يحصر
فاخلع عليها من خلالك نفحة ... حتى تضوع بنفح مسك أذفر
لى فيك ملء الخافقين لآلىء ... زهر تبيع بها الرواة وتشترى
فعليك منى ما حييت تحية ... وسلام كسرى فى الملوك وقيصر

يحيى الوحدة الوطنية

قال سنة ١٩١٩ يحيى الوحدة الوطنية والتآخى بين المسلمين والأقباط:

أقباط مصر ومسلموها ضمهم ... دين المسيح وشرعة الإسلام
الناشئون على الطهارة والتقى ... والقائمون بمصر خير قيام
والخالدون إلى السكينة كلما ... جاء الزمان بشدة وعرام
برح الخفاء وبان أنَّا أمة ... لم تبغ غير محبة ووئام
إنَّا لنرجو أن نعيش بغبطة ... توحى السلام وتنتهى بسلام

يرثى فريدا

قال سنة ١٩١٩ من قصيدة فى رثاء محمد فريد:

رمانا الزمان بإحدى الكبر ... ومنه العظات ومنه العبر!

شهيد تصارع فى حومة ... رماه القضاء بها والقدر
وخلف من بعده أمة ... كسرب النجوم فقدن القمر
أتى جثة سافرت للبلى ... ولم تسترح من عناء السفر
مُنًى أوردته حياض الردى ... ووِرد الردى ماله من صدر
تعلقها عند سرخ الصبا ... ولم يجفها عند مس الكبر
وأينع فى روضها غرسه ... ولم يبق إلا اجتناء الثمر
وأى امرىء عاش أقصى المدى ... فنال من العيش أقصى الوطر؟

* * *

إلى أن قال:

هنيئا لميت نعته العلى ... وطوبى لحى وعى وادّكر
وحسب فريد مُنى نالها ... فقد حصدت كفه ما بذر
فتى أغمض الموت أجفانه ... وأطبقها بعد طول السهر
أفاض على قومه ماله ... فأدى الحقوق وأسدى البدر
طويل نجاد الجدى عائل ... لكل ضريك إليه افتقر
رأى الحرص عارا على نفسه ... فهان على نفسه ما ادخر
وكان بصيرا بعقبى الندى ... يرى المال يفنى وتبقى السير
وأخلد ما للفتى ذكره ... إذا نزل القبر لا ما يذر
وكم صامت ناطق فى الثرى ... بآى فصاح كآى السور
وليس الذى ذكره خامل ... كمن شاع صيب له وانتشر
وليس بميت أغر اسمه ... على صفحات العلى مستطر
خطيب المنابر منطيقها ... وأسلس من فوق جمع نثر
فإن يكب يوما بضماره ... فكم من جواد كبا أو عثر
وما زال ينهب فى عدوه ... فيافى الفجائع حتى ضمر
وحتى دهته بأعناتها ... كوارث كاسرة للفِقر

وختمها بقوله:

أرى «كاملا» راح فى شرخه ... وأودى «فريد» حميد الأثر

زعيـمها بـلاد خلت منهما، «أبو بكر» مات وولى «عمر»
عـزاء الـعلا عنهما أمـة تنادت لتجديد مجد دثر
وشعب سعى نحو آمـالـه بعز توقد حتى استعر
ومـا من ضعيف القوى واهن تشبث بالحق إلا انتصر

يحيى جريدة الأخبار

قال سنة ١٩٢٠ يحيى المرحوم أمين الرافعى لمناسبة إصداره جريدة الأخبار:

يـاوحيُ أسعفنى بنظم قلادة صيغت لألئها من الأشعار
هـذا (أمين الرافعى) ومن لـه خير السجايا الغرّ والآثار
يـا (رافعىّ) لأنت أصدق مخلص للنيل فى الإعلان والإسرار
جَرِّد يراع المخلصين وذُدْ بها بطش القوى وصولة الجبّار
واحذر على (الأخبار) من آفاتها إن (الرواة) لآفة الأخبار
اليـوم هنـأتُ البلاد بكاتب ملكت يداه صحيفة الأحرار

يندد بالانقسام ويدعو إلى التآخى

وقال سنة ١٩٢١ حين اشتد الانقسام بين سعد وعدلى وأنصارهما، يندد بهذا الانقسام ويدعو إلى توحيد الصفوف:

قـالوا انقسمنا فقلنا فتنة عَمَم بها تُفلّ مواضى العزم والهمم
ولم نكن غير جيش راكب طرفا شتى المسالك من سهل ومن أَكم
حتى يرفَّ لواء الفوز منعقدا على الزمان بحق غير مهتضم
وكيف نُقْسَم والتاريخ ينبئنا أن الفلاح لشعب غير منقسم
فحاذروا أن تحلوا عقد شملكم فتقرعوا السن من حزن ومن ندم
ونظموا ما استطعتم من صفوفكم فالجيش إن بَعْثَرَه الإخلال ينهزم
ولا أحدثكم عن إرثكم عجبا فمنه كان بزوغ المجد والكرم

* * *

والمجد يدرك بالأعمال منجزة لا درك المجد بالألفاظ والكلِم

* * *

أحمد الكاشف

١٨٧٨ - ١٩٤٨



من الرعيل الأول من شعراء الوطنية، ولد سنة ١٨٧٨ بالقرشية من بلاد مركز السنطة غربية، وهو ابن المرحوم ذو الفقار الكاشف، وجدُّه من ضباط الجيش المصرى الذين خاضوا غمار المعارك فى عهد محمد على، تلقى علومه الأولية فى منزل والده بالقرشية، ثم التحق بمدرسة الأقباط الابتدائية بطنطا حتى استوفى دراسته، ثم عاد إلى بلدته وأقام فيها، ومالت نفسه منذ صباه إلى الشعر والأدب، وكان الشعر طبيعة لَهُ وسليقة، فعكف على المطالعة وأكب على كتب الأدب ودواوين الشعراء المتقدمين يدرسها ويستوعبها، فحاكاهم فى الأسلوب والبلاغة، واتجهت نفسه إلى نظم الشعر فى المعانى الوطنية، فجادت قريحته بشعر وطنى من الطراز الرفيع، ووقف حياته على هذا اللون من الشعر، وعاش عمره عيوفا أبيا، معتكفًا فى بلدته (القرشية)، وفى ذلك يقول عن نفسه:

ولقد تحاشيتُ المدائن زاهدًا ... وبددت أطلب وحدةً وسكونا

لا أرتضى غير الطبيعة مأْنَسًا ... والذكرَ كأسًا والقريضَ خدينا

وله قصائد عصماء نظمها فى مختلف المناسبات، وعبر فيها أبلغ تعبير عن أحاسيسه ومشاعره الوطنية، وظل وفيًا لمبادئه طول حياته، وتألق شعره فى سماء الأدب والوطنية، وبلغ الذروة فى هذا المجال.

اتفاقية السودان

قال عن اتفاقية السودان التى أكرهت مصر على إمضائها سنة ١٨٩٩ على أثر انتصار الجيش المصرى فى السودان.

انتصرنا وما الذى قد جنينا ... ه من النصر بعد طول العناء؟

مـا جنينا سـوى (الوفـاق) جـزاءا   إن هـذا الـوفـاق شـرٌّ جـزاءَ
وإذا شـارك الـضعيـف قـويـا   فى مـنـال فـحـظُّهُ كـالهـبـاء

الجندى فى المعركة

وطـنى أنـت الحـبـيـب الـدائـم   لـك فى قـلبى المـقـام الأشـرف
وغـرامـى بـك طـبـعٌ لازم   سـرّنى أنى بـه مـتـصـف

لـك أسـعـى دائـبًـا مجـتـهـدا   بـرجـاء ثـابـت مـقـتـدر
لاأبـالى فى طـريـقـى أبـدًا   طـال ليـلى أو تمـادى سهـرى

وطـنى أفـديـك بـالـروح إذا   مسَّك الـدهـر بسـوء لا يـطاق
وأرى الـلَّذة فى دفـع الأذى   عنـك بـالنيـران والبيض الـرقـاق

دمـت يـا نـيـل أبـرّ الأنهر   بنفـوس كـم رأت منـك وفـاءْ
دمت تجـرى يـا شبيـه الكـوثـر   مُهْـدِىَ الـوادى هنـاءً ورخـاءْ
دمت يـا صحـراء ميـدان الجنـود   بـين قـطريـك الـلذيـن اتحـدا
مـظهـرا للبـأس من بيض وسـود   يـضمـن النـصـر لنـا والـسؤددا

قصيدته فى اللورد كرومر سنة ١٩٠٧

لما رحل اللورد كرومر عن مصر على أثر حادثة دنشواى، شيَّعه الكاشف بقصيدة ندَّد فيها بطغيانه وجبروته، قال:

أعيـا عـزائمـكَ القضـاءُ الأغلبُ   وطـوى صحيفتَكَ الـزمـان القُلَّبُ
أرأيت كيف يُفـاجـأ السَّبـاق فى   غـايـاتـه ويقـاطَـع المتـوثِّب
ولبثت تبـدو فى زخـارف مخلص   للقوم تخفى ما اعتـزمت وتحجب
غـافلتهم حينـا فلم يَـتلفَّـتـوا   إلاّ ونـابُـك فـيـهـم والمـخـلب

وذكر حادثة دنشواى وكيف فرح المصريون بإقصائه عن منصبه:

وختمت عهدك بالذى اهتزت له   أركـان (مكه) واستعـاذت (يثرب)
وتنفس الصعـداءَ شعبٌ حـامـلٌ   همًّـا يضيق به الفضـاء الأرحب
مـاذا كسبتَ وأنت عنـا راحـلٌ   إلاّ الجفـاء وبئس هـذا المكسب

ينذر الإنجليز

وقال يخاطب الإنجليز وينذرهم سوء العاقبة:

قلدتم الرومان فى استعمارهم ... هلّا ذكرتم منتهى الرومان؟
اليوم سؤددكم وسؤددنا غدا ... كم أدرك المتمادى المتوانى
رحماكم فينا لنذكركم إذا ... دار الزمان وحالت الحالان
إنا لنرجو من بنينَا عُدَّةً ... لا عُدَّةَ الجيران والضيفان

يندد بوزارة مصطفى فهمى

قال فى أبريل سنة ١٩٠٨ يدعو وزارة مصطفى فهمى إلى الاستقالة، وكانت بغيضة إلى الشعب:

أفى كل يوم يشهد النيل نابغا ... يعيش فنرجوه ويُقضَى فنجزع[١]
وليس لكم فى موسم الحىّ مظهر ... وليس لكم فى مأتم الميت مفزع
لقد سئمت تلك الكراسىُّ مكثكم ... فهلا شعرتم وهى تشكو وتضرع[٢]
وهلّا اعتزلتم منصبًا لا ينيلكم ... من الأمر إلَّا أن تَذلُّوا وتخضعوا؟
أخاف عليكم أن تموتوا وأنتم ... أضر من العادى علينا وأشنع
فإن شئتم أن يعفُوَ النيل عنكم ... ويكبركم أبناء مصر ويرفعوا
فخلّوا وزارات البلاد لأهلها ... إذا أرعد الجبار لم يتزعزعوا
إذن لرأيتم ما رأى من كرامة ... ومرحمة ذاك الشهيد المشيَّع[٣]

يمجد الفلاح ويمدحه

وقال يمدح (الفلاح المصرى):

إذا استبقيتُ فى الدنيا حبيبا ... فخير أَحِبَّتِي فلاحُ مصرَ

---

(١) يشير إلى مصطفى كامل وقد توفى فى فبراير سنة ١٩٠٨.

(٢) مكثت وزارة مصطفى فهمى تتولى الحكم ثلاثة عشر عاما من نوفمبر سنة ١٨٩ إلى نوفمبر سنة ١٩٠٨، وكان عهدها خضوعا وتسليما للاحتلال البريطانى.

(٣) يشير إلى مصطفى كامل.

كــريم يمـلأ الــوادى ثــراه ولا يَلْقَى سوى الإجحاف أجرا !
فقـيرٌ مـا أراه شكـا افتقـارا ولو يُجزى عـلى تعب لأثْرَى
فمحراثٌ يشقُّ الأرض عندى ويخرج من ثراه الخصب تبرا
كسيف فى يـد الجنـدى لاقى بـه جيشـا وحِصْنـا مُشْمخـرًّا

صلته بمصطفى كامل

كان الكاشف صديقًا ونصيرًا لمصطفى كامل، وكان لدعوة الزعيم وتعاليمه صداها فى قصائده، وكان مصطفى يقدره ويعجب به ويسميه (شاعر الغربية النابغة)، وكثيرًا ما كان هو يردد كلمات مصطفى كامل ومعانيها ويصوغها فى قالب شعرى رفيع.

قال عن صلة الخطابة بالشعر:

ولئن هزرت العالمين فإن من تلك الخطابة هـذه الأشعارا

وقال يردد كلمة مصطفى كامل (لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا):

لو كنتُ فى الخلد أو فى غيره ملكا وددت لو أننى فى مصر إنسان !

وقال فى محاربة اليأس:

ومـا معنى القنوط وأنت حىٌّ وما معنى القنوط مـع الحياة ؟

وقال فى قيمة الاستقلال:

إن البلاد بلا استقلال صاحبها قَفْرٌ لـديـه وإأصبحن جنـات

ولما مات الزعيم رثاه الكاشف برثية رائعة بلغت نحو مائة بيت، قال فيها:

لهفى عليك وقد رحلت اليوم لم تـدرك لغـرسـك فى البـلاد ثمـارا

إلى أن قال يشير إلى الرحلة التى كان يعتزم الزعيم القيام بها فى الشرق:

لهفى وما لاقتك (يثرب) ضيفها وخطيبها المسترسل المكثـارا
لهفى عليك ولم تسر متفقدا فى الهند إخوانا لمصر حيارى
لهفى ولم تنقل من اليابان ما يهب البلاد حضارة وعمارا
قد كنت مزمع هجرة لو قدرت قربت أعوانـا لمصر كبـارا
وجمعت بين السابقـين وأمة مهضـومـة تتتبـع الآثـارا

ثم يستنكر على وزراء مصر وقتئذ تخلفهم عن تشييع جنازة الزعيم خشية إغضاب الإنجليز، قال:

ويل الذين تخلَّفوا عن مشهد مَشَت الملائك حوله إكبارا
هل يعرضون ترفُّعا وتكبُّرا أم يسكنون تهيُّبا وحذارا؟

ثم يصف احتشاد الأمة يوم تشييع الجنازة قال:

يا قائد الأبطال هذا جيشك الـ ـجرّار فانظر جيشك الجرارا
يوم كيوم الحشر ضمَّهم وكم رحّبت فى أرب لهم مضمارا
فلئن بكوا فلقد بكيتهم وهم غرباء فى أوطانهم وأسارى
أو يحملوك على رءوسهم فقد أصعدتهم فوق النجوم فخارا

وختم مرثيته بقوله:

أشْهدتُ مصر على علاك ونيلها وصعيدها والنَّبْت والأحجارا
لو لم تسل قطع النفوس لشيدوا منها لك التمثال والتذكارا
ما مات من ورثت مناه أمة تجرى على منهاجه استمرارا

يحمل على سياسة الوفاق، ويعاتب الخديو عباس الثانى

فى سنة ١٩٠٩ كانت سياسة الوفاق بين الخديو عباس الثانى وإنجلترا تسيطر على الجو السياسى فى مصر، وكان هدف هذه السياسة محاربة الحركة الوطنية، وبدت مظاهر هذه السياسة فى تنكر الخديو للكفاح الشعبى ومناصرته للاحتلال وسياسته.

نظم الكاشف هذه القصيدة سنة ١٩٠٩ يحمل فيها على سياسة الوفاق ويخاطب الخديو عباس الثانى ويعاتبه ويحذره مغبة الاستنامة إلى وعود الإنجليز، وهى من أبلغ قصائده وأقواها:

أهلًا وسهلا بالوفاق ومرحبًا لو كان فيه قضاءُ ما وعدوكا
إن كنتَ مشترطَ (الجلاء) فواجبٌ لك أن نودّهم كما ودّوكا
خير لنا أن يعلنوا البغضاء من أن يعلنوا ذا الموثق المفكوكا
حاسنتَهم لتردّ عنا شبهة كم حاربوك بها وما حربوكا؟
ما كان حُبًّا ما ترى لكنه كَتَمَ المخاتلُ سرّه المهتوكا
أرأيت كيف وشى بكل مهذب حر فكان الإفك المأفوكا؟

اليومَ يشكونا إليك وما بنا غير الوفاء وفى غد يشكوكا
أعيا على أوهامه ووعيده هذا المراس فقام يستصفيكا

* * *

ماذا ترى فى غاصبين يسوءهم أنّا نحس وأننا نروكا
أتخاف شكوى المخلصين ولم تخف فيما مضى عدوان مضطهديكا؟
ياليتهم جعلوا القيود لكل ذى نظر وما انتقموا بأن حجبوكا
هل كان مُسْمِعُكَ السلامَ مشاغبا أم كان غير مشوّق رائيكا؟
إنّا وإيّاك ابتليناهم فهل صَدَقوا الورى يوما وهل صدقوكا؟
أوْلى بهم وقد اتهمنا نصحهم أن لا تصدقهم إذا نصحوكا

* * *

أرِهم مراسك قبل أن يستأسدوا إنّا لنخشاهم إذا أمنوكا
يا حبذا يوم (الجلاء) ولا نرى جندا يصول ولا دما مسفوكا

يخاطب اللورد كتشنر

فى سنة ١٩١١ عين اللورد كتشنر معتمدًا لبريطانيا فى مصر، وكان معروفا عنه الصلَف والغطرسة، فاستقبله الكاشف بقصيدة رائعة تفيض وطنية وشممًا وإباءً. قال فى مطلعها:

مهلاً لتمتحن الطريق خطاكا إن كلفوك لغاية إدراكا
فى مصر شعبٌ لا يُضام ومالك[1] متفرد لا يقبل الإشراكا
ما أنت حابس نيلها يومًا ولا أهرامُها مهدومةٌ بقواكا
الله أكبرُ من جيوشك سطوة والدهر أبعد من مَدَى مَرْماكا

إلى أن قال:

هل يُذنب الجرحى إذا هم حاولوا دون الضوارى صيحةً وحراكا؟
لسنا قطيعًا غابَ راعيهُ كما كنا ولسْتَ الضيغم الفتاكا

(١) لعله يقصد المالك الأمة فهى مصدر السلطات ولا تقبل إشراكا فى سيادتها.

إن كنت طلق الوجه أو متجهما — فالله يعلم منتهى نجواكا
ولعل شأنك فى مشيبك غير ما — أسلفته فى عنفوان صباكا

إلين قال:

واذكرْ لوادى النيل نعمته عسى — تُعطى بنيه بعض ما أعطاكا
فإذا تجاوزت الكنانة فافتتح — ما شاء عزمك واصعد الأفلاكا
فى غير مصر ذرائعٌ ومواقع — للمستزيد مطامعا وعراكا
ولئن غضبت على الأباة فصبرهم — أوْلى وأجمل من رجاء رضاكا
فاعرف لهم عذر الحريص إذا هم — لم يسلموا لك ما تنال يداكا

يبشر بالاشتراكية

فى أعقاب الحرب العالمية وبعد توقيع معاهدة الصلح فى فرساى (مايو سنة ١٩١٩) بين ألمانيا والحلفاء، نظم الكاشف قصيدة عصماء تناول فيها شتى المعانى السياسية والوطنية. فمن قوله يبشر بالاشتراكية:

للاشتراكية العُقبى إذا شملت — شَتّى الشعوب وجاراها المجارونا
فلا الكثيرون ملكًا للأقلّينا — ولا الأقلون ملكٌ للكثيرينا
ولا نرى واحدًا ملأى خزائنهُ — بالمغْنيات وآلافا يجوعونا
ولا نرى درة فى رأس محتكم — تهفو إليها قلوب المستظلينا

يندد بغدر الإنجليز وتنكرهم لمصر

وقال فى هذه القصيدة يندد بغدر الإنجليز وتنكرهم لمصر بعد أن عاونتهم فى تلك الحرب:

يا نائلين من الحرب العوان سوى — ما كان منتظرًا منها ومَظْنونا
نَجوْتُم من رزاياها ومالَكُم — لا تذكرون وفاقا غير ناجينا؟
مَدُّ الحديدَ لكم فى كل مرحلة — وذللوا لكُم أطوادها لينا[1]
ورابطوا لأعاديكم على هدف — وألحقوا النيلَ بالأردن ساقينا

---

(١) يشير إلى تسخير العمال المصريين فى مد السكك الحديدية فى سيناء إلى العَريش أثناء الحرب العالمية الأولى.

وكم عتبخ على قوم لأجلكم وهم إلينا الأحبَّاء المحبُّونا
وقلتُمْ لم ينل قومٌ بغير دمٍ حريةً فبذلناه مضحِّينا
ونال من دمنا فى عصر جندكم ما نال منه عداكم فى فلسطينا
فهل غسلتم خطايا الأبرياء به أم لا تزال خَطيئات البريئينا؟
أتستهينون بالإنسان ماثلكُمْ وتؤثرون عليه الماء والطينا؟
هَبُوا حِمَى مصر والسودان مزرعةً أيرهق الأجراء المستغِلُّونا؟
ورثتم خصمَكم ميْتًا وصاحبكم حيًّا، ومازلتُم فى الأرض تَسْعونا

* * *

جربتمو مصر فى تقييدها زمنا فجربوا مصر فى إطلاقها حينا
أمنتمُ مصر فيها نال أمتكم فأى شىء على مصر تخافونا؟
وقلتُم: مصر للهند السبيل فإن ضاع السبيل أضعنا الهند ساهينا
أما إلى الهند إلا مصر من سُبُل ملأى شواهين أو ملأى سراحينا[1]
يهدد الهندَ أهلوه وجيرته ولا يزال سبيل الهند مأمونا
خافوا سوانا وأعطونا أمانينا فما تضرُّكم يومًا أمانينا
وإن فردا . لذى ملك يبرُّ به خيرٌ له من جماعات يثورونا
عن أى شىء لمصرٍ تسألون وقد هزَّت مسائل مصر الهند والصينا[2]
بالسيف والنار يدعو الناس جندكُم وتطلبون من الصرعى مجيبينا
ضَعُوا السلاسل عنا واطلبوا جدلا تروا أدلة مصر والبراهينا
وربما قبلت دعواكم دولٌ وأبَى مصر أباةً غير راضينا
لَيْتَ الذى حَرَمَ الألمان غايتَهم أخاف قوما سواهم لا يبالونا
وليت من زاد قوما قوةً وغنىً يرعى ويحرس أقوامًا مساكينا
أتسفكون لمظلوم دماءكُمُ وبالكلام على عانٍ تضنُّونَا؟
وهل وفيتم بميثاقٍ لمصر كما رعيتمُ العهد للبلجيك موفينا؟

---

(١) السراحين: الذئاب.

(٢) يسير إلى تأليف الحكومة البريطانية اللجنة المعروفة بلجنة ملنر بدعوى البحث عن أسباب ثورة سنة ١٩١٩ والوسائل لملافاة هذه الأسباب.

كم أعجبتكم من الأحرار عزَّتُهم كانوا موالين أو كانوا معادينا
فهل ذكرتم وأكبرتم لنا غرَضا كما ذكرتم وأكبتم (وشنطونا)[1]
كم أنجب البطلُ الأحداثَ عالية وأنجب الحدثُ الأبطال عالينا
كنا أمانة دهر عندكم وأتى وقتُ الأداء فهل أنتم مؤدُّونا؟
وقد أقرَّ لمصرٍ كل منتصف بحق مصر فهل أنتم قرونا؟
قد أصرت على استقلالها فعلى أى المآرب أصبحتم مصرينا؟

يحذر قومه من التحالف مع بريطانيا

وفى هذه القصيدة (التى نظمها فى أواخر سنة ١٩١٩) يحذر قومه من فكرة التحالف بين مصر وبريطانيا. قال:

أوَاهبون لمصرٍ كل ما طلبت أم آخذون بمقدار ومُعطونا؟
وإن رفعتم عن الوادى حمايتكم فما اسم لاحقها فيها تُسَمُّونا؟
وإن تروا بدلا منها (محالفةً) فمن لنا بضمانات المساوينا؟
إنا لنعجز عن حق الحليف وعن حق الشريك وأنتم تستزيدونا
وما مجاورة الأقوى وشركته إلا كما جاور العصفورُ شاهينا
ادعوا بنى مصر أندادا لكم ودعوا ولاة مصر ملوكا أو سلاطينا
وغادروها لأكفاء تجاربُهم تُغنيهم عن تكاليف المشيرينا
يفدون مصرَ وإن شاكت منابتها وإن جرى نيلُها مهلا وغسلينا
وإن تدفق فى البيداء منصرفا وإن أقام وراء السّدّ مخزونا
أحرار مصر تباريهم حرائرُها ففاديات كما نرجو وفادينا

يندد بالاستعمار والطغيان

وفى هذه القصيدة يندد بالاستعمار والطغيان ويحملها مسئولية الحرب الطاحنة التى أكتوت الشعوب بنارها. قال:

أمْضَى على الصلح قَوْمٌ يعبثون به وقد نأى عنه قومٌ غير مُمْضينا

---

(١) جورجَ واشنطون محرر أمريكا، وكان على رأس الجيش الوطنى الأمريكى الذى حارب الإنجليز وقد اعترفت بريطانيا رباستقلال الولايات المتحدة سنة ١٧٨٣ بعد أن انتهت الحرب بظفر الأمريكان.

تنفس الصعداء اليوم بعضهم ... ولم يزل بعضهم أسوان محزونا
هل يعرف الدهر حربا كالتى شهدت ... تلك الثمانى يتلوها ثمانونا
صناعة هى يعتز الملوك بها ... على العباد الأذلّاء المطيعينا
أم كانتِ المرضَ الموروثَ فى دولٍ ... أعْيتْ طبائعها السّودُ المداوينا
ما كان أكبر آثام الأنام وما ... أذكى وأغلى الضحايا والقرابينا
أين الأسرةُ والتيجان أسأُلها ... عن الملوك الطغاة المستبدّينا
الرافعين على الأشلاء دورهُم ... المالئين دمًا تلك الميادينا
جَنَتْ على ملكهم أسلاب غيرهم ... فهل تذكر هذا المستغلونا؟

إلى أن قال:

دانت لعسكر (ولسونٍ) جبابرةٌ ... وأين ما صنعت آراء ولسونا[1]؟
أغرى البرية باستقلالهم ونأى ... عنهم وهم بالذى أغرى يهيمونا

القوة سناد الحق

والحق فى كل عصر فاقدٌ سندًا ... إن لم يجد طلبًا بالبأس مقرونا
فذو السلاح هو المرهوب جانبهُ ... إذا انثنى الأعزل المغلوب مغبونا

أمل مصر فى بنيها

وختم هذه القصيدة الرائعة بقوله:

من لم ير اليوم فى العمران موضعه ... لم يلق فى غده دنيا ولا دينا
ونحن أولى بأن نرعىَ مواطننا ... نوفى المكاييل فيها والموازينا

مؤتمر لوزان
الحق للقوة

فى سنة ١٩٢٣ ترامت الأنباء عن مؤتمر لوزان بأنه يخذل مطالب الشعوب الشرقية فقال الكاشف يدعوها إلى القوة والتعاون فى مكافحة الاستعمار:

(١) ولسون الرئيس الأسبق لجمهورية الولايات المتحدة الأمريكية. يشير الشاعر فى هذا البيت والأبيات التالية إلى مبادىء ولسن التى أعلنها حين دخول أمريكا الحرب إلى جانب بريطانيا وحلفائها وكيف تنكر لها بعد انتصار الحلفاء.

عودوا إلى البأس بعد اللين فهو لكم ... قد يفعل البأس ما لاتفعل الخُطَبُ
لا حق للشرق إلّا فى معاقله ... والحق منقلب فى الغرب مغترب
هل يملك الحكم فى (لوزان) خصمُكم ... ودونه فى سوى لوزان مضطرب
ما كان (كرزون) بالموفى لأمته ... ودون ما يبتغيه الهول والنّوَب

إلى أن قال:

إنى لأشفق من يوم على دُولٍ ... يقضى الحديدُ عليها فيه واللهب
ممالكَ الشرق والإسلام تذكرةً ... فالشرقُ أسوان والإسلام ينتحب
أين الأمانة والميناق بينكم ... والبيت منتهبٌ و (القدس) مغتصب
مجد الرجال على مقدار ما بذلوا ... من الدم الحرّ لاالدمع الذى سكبوا
ذودوا عن الوطن الغالى وعن شرف ... بَذْلُ النفوسِ له بعض الذى يجب
ومن أراد حياة العز طيبة ... فالأرض تحمله حرا أوالشُّهُب

* * *

ياوافدَ الشرق جوّابا بلا سند ... فى الغرب ينتظر العقبى ويرتقب
مصير كل قبيل بعد جولته ... ماخطَّه فى فروق الفتية النجب
فصل الخطاب لهم بعد القضاء غدًا ... فى سائر الأمر جدّ القوم أولعبوا
أين السلام وأين العاملون له؟ ... وأنه أمل الأبرار والأرب
كل يمد وراء الغيب غايته ... وليس يعلم ما يأتى به رجب

يتندر على عيد ١٥ مارس سنة ١٩٢٢

قال من قصيدة له فى مارس سنة ١٩٢٣ يتندر على عيد الاستقلال الذى جعلوا تاريخه يوم ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ حيث أعلن الملك فؤاد استقلال مصر على أثر صدور تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢:

ياعيد الاستقلال أنـ ... ـتَ له خيال أم حقيقْه؟
للعِتيقِ أم للرقّ ما ... خطُّوه فى تلك الوثيقْه
أ بمهرجانٍ تحتفى الـ ... ـظمأى وتحتفل الغريقة؟

وتنال مصر مرامها ... من بعد ماسدوا طريقه[1]
يتكلفون[2] الصالحـ ... ـات لها وتأباها السليقه
إن أطلقوا أمس البلا ... د فمنهم ليست طليقه
وحديقة أضْحَتْ ولـ ... ـكن للغريب جنى الحديقة
وإن استبدَّ بنيلها ... قَتَلَ الشقيقة بالشقيقه[3]

* * *

وأحرَّ أكبادٍ إلى ... حرِّية الوادى مشوقه
هذا زكىُّ دَمِى لها ... أجد الرضا فى أن أريقَه

* * *

أتخاذلٌ زعماء مصـ ... ـر أمام هاوية عميقة؟
أى العقاب أحق بالـ ... ـرجل الذى يؤذى رفيقه؟
عاد الغريمُ لمصر يعـ ... ـبس بعد خدعته الدقيقه
فإن افترقتم عنده ... كنتم جميعكم فَريقَهْ

يحذر من نوايا الإنجليز ويدعو النواب إلى أداء واجباتهم

وقال من قصيدة له يوم ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ وهو اليوم الذى اجتمع فيه البرلمان الأول وكان سعد زغلول يتولى رآسة وزارة الأغلبية.

سلاما على حصنكم والعَلَم ... ورعْيًا لندوتكم فى الأمَمْ
سلاما على ذلك الملتقى ... سلاما على ذلك المزْدَحم

إلى أن قال:

أمانة مستوثق معلنٍ ... لكم من سرائره ما كَتَمْ
وهذا غريمُكم[4] الملتوى ... تجمل بعد الأذى واحتشم

(١) يشير إلى الإنجليز الذين وضعوا العقبات أمام مصر فى جهادها لتحقيق أهدافها.
(٢) الإشارة هنا أيضًا إلى الانجليز.
(٣) مصر والسودان.
(٤) يقصد الاحتلال.

تـولّى بغـايـاتـه عـابسًا … وعـاودهـا فـاتنـا فـابتسمْ
إلى أجــل أم إلى منتـهـى … مـراميه يلزمكم مـا التـزم
وهل ينجلى الأفق أم يـرتمى … بعـاصفـة بعــد هـذا النَّسَمْ
ولو كان يعـرف عُقْبى النزا … ع فى الحق من زمن لا نحسم

وقال يدعو إلى التآخى وصفاء القلوب بين المواطنين:

ولـيس يقـالُ فـريقٌ هَـفـا … ولـيس يـقـال فـريـق ظَلَمْ
يضيـع عـلى مصر هـذا النعيـ … ـم إن لم يكن كـل بيت أجـم
ومـا أنـا بـالآمن المـطمئنّ … إلى المستعـد الـذى لم ينـم[1]
أعــد المَــرابَطَ فى المسلكـين … ومـن مَلَك المسلكـين اقـتحـم
وهـل يتـرك الـذئبُ عـاداتـه … وإن لَبَسَ الـذئب ثـوب الغنم؟

* * *

وداهـيــة مــرجـف بـالــذى … تـعـدّى بــه غـيــره فـانهزم
وليس الــذى قـالــه حجـةً … فقــد ألِفَ النـاس هــذا النَّغَم
وهـل يستطيـع اغتصاب الـرقا … ب مَن بِمراس النفوس اصطِدم
ومــا صنعت بـالمُغـير القـلا … ع صُنْـعَ إبـائكم والشـمـمْ
وحَـسْـبُـكم شـمـلكـم عُـدّةً … وحـسبـكم صبـركم معـتـصم
ومــا أحسن العفـو من قــادر … إذا مـا اشتهى حـاقـدٌ وانتقم
سيجلو عن الأرض جَبّـارُهَـا … ويلبث فـيهـا كـريـمُ الشِّيَمْ
ولا دولــة لسـوى المصلحــين … ولامُــلْك لأهــل الهـمـم

عيوب الحزبية

وقال سنة ١٩٢٥ من قصيدة له حين اشتد التناحر بين الأحزاب، يدعو إلى نبذ الخصام:

وقـفت ومـا أدرى أعُـدَّ حــوادثًـا … تــدور أمــامــى أم أعــدّ ذنــوبـا
تحملت عن قـومى نصيبًا من الأسى … ولم أرجُ من أجـر الجهـاد نـصيبـا

---

(١) يريد الانجليز.

وأمعنت فى غيب المقادير علّنى — أرى فرجاً للأمتين قريبا
وليس بمغْنٍ أمة خصبُ أرضها — إذا لم يكن خلق الرجال خصيبا

* * *

تنازع قومى اليوم جندًا وقادة — فلم أر إلا سالبا وسليبا
مبادىء أحزاب أرى أم منافعا — توالت صنوفا بينهم وضروبا ؟
تقضت حروب العالمين ولم أزل — أرى بين أبناء البلاد حروبا
بقومى على قومى استعان غريبهم — فصال شمالا واستطال جنوبا
فمن لهم بالمنقذ الأمر حازما — إذا لم يطيعوا نافذا وحسيبا
يردهم بعد القطيعة والنوى — رفاقا كما يلقى العليل طبيبا

قريتى

قصيدة نظمها بهذا العنوان سنة ١٩٣٦، يصور فيها حياته فى بلدته (القرشية) ويؤثرها على حياة المدن، قال:

جمعت فى العيد حولى سائر الآل — وملتقى الآل حولى كلُّ آمالى
أبًا دَعوْنى وما لى فيهم ولد — ولست للقوم غير العمّ والخال
كأننى وهم فى الدار مطلع — منهم على أمم شتى وأجيال

إلى أن قال فى إيثاره الإقامة فى الريف:

أقمت فى الريف لا أشقى بطاغية — من الرجال ولا لاهٍ وختّال
وعشت بالرطب من بقل وفاكهة — فيما ملكت وماء فيه سلسال
أطلت فيها اعتزال العالمين ولى — بكل ناحية همى وأشغالى
لقيت فى عِشْرة الجهال عاطفةً — لم ألقاها من رجال غير جهال

يحذر قومه من مفاوضات سنة ١٩٣٦

وعرج فى هذه القصيدة بالمفاوضات التى كانت جارية وقتئذ بين مصر وبريطانيا وأسفرت عن معاهدة سنة ١٩٣٦، فحذر قومه من مغبة هذه المفاوضات، قال:

ولم أزل بينهم للخصم متّقيا — دخائلا هى فى ذهنى وفى بالى

أخشى على رسلهم نياته وهم ... منه أمام جلاميد وأدغال
وما تزال كما كانت سياسته ... يدور فيها بأشكال وألوان
وموضع الند أرجو عنده لهم ... لا موضع الصيد من أنياب رئبال
وقد يكون لهم من ضيقهم فرجٌ ... كما تُدَافع أهوالٌ بأهوال

وظل الكاشف فى قريته وعزلته، وفيًّا لشعره ومبادئه، إلى أن أدركته الوفاة فى ٢٩ مايو سنة ١٩٤٨.

* * *

محمد عبد المطلب

١٨٧٠ - ١٩٣١



هو الشاعر البدوى البليغ، والمجاهد الوطنى الصميم، محمد عبد المطلب، ولد سنة ١٨٧٠ ببلدة (باصونه) من قرى مديرية جرجا لأبوين عربيين مصريين من سلالة قبيلة جهينة إحدى قبائل جزيرة العرب، وكان والده رجلا صالحا متفقها، فأرسل ابنه إلى الأزهر وتلقى فيه العلم نحو سبع سنين، ثم انتقل إلى (دار العلوم) ومكث بها أربع سنوات، وتخرج منها عالما أديبا، وتولى التدريس فى مدارس الحكومة، واختير مدرسًا بمدرسة (القضاء الشرعى)، ثم مدرسًا فى (دار العلوم)، ونضج علمه، واكتمل شعره وأدبه، فصار من فطاحل الشعراء الذين يشار إليهم بالبنان، ولما شبت ثورة سنة ١٩١٩ ساهم فيها بشعره وأدبه وجهاده، وخلّد حوادثها بقصائده الغر، وكان حجة فى الأدب واللغة، وشعره يجمع بين البلاغة والجزالة وروعة الأسلوب، وبلغ فى مكانته الشعرية منزلة فطاحل الشعراء المتقدمين، وكانت الروح الوطنية الدفاقة تتجلى فى معظم أشعاره وقصائده؛ وله فى هذه الناحية إنتاج ضخم يصلح فى ذاته أن يكون ديوانا مجتمعا من الشعر الوطنى؛ وقد ظل على إنتاجه الشعرى إلى أن أدركته الوفاة سنة ١٩٣١.

روحه الوطنية

إن أحسن وصف لروحه الوطنية ومساهمته فى الجهاد وخاصة فى ثورة سنة ١٩١٩ ما قاله فى رثائه صديقه وزميله الشاعر محمد الهراوى إذ يقول عن (جهاده الوطنى):

فذاك وإن جَدّت خطوبٌ وأجْلَبَتْ ... فإنك للُجلَّى وللحادث الجِدِّ

تخاطر والجند المدجّج محدق ... وتمضى وصوت (الموزريّات) كالرعد

فتبكى وتستبكى العيون على الحِمْى ... وتعدو على العادى عليه وتستعدى

وتخطب حتى تستثير وتنثنى ... وقد حَمِيَتْ آناف قومك من وَقْد

وما هالك الجندُ الذى كان محدقا ... ونفسك من فرط الحمية فى جُند
نزلت عن النفس الكريمة فديةً ... إلى الوطن العانى، كذلك مَنْ يفدى

مصر أثناء الحرب العالمية الأولى
١٩١٤ - ١٩١٨

قال من قصيدة له يصف ما عانته مصر أثناء الحرب العالمية الأولى، وينعى على الإنجليز بغيهم وعدوانهم وإعلانهم الحماية فى ديسمبر سنة ١٩١٤، ويندد بفظائع السلطة العسكرية البريطانية فى سنى الحرب:

وعادت رياض النيل نارًا جحيمُها ... يُشَبّ لغير الخائن المتملق
فكم سيدٍ بين الغيابات حتفُه ... وآخر بالأصفاد والسوط مرهق[1]
ترى أدمع النعمى بناعم جسمه ... نجيَع دم من جلده المتمزق
يقضى الليالى بين ظلم وظلمة ... طريدَ الكرى فيجوف أغبرَ مطبق
وتمسى نَجِىّ الحزن جارةُ بيته ... سوادَ الدجى بالمدمع المترقرق
وفى حجرها لو أبصروا ذو تمائم ... يكلّمها بالعين من غير منطِق
إذا فزعت فى الخدر من هول ما ترى ... فلا راحمًا تلقى ولا عطف مشفق
ودارةِ عزٍّ أوحشت من أنيسها ... وما كان فيها من جلال ورونق
تحمَّل أهلوها على غير موعد ... وبانوا على حكم الزمان المفرِّق
ينادى لسان الحال من شرُفاتها ... «قفوا ودِّعونا قبل وشْك التفرّق»
ولم يُنْسها التوديع موقف شامت ... يقلب فى الغادين أجفان مُحْنَق
وما ملَّهم فيها ثواءٌ وإنما ... نَجَحوْا بالنوى من ظُلْم أرعنَ أحمق
يناديه فينا قائدَ الجيش[2] قومُه ... وما قادهم إلا إلى شر مأزق
تعسف بالأحكام غيرَ موفق ... وما ظالم فى حكمه بموفق
فكم ساقَ من مصر إلى الموت فتيةً ... زهاها الصِّبا فى عنفوان وريِّق[3]
جموعٌ كآجال النعام تلفهّا ... يدُ القمر للآجال من كل منعق[4]

(١) يريد بالغيابات السجون والمنفى.
(٢) يريد قائد جيش الاحتلال.
(٣) الريق: أول الشباب.
(٤) آجال أى القطيع والمنعق من نعق الراعى غنمة إذا زجرها.

لــه عُـصَب فى غــورهــا وصـعيـدهــا ... تخـيَّر أبنــاء الـشبــاب وتـنـتـقـى[١]

فـفـى كـلّ إقـليم حُـجـولُ مُقَـيِّـدٍ ... لـغـير عَـصِـىٍّ أو حـبـالُ مُـرَبِّـق[٢]

وفى كـل وادٍ منهـمُ سـوطُ مُـعـجـل ... يهـدّد بـالـتـنـكـيـل كـل مـعـوِّق

ومن لم يَسقْـهُ السـوط والسيف سـاقـه ... إلى حيث شـاءوا جهـدُ عيش مـرمِّق[٣]

يوم إعلان الحماية

وقال عن إعلان الحماية فى ديسمبر سنة ١٩١٤:

بـلاءٌ عـلى القـطرين أغـطش ليله ... ضحى يوم نحس بالخطوب مؤوَّق[٤]

دَجَتْ يوم إعلان (الحـمـاية) شمسُـه ... فيالك من يوم على مصر أورق[٥]

بـه لَفِحَتْ سـود الليـالى فليتـه ... قضى فى بـطون الغيب لم يتخلَّق

قضينـا بـه يـوم المدلَّـه بـالأسى ... وبتنـا عـلى ليـل السليم المؤرَّق[٦]

عَشيةَ يدعـو «مكسويـل[٧]» سَرَاتهـا ... لعيـدين يـوم الجمع يـوم التفـرق

يُبوِّئُ عرشَ النيَل من شاء جانفًا[٨] ... فننُشـده والخطب بـالخطب يلتقى

«رويـدكِ حتى تنظرى عمَّ تنجـلى ... غيـابـة هـذا العـارض المتـألق»

فمن دون عرش النيل كلُّ مدرّب ... كمىٍّ متى يُرعِد لـه الهول يُبـرِق

بصير بأسبـاب الردى غَـرْب سيفه ... لبـوس المنـايـا بـين هـام ومفـرق

ثَـوتْ نفسه من بـأسه فى مِجَنَّةٍ[٩] ... متى يدْنُ منها طـائفُ الموت يُصعَق

نقض العهود والمواثيق

وقال يهاجم الإنجليز وينعى عليهم نقضهم للعهود والمواثيق:

فسائلْ بنا أُعلاجَ «لندن» هل وفَوْا ... بعهـدٍ لنـا بـين الأنـام ومَـوْثِق

---

(١) يريد بالغور الوجه البحرى ونخير أى نتخير.

(٢) الحجول القيود، وربق أى شد.

(٣) المرمق من يشبع جوعا ويمسك رمقا.

(٤) أغطش ليله أظلمه ومؤوق اسم مفعول فعله أوق. يقال أوقه أى حمله المشقة.

(٥) الأورق الذى لونه إلى الرماد. يريد أنه مغبر بالخطوب.

(٦) المدله: الذاهل.

(٧) الجنرال مكسويل قائد القوات البريطانية حين إعلان الحماية.

(٨) جانفا أى ظالمًا.

(٩) المجنة: الترس

لدى فتنة لم يغن عن مصر عندها ... حمية حام أو تقيَّة متقى
جرت عَمَمًا لم تبق أرضًا أمينةً ... ولا بلدًا بنّاؤها لم يحرّق
ثلاثين عامًا لا ترى مصرُ منهمُ ... سوى صَلَف المستكبر المتعزّق[1]
ثلاثين عامًا لم تَشِم برقَ راحة ... ولا طيب مخضرّ من العيش غَيْدق[2]
ثلاثين عامًا بين يأس وحسرة ... وهول زمان بالحوادث مِتأَق[3]
إذا ودَّعت (عامًا) من الجور أبقعًا ... تفئ إلى عام من البؤس أبلق
ثلاثين عامًا بالهوان تسومها ... سفاهةُ غارٍ فى المكايد مغرق
يرى نفسه فوق القوانين بيننا ... متى ما نذكّره القوانينَ يحنق
يبيح غدًا ما حرَّم اليوم بالهوى ... لغير الهوى فى حكمه لم يوفَّق
إلاهة جبّار وإمرة خاطل ... وتدبير أعمى فى الحكومة أحمق
إذا ما شكوناهم عميدًا فأمرنا ... لأعلم منه بالنكاية أحذق
يقرب خوَّانا ويرفع جاهلا ... ويُسعد أشقاها ويَشْقَى به التقَّى
إذا ما مضى هذا أتى ذاك بعده ... على النهج لم يعدل ولم يترفق

إفساد التعليم

وقال يذكر إفساد التعليم والدور المشئوم الذى قام به دنلوب فى هذا الصدد:

وبالعلم سَلْ «دنلوبهم[4]» لم لم يدع ... ذَوَاقًا من العرفان للمتذوّق
هو الجهل فينا حشدته لحكمة ... يدُ الله تنكيلا بشعب مدوق[5]
رمتنا به حمى أصابت بلاده ... تطاير عنها كل فَدْم حَبْلّق[6]
فحلَّ بنا فيمن تمرّق منهمُ ... فيا عجبًا للسارب المتمرق
ولو وزنوا فى غير مصر مقامه ... لأرخصه فى السوم كل مُدَنّق
فأصبح داءً فى المعارف قاتلا ... يسدد فيها كل سهم مفَوّق

(١) المتعزق: العسر الخلق.
(٢) الغيدق: الرخص الناعم.
(٣) متأق أى مملوء.
(٤) المستر دنلوب وكان سكرتيرا عاما ثم مستشارا لوزارة المعارف والمسئول الأول عن انحطاط التعليم فى عهد الاحتلال.
(٥) المدوق: المهزول.
(٦) الفدم: الأحمق، والحبلق: الصغير القصير.

فواها على تلك العقول التى تَوَتْ بكفّيه فى لحدٍ من الجهل ضيّق
ثلاثين عامًا يسكُبُ النيلُ حسرةً على العلم دمعَ الواله المتشوّق
وما وردوا من عذبه غير لامع من الآل فى بيدائها مُتَريّق
ولولاه كانت مصر بالعلم روضة تلألأ بالأنوار للمتأنّق
أ «دنلوب» ما تلك المبانى رفيعةً متى ما تسامق هامُها النجم تَسْمُقُ
وما العلم أن يعلو رتاجٌ وقُبة على فدُن بالأرجوان مزوَّق
أ «دنلوب» هل أرضيتَ قومك غايةً أم العَيْرُ[1] إن يُبعد به الشّوط ينفُق

ثورة سنة ١٩١٩

وله قصائد غراء فى ثورة سنة ١٩١٩ أرخ فيها جهاد المصريين والمصريات وفظائع الإنجليز فى قمع الثورة.

حضارة مصر ومجدها

قال من قصيدة له أنشدها سنة ١٩١٩ فى الاحتفال بعيد النيروز يشيد بحضارة مصر ومجدها وفضلها على العالم:

فلا. يا ابنةَ البيتِ الذى عند بابه تخرّ ملوك العالمين إذا مرّوا
رويدَكِ إنّا فى العُلا يوم نَنْتمى كلانا أبوه النيلُ أو أمه مصر
لنا ذِرْوة المجدِ الذى تحت ظلّه تناسلتِ الأحقاب واعتمل الدهر
لنا آية الأهرام يتلو قديمَها حديثُ الليالى فهى فى فمها ذكْرُ
ملأنا بها لوحَ الوجود مَتاقبًا إذا ما خلا عصرٌ تلاه بها عصر
وللعلم من آثارنا فى جبالنا على الدقر آياتٌ بها ينطق الصخر
ولِلْمُلك منا كلُّ أروع نظّمت على تاجه الأفلاكُ والأنجم الزهر
ومنّا الذى ساق الأساطيل شُرَّعا على البحر يستحيى لصولتها البحر
إذا جهلوا «مينا» و «خوفو» و «كفرعا» فليس «برمسيس» على ملكه نُكر
وإن أنكروا مُلْكَ «ابن يعقوب» بيننا «فموسى» على ما أنكروا شاهدٌ بَرّ

---

(١) العير: الحمار. وينفق: يهلك ويموت.

لنـا كلّ مـا فى الأرض من مدنيـة ... بهـا تعمرُ الأمصـار والبلد القَفْـر

* * *

جزى الله مصرًا ما جزى أهلَ نعمةٍ ... على الناس يَعْيا دونها العَدُّ والحَصْر
فكم كشفتْ من ظلمةٍ «عين شُمسها» ... فـما تَمَّ سهـلٌ لا يـضئ ولا وَعْـر
لنا فى الورى حقُّ المعلّم لـو رَعَوْا ... لنـا ذِمَّةً والـدهـر شيمتُـه الغـدر
فهـل يُنكـر اليـونـان أنـا هُداتهمْ ... إلى حكمـةٍ فى العالمـين بهـا بَـزّوا
وهـل نَسِى الـرومـان للنيـل أنعـمًا ... بمـا ورثـوا منهـا سما لهُم الفخـر
فنحن الأولى قـد أورثوا كـلّ أمةٍ ... من الفضل ما يُغنى به الحمد والشكر
إذا اعـتزّ قومٌ بـالجديـد سمتْ بنا ... مكـارمُ فى طَىّ الـزمـان لهـا نَشْـر

الوحدة بين العنصرين

وقال يشيد بالوحدة بين عنصرى الأمة:

بنينـا عـلى آداب عيسى وأحمـدٍ ... منـازلَ عـزٍّ دونها يَقـع النّسـر
فنحن عـلى الإنجيل والـذِّكـر أمة ... يؤيّـدهـا الأنجيـلُ بـالحقّ والـذكـرُ
لنـا كل مـا فى مصـرَ والحقُّ قـائمٌ ... تـؤيـده الآيـات والحجـج الـغـرّ
فلن يستـطيع الـدهر تفـريقَ بَيْننا ... وان جـرّ قوم بـالسِّعايـة ما جـرُّوا
كـلانـا عـلى دينٍ بـه هـو مؤمن ... ولكنَّ خِـذلان البـلاد هـو الكفـر
إذا ما دعتْ مصر ابنَها نهض ابنُها ... لنجـدتهـا سيّـان مـرقس أو عمـرو
ترى ذكرَ مصرٍ فى الهياكـل قُربـةً ... وفى صلوات المسلمـين لهـا ذِكـر
فـلا يحسبنّ للنـاس أنّـا تـزلـزلتْ ... بنـا قَـدَمٌ أو مَسَّ وَحـدتنـا الضـرّ
أَلَمْ تـرنـا فى كـلّ عيـد ومَـوْسم ... حـليفَىْ ولاءٍ لاجـفـاءٌ ولا هـجـر
إذا كان عيد الفطر فالكـل مُفْطِر ... يهلّل بـالبشرى ويـزهـو بـه البِشـر
وإن جـاء بـالنيـروز يـومٌ تـزاحمت ... عليهمْ بـه الأفراحُ وانتعش القـطر
فياعيدّ أهلِ النيلِ عِدْ أهلك المنى ... تجـلّى منـارُ الحق وانبلج الـفجـر
وصـافـحْ بشعبَيْـك السعـادةَ مُقبـلًا ... بمصر على الأفـراح وليَقل الشعـر:
تـلاقت أمـانينـا عـلى خيرِ غـايـةٍ ... وسـارت بنا الآمـال يقدمُهـا النصر

ثورة الأمة سنة ١٩١٩

ومن قصيدة أخرى أنشدها فى حفلة لعقائل السيدات فى مسرح برنتانيا سنة ١٩١٩:

مصرُ أُمّى، فداء أمى حياتى | سلمتْ أُمُّنا من العاديات[١]
يا رياح الحياة فى مصرَ هُبّى | روِّحينا بطِيب ريّا الحياة
يا سماءَ الحياة فى مصر جودِى | أنفُسًا فوق نيلها صاديات[٢]
ما لأمّ الأمصار حمّلها الدهـ | ـر صنوف الآلام والمُوجِعات؟
ما رعى ذمةً لها يوم كانت | زينةً فى عصوره الخاليات
إن تناستْ قديمَ مصرَ ليالٍ | أنكرت صالحاتها الباقيات
فاسألوهن عن حديثٍ حديثٍ | لبنيها عَدُّوه فى المعجزات
دَهِش الناس يومَ قيل صحتْ مصـ | ـرُ وكانت فى غَفْلة وسبُات
إذ لَقينا الخطوبَ وهى شدادٌ | فتولّت جموعهُا مُدْبِرات
وركبنا متنَ الزمان ذَلولا | فمضيْنا لغاية الغايات
بين ش٣يب بالحزم تحدو شبابا | صادقى العزم ثاقبى النظرات

دور المرأة فى الثورة

وقال يشيد بدور المرأة فى الثورة:

وغَوانٍ سمعن دَاعىَ مِصرٍ | بين تلك القصور والغرفات
أفزعتْهنّ حادثات الليالى | فى بنيهنّ بالرّدى راميات
فترامينْ من وراء خدور | كنّ فيها البدورَ مختدرات[٣]
سافراتٍ ولسنَ أهلَ سفور | حاسراتٍ من شِدّة الحسَرات
وكتبن الوفاءَ للنيل عهدا | فى قلوب بحبّه داميات
وتواصين لا يضيِّعن دِينا | أو يعطِّلن سنُةّ المؤمنات
إيهِ. لله سعيُكنَّ جميلا | يا بناتِ الأنجاب والمنجِبات

(١) العاديات: الأحداث والنوائب.
(٢) صاديات: عطشى.
(٣) مختدرات: مستترات فى خدورهن.

ظلموا النيل يوم عدّوا بنات النـ ... ـيل جهلا فى زُمرة الجاهلات
زعموهن بالحجاب عن العـ ... ـلم ونور العِرفان محتجبات
بنتُ مصر كالشمس يحجبها الليـ ... ـل وراء الآفاق والظلمات
وهى فى أُفْقها ضياءٌ ونور ... ساطع فى بدورها النيّرات
أوْ هى المسك ينفُذ العَرف عنه ... من وراء الأستار والحجُرات
عرفتْ كيف يكبُر المرء طفلا ... كيف يقفو أباه فى المكرُمات
أبصرت منبِتَ المحامد فيه ... فتولّتْه بالتُّقى والأنَاة
وغذّتْه المجدَ الذى ورِثته ... عن كرام الآباء والأمهات
يا ابنة النيل أنتِ للنيل ذخر ... خالد فى آثاره الخالدات

وثبة مصر

ومن قصيدة له سنة ١٩٢٠ يصف وثبة مصر:

تكلّم وادى النيل فليسمع الدهرُ ... وأملَى على الأيام فليكتب الشِّعْرُ!
فحسبُ العوادى نَهْمَةُ النيل زاجرًا ... وحسبُ الليالى أن يُقال صحتْ مصر[1]
صحتْ بعد ما أزرَى بها الصبرُ والأنى[2] ... ويا ربما أزرى بصاحبه الصبر
لعْمرك ما صبرُ الأبىّ مهانةً ... ولكنّ صمت الليث يعقبه الزأر
فلا تحسبوا أنّا وَنَيْنا عن العلا ... ولا زَهِدتْ فينا مناقبنا الغرّ
ولا أنكرتنا شمسُ جيل ولا انطوى ... لنا عَلَم بين الدهور ولا ذكر
وفى الناس من شابت قرون «وأعصر» ... وهُمْ فى بطون الغيب عرفانُهم نكرُ
وهل مصرُ إلا آية أزليةٌ ... مقدّسةَ والنيلُ فى لوحها سطر
تفلّقت الأجيال حول وجودنا ... ونحن الجبال الشمّ والزهر النضر
لئن كان ماضينا فخارًا فإنما ... بحاضرنا تعلو المحامدُ والفخرُ
وَقفنا لرَيب الدهر حتى تغلّلتْ ... مضارُبه وانشقّ عن ليله الفجر
حرامٌ علينا أن نعيش أذِلةً ... وذو الذل أولى ما يكون به القبر!

* * *

---

(١) النهمة: الصوت.

(٢) الأنى: الأناة.

فظائع الإنجليز فى قمع الثورة

وقال حين اشتد عدوان الإنجليز فى قمع الثورة سنة ١٩١٩ وفتكوا فى طريقهم ببعض القرى كالعزيزية والبدرشين:

يا مصرُ ما بال الأسى لك حالا ... لو أنَّ مفجوعا يردّ سؤالا
ظِلم الزمانُ بَنىَّ فى أحداثه ... وعدا عليهم بالخطوبِ وَصَالاَ
يا ناشرى عَلَم السلام، ألم تَروْا ... للِّسلم فى أرجاء مصر مجالا؟
ما العدل؟ ما حريةُ الأمم التى ... سارت رسائلكم بها أرسالا؟
ما عهد (ولْسُن)[1] أين ولسن هلْ درى ... أنّا بمصر نكابد الأهوالا؟
أمِنَ العدالة عنده أن يُبتلى ... شعبٌ يريد بأرضه استقلالا؟
سفراءَ (ولسن) هل لكم أن تُبلغوا ... عن مصرَ صوتًا بالشَّكاة تَعالى؟
صرخاتُ أهل النيل منْ أحلافكم ... طارَ الزمانُ لوقعها إجفالا؟
أضحت شعوب الأرض فى بُحبوحة ... يتفيئون من السلام ظلالا
وهمُ أحق العالمين بوِرْده ... صفوًا وشربِ رحِيقِه سَلْسَالا
لكنهم سِيموا الردى فتواردوا ... شِرَعَ[2] المنايا مُسرِعين عجالا
تَعِسوا بحكم الإنجليز وطالما اعـ ... ـتمدوا عليه وخادعوا الآمالا
ما بال أبناء الحضارة أوْغَلُوا ... فى أرض مصر نكايةً ونكالا
وَثبوا على القطرين وَثبةَ قاهر ... هَتك الستورَ ومزَّق الأوصالا
نزلوا بأرض النيل منزلَ غادرٍ ... نصب الخداعَ حَبَائلا وحبِالا
حلفوا لأهل الأرض حِلفة فاجرٍ ... لبِسَ المسوح مُرائيًا مُحْتالا
أن يبسطوا ظِل الحضارةِ فوقه ... ويعلِّموا من أهله الجهّالا
حتى إذا ملكوا أزِمَّةَ أمره ... ساموا بَنيه الضيَّمَ والإذْلالا
واستنزفوا ثمراتِ مصرَ كأنما ... خُلِقت لهم ثمراتُها أنْفالا

---

(١) ويلسن: الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية. ويريد بعهده مبادئه المشهورة التى أعلنها عند دخول أمريكا الحرب العالمية الأولى وأساسها احترام حرية الشعوب واستقلالها.

(٢) شرع، جمع شرعة وهى المورد.

فـإذا بدا وجـه الخـداع وأشـرقت ... شمسُ العدالـة فى الـورى تتـلالا
نَغضـوا[1] رءوسهـم لـغَيْـلة أمـة ... خُلقت تعـافُ الغـادرَ المغتـالا

شجاعة المصريات فى الثورة

وقال فى هذه القصيدة يصف شجاعة النساء المصريات فى مقاومة الإنجليز:

تلك العقـائـل يـرتمين مع الظُّبـا ... مـستقبـلات لـلردى استقبـالا
تُغْضى عيـون بنى البـلاد مهـابـةً ... مـن حـولهن وتـنـحنى إجـلالا
وأرى ابن لندن نحوَهن مصـوِّبـا ... بيضَ الـظبـا متـوثبـا مجتـالا
يـابن اللُّكيعـة[2] إنهن عقـائـل ... يَفْـدِين من فتكـاتـك الأنجـالا
يـابن اللكـعيـة إنهن عـقـائـل ... يسـألْن حـقـا لا يـرُدْن قتـالا
يـابن اللكيعـة مـا حملن صـوارمـا ... لـبنى أبـيـك ولا دعـون نِـزَالاَ
أبنـاؤهن إذا الأصـول تقـارعت ... كـانـوا الكـرامَ وكنتمُ الأنـذالا
يـا بن اللكيعة تلك سُبَّتـك التى ... صـدع المقـطمَ خـزيُهـا فـأمـالا
وارحمتـاه لقـريـة مـفجـوعـة ... والليـلُ يُـرخى فـوقهـا أسـدالا
محـزونـة خَبَـأَ القضـاءُ لأهلهـا ... تحتَ الـظلامِ وَقيعـةً ونَـكـالا
من غـادة غـال البغـاةُ عَفـافهـا ... فبكى الحجـابُ عفـافهـا المْغتـالا
ومصـونـة فى الخـدرِ طـار يلبّهـا ... صيحـاتُ كلب فى الحـظيرةِ جَـالا
مـاذا أرى؟ جِنٌّ أحـاط بمضجعى ... أمْ تـلـك أحـلامٌ تَمُـرُّ خَيـالا؟
مـا هـذه الجَلَبـاتُ؟ لا أدرى لهـا ... معنى ولست أعِـى لَهُـنّ مـقـالا
أنـا لست نائمـة؟ وهـذى جِنـة[3] ... تـدنـو كـأعجـازِ النخيـل طِـوالا
ويـلاه! مـا لأبى عَـلِّى نـائـمًا؟ ... والبيتُ من وَقـع الحـوافـر زالا
أعـلىٌّ نـادِ أبـاك، لا، أنـا خـائف ... يـا أُمِّ لا تـتـكـلـمى؟ لا لا لا
هـذى جنـود الإنجليـز رأيتهـا ... (بـالبـدرشـين) تقتّل الأطفـالا
صاحوا بصَحن البيت صيحةَ فاتـكٍ ... عـاتٍ يرى النفسَ الحرامَ حَـلالا
فـإذا مَتَـاع البيتِ يُنْهَب بينهـم ... وقـد استحلوا نَهْبَـه استحـلالا
ولـرُبَّ دار بـالقنـابـل أصبحت ... قـبـرًا تضَمَّنَ نـسـوةً وعيـالا

---

(١) نغضوا رءوسهم: حركوها وهزوها.
(٢) اللكيعة: اللئيمة.
(٣) جنة: جن.

وأبٍ تحيط بـه هنـالـك صبيـةٌ تبكـى عليـه وتُكـثِر الإعـوالا
ظُلْماً تَشُول بـه القنابـل فهـو فى جوِّ السماء مع القشاعِم شالا(١)
يـا رَبّ، إنَّ الإنجليـز تعمـدوا إرهـاق مِصر سفـاهَـة وضـلالا
يا رَب، مصرُ بك استجار ضعيفها فى عَبْـرَة تُذْرِى الدموعَ سِجالا
فـأذِقْ عدوَّك سوءَ ما مكروا بـه واجعـل عـواقبـه عليـهِ وَبـالا

يخاطب مؤتمر الصلح بباريس سنة ١٩١٩

ومن قصيدة له أنشأها حين اعتقل سعد زغلول لأول مرة فى أوائل سنة ١٩١٩، يذكر الثورة ويعاتب مؤتمر الصلح فى إهماله مطالب مصر:

يـا دمـاء الشبـاب تجرى عـلى الأر ض جِسـادا(٢) به تَـرَى مصر يُـطلى
مـا لبـاريس لاتـرى أهلَ مصـر بـين أهـل السـلام للعـدل أهـلا؟
كـل شعب لـه بمؤتمـر الصلـ ـح نصـير من البعـوث ومـولى
ليت شعـرى فهـل أتـاه كتـابٌ أو تَلقى من جـانب النيـل رُسْـلا؟
أو دَرَى أننـا نُـراد اختـلاسـا فى بيـاض النهـار والشمس تُجـلى
سفـراءَ الملوك، ضجـة مصـر حـولكم من زمازم(٣) الرعـد أعـلى
كـم رفعنـا إليـكُم فى شكـاةٍ حُجَّـة كـالصبـاح أو هى أجـلى
وسـألنـاكُم البـلاغَ فلم نسمـ ـع جوابًـا يَـردّ فى الغِمد نصـلا
إنَّ لـلنيـل ذمـةً وعـهـودًا هـىَ دَيـنٌ عليكُـم ليس يَبْـلى
لـو حقَنْتم تـلك الـدمـاء اللواتى أهـرقتهـا بنـادق القـوم سَيْـلا
كـان سهلا عليكُم أن تصـونـوا أنفسًـا وِردُهـا الردى كـان سهـلا

يندد بفظائع الإنجليز فى إخماد الثورة

وقال فى هذه القصيدة موجها حديثه إلى المارشال أللنبى الذى عهدت إليه بريطانيا قمع الثورة:

---

(١) تشول. تعلو، والقشاعم: النسور.
(٢) الجساد (بالكسر): الزعفران.
(٣) الزمازم، جمع زمزمة، وهى الصوت البعيد المدوى.

أيهـا القـائـدُ المُـدِلّ علينـا ... قـاتـلَ الله مَـن علينـا أدلاَّ
صَلَفٌ بـين أهـل مصـرَ وعُجْبٌ ... كـان هـذا بـأرض (بلجيك)[١] أولى
صَـلَف جـدَّ فى مـواطـن هـزل ... فـإذا جد جِـدّهـا عـاد هـزلا
علـم النـاس أن مصـرَ بـلادٌ ... لم تكن للحـروب والسيف قبـلا
منعتهـا الأيـامُ حَمْـل المـواضى[٢] ... وهى زَيْنُ السيـوف هـزًا وحمـلا
فَلِمَ الـكبـريـاء بـين أنـاس ... تـركتهم حـوادث الـدهـر عُـزلا؟
أيهـا القـائـد الـذى حـيَّر السيـ ... ـف بـدار الأمـان[٣] شيـمًا وسلا
عَلِّم الخيـل كيف تَخْتـال فى غيـ ... ـر بـلاد ولم يُجْـر للحـرب خَيـلا
إنمـا يَحْمـدُ المَخـيـلةَ[٤] يـومٌ ... أشـرف الموتُ فـوقـه أو أطـلا
مـا لمصـرٍ تُجْـزَى جـزاءَ سِنـمـا ... رَ لـديكم وبـالـدنّيـة تُبـلى
وأراكـم لـولا بنـوهـا سُقيتـم ... من حيـاض المنـون عَـلا ونَهلا
سـائلوا الشـامَ هـل بغير بنينـا ... جُبتُم الـوعـرَ من فلسطين سَهْـلا
أو مـددتـم بغـير أبـنـاء مصـر ... فى بـلادِ العـراق للفـوز حَبْـلا
إبْـلُ مصر وأتنهـا[٥] تعـرف الفضـ ... ـل عليكم، لا تنكـر العُجْمُ فضـلا
لـو درى النيـل مـا سيلقى بنـوه ... حَـرّم الأرضَ غـيـرةً أن تُغـلا

كم ظفـرتم منـه بمـا عجـز (التـا ... ميـز) عنـه ونـاء بـالعبء حمـلا
كـلَّ عـام تجبى إليكـم حبـوبٌ ... تفضـخ الجـاريـات وزْنًـا وكيـلا[٦]
وقنـاطـيرُ من نـضـار يـوافيـ ... ـكم بهـا القـطنُ كـلَّ عـام أهَـلاَّ
نِـعَـمٌ لـو أردتمـوهـن شكـرًا ... مـا وفيتم منهـا القليـلَ الأقـلاَّ
مـا جهلتم لمصـرَ فيهـا صنيعًـا ... إن تقولوا قـد يُنكر الفضـلُ جهلا
أنسيتـم لمصـرَ مـا منحـتـكم ... من هِبـات ما جـاوزت بعدُ حـولا
أم نسيتم أبنـاءهـا يفتـك المـوْ ... تُ بهم فى الـوغى وبـاءً وقتـلا

---

(١) يشير إلى هزيمة الحلفاء أمام الزحف الألمانى فى بلجيكا إبان الحرب العالمية الأولى.
(٢) المواضى: السيوف.
(٣) الشيم: اغماد السيف.
(٤) المخيلة: الكبر.
(٥) الأتن: الحمير؛ والعجم:االبهائم...
(٦) الجاريات: السفن؛ وتفضخها: تسكرها, لثقلها وكثرتها.

وختمها بقوله:

معشرَ الإنجليز مصر لأهليـ ـها ومن ظن غير ذلك ضَلّا
معشرَ الإنجليز مصر استقلت وجديرٌ بالنيل أن يستقلا

يخاطب مؤتمر الصلح أيضًا وينادى بالاستمرار فى الكفاح

ومن قصيدة أخرى له سنة ١٩١٩ يخاطب مؤتمر الصلح بباريس، وينذر بالاستمرار فى الكفاح إذا لم تجب مطالب مصر:

أباريسُ إن كانت لضيفٍ كرامة لديك فضيف النيل أبلغُ من يُثنى
أباريسُ إن تُدنى العدالةُ وافدًا عليكِ فأهلُ النيل أكرمُ من تدنى
أباريسُ كم للنيل عندك من يد تَناقلها التاريخُ قرْنًا إلى قرن
ومن شُكرها أن تعرفوا حق أهله وألا تَسُوموا (وَفْدَهُ) صفقة الغبن
حرامٌ عليكم أنَ يراق له دم حرامٌ وأنتم قادرون على الحقن
فيا أمراء الغرب دعوة مُسْمِع يُصرّح فى رفع الشكاةِ ولا يكنى
سلوا حِلْفكم عما جرَى فى ديارنا وما جرحوا مما يَشين وما يضنى
وما هذِه الغارات يعلو صريخها مؤججةً، هذى ترُوعُ وذِى تُفنى
وما هذه الأجسادُ فى كل بلدة مُصرَّعةً فوقَ التراب بلا دَفن
إذا طفح الخزَّان من دم أهله فَثَمَّ دمٌ فى الثغر يُرْبى على الخَزَن
نَرى الحرب فيما بينكم جفَّ عودها فما بالها فى مصرَ ناضرةَ الغصن؟
على غير ما ذنبٍ جنينا فما لنا نُسَامُ الدنايا لم نحاربْ ولم نَجْنِ
فيا عجبًا شعب يساق بأرضه أسيرًا إلى دار المذلة والسجن

* * *

ملوكَ الوَرَى، لن يتركَ النيل حقه ولو مزَّقونا بالمثقفة اللدْن[١]
ملوكَ الوَرَى، لن يتركَ النيل حقه ولو طحنوه بالمقذَّفة الدُّكْن[٢]

---

(١) يريد بالمثقفة اللدن الرماح المقومة.
(٢) يريد بالمقذفة الرصاص والقنابل. والدكن: ما تضرب إلى السواد.

ظننا بهم خيرًا من الـدهـر حِقْبـة فكـانت قصـارانـا بهم خيبـةُ الـظن
صبـرنـا وأشهـدنـا الأنـام عليهم إلى أن رَمَـونـا بـالمهـانَـة والجبن
ثـلاثـين عـامًا بعـدها سبعـة خلت طـوال الليالى السود حالكـة الـدجن
عـواصفُ بأس ينشـدها النيـل تحتهـا نقمتُ الرضا حتى عـلى ضاحـك المُزْن
سَقـونـا بهـا مُـرًّا من العيش آجنـا ويـاليتهم لم يـرهقـوا النـاس بـالمَنّ
فـإن تُنصفـوا أبنـاء مصـر فمِنّـةٌ لـكم أبـدًا نُـثنى عـليهـا بمـا نـثنى
وإلاّ رددنـاهـا عـليهـم كـريهـة وللدهـر شـأن لا يُقـاس عـلى شـأن

رثاؤه لمحمد فريد

ولما جاء نعى الزعيم محمد فريد فى منفاه (نوفمبر سنة ١٩١٩) - وكانت مصر فى إبان الثورة - رثاه بقصيدة مؤثرة تفيض وطنية وبلاغة قال:

سَلُوا جفنَ عينى مـا لـه بـات ينـزفُ وعهـدى بـه إن سُمْتُـه الـدمـعَ يـأنفُ
ويـا رُبَّ هـمٍّ يملك الـنـفسَ بـالأسـى ويعـدو عـلى العـين الجمـود فتـذرف
ومـا أنـا! مـا دمعى! وفى مصـر أنّـه بهـا الـطير نـوح والغمـائم وُكّـف[1]
بـكـين غـريـبًـا طـوّح البـينُ دارَه فـلا العَوْدُ مـأمول ولا الـدارُ تعرف

* * *

ومـا أنكـرتْ مصـرُ ابنهـا فَنَبتْ بـه ولـكـنـه دهـرٌ عـلى الحـر يُجْنِـفُ[2]
ثـوى غـربـةٍ، بعد المعـاد قـرارُهـا فيـا طـول مـا يستشـرف المُتشـوّف
وكنـا حسبنـا شُقـةَ البـين تـنـطوى فيـأوى إلى مِـربـاعـه المُتصيِّـف[3]
وأطـمعـنـا فى الملتـقـى لمـعُ بـارقٍ مـن السِّلم فى ليـل الحـوادث يَخْـطف
فلم نـر سلمًا ينتـهى النـأى عنـدهـا بـنـاءٍ ولا حتـمَ الـردى يتـخـلَّف

* * *

بعينىَ مـن نـادى منـاديـه للنـوى فـوَدّع لا يـأنِى ولا يـتـوقّـف

---

(١) وكف: مرسلات بمائها.
(٢) أجنف: جار وعدا.
(٣) المرباع: المكان ينبت فى الربيع؛ والمتصيف: المصطاف.

يُدافع آلامًا تياسرن قلبَه ... لها حُرَقٌ تُدمى القلوب فتنطُف
ففى قلبه مما دهى النيلَ زفرةٌ ... يكاد لها من تحته البحر ينشفَ
وفى عينه من لوعة البين عَبرةٌ ... يكفكفها كِبرًا فلاتتكفكف
وفى نفسه عُتْبَى على البلد الذى ... قسا أهلُه جهلا عليه وأَجْنَفو
برمتِ بنا يا مصر لا عن جناية ... يُعنِّى عليها جارم أو يُعنِّف
وكيف تناست مصر حسنَ بلائنا ... إذ الدهر ألوى والحوادث تَعصِف
مواقفنا يا أمَّ فيك شهودُها ... تؤيدنا يوم العتاب وتُنصِف
رويدك نفسًا أنكرت فعل قومها ... بذى حَدَب يُقْسى عليه فيرأف
على رغم قومى ما لقيتُ وإنما ... هو الدهر فى أحكامه يتعسَّف

***

سلامٌ على قومى، وداعًا بنى أبى ... وللنيل ما ألقى وما أتكلف
ويا موقفَ التوديع هل تُسعد المنى ... فيجمعنَا يومٌ بمصر وموقف
أخاف المنايا أن يكنّ رواصدًا ... ومالىَ من أسبابها أتخوّف
تحدثنى طيرٌ جَرَيْنَ بوارحًا ... بأن المطايا بى إلى الموت تزحف
ويحزننى وِرد المنايا ولم تزل ... بلادىَ تحبو فى الإسار وترسُف
حرامٌ علينا أرضُها وسماؤها ... أليَّةَ[1] من لا يمترى حين يَحلف
ويا فُلْكُ باسم الله مجراك أقلعى ... فإما الردَّى أو يُنصف النيلَ مُنصفُ
فما كان إلا ن طوى البحر والثرى ... وحجَّبه سترٌ من الغيب مُسجَف[2]
فدون تلاقِينا ليال وأشهرٌ ... وبين ديارينا جبال وصَفْصفُ[3]

***

هنالك ألقى فى بنى الغربِ رحله ... على همة من همّها الدهرُ يَكْلَف
بعيد المرامى لا تهد صفاتَه ... عوادٍ إذا صبَّت على «الألب» ع تحْرَف
تقذّفه فى زاخر اليأس همة ... جدير بها الليث المصور المقذَّف

(١) الألية: القسم.
(٢) أسجف الستر: أرسله.
(٣) الصفصف: الفلاة.
(٤) جبال الألب المشهورة.

وهيهات أن يخشى أخو الحق قوةً … سوى الحق أو يعنو لبأس فيضعُف
ثوى فى بلاد الغرب بالنيل عاتبًا … وفى الغرب للعانى مَراد ومألف
يصرّف أحداث الليالى غواشمًا … وأنيابُها من شدة البأس تَصْرِف
فطورًا تراه فى «جنيف» لباسهُ … على القرّ أسمال به يتلقف
إذا صَفِرت من ذات دنياه كفُّه … تجلّد لا يشكو ولا يتأفّف
ويأوى إلى بيت وطىء عماده … وفى مصرَ يبكيه البناء المطَنَّف
ويكنفه من فتية النيل أنجمٌ … بهم نعتلى هامَ الفخار ونَشرف
إذا احتدمت للبأس نارٌ فعْلَهمٌ[1] … على البأس ماضٍ ذو غرارين مُرْهَف
وإن ذُكر المجد القديم فإنما … بذكرُهم تلهو القِيان وتعزِف
إذا ما انتمى قوم لدُنيا جدودِهم … نَمَتْهم لعُلياها معدٌّ وخِندف[2]
وإن ذكروا أبناء فرعون رجّعت … مناقبَهم وُرْقٌ من الفخر هُتَّف

* * *

فيا مُسمعَ الأحرارِ من كل أمة … مُنَى قومه والحرّ للحر يُنصف
لقد فجع «الفسطاطَ» فيك وأهلَه … من الغرب ناعٍ قام باسمك يهتف
لقد فجعونا فيك يوم تتابعت … رسائلهم بالموجِعات وأرجفوا
فيا ويح يومٍ قال فيه غريبها … على فُرُش البلوى ببرلين مُدنَف
بروحىَ إذ جاء الأطباء خُشَّعًا … وقاموا بأكناف السرير وطوّفوا
يعلّله بالقول منهم مُبَشّرٌ … وتبكى له منهم قلوبٌ وترجُف
تجوّفه الداءُ العضال وهل نجا … من الموت مُضنىً داؤه يتجوّف
قضى الله أن يُسْقَى «فريد» بأرضنا … كئوسا بالاستسقاء للنفس تخطِف
يعز على «برلين» أن يغلب الردى … عليك بَنيها، والردى ليس يُصرَف
أطباءَه: لو يستطيع فداءَه … بنو مصر غَالوا فى الفداء وأسرفوا
فليلٌ عليه لو يُفدِّيه قومه … بما جمعوا من تالدٍ أو تَطَرّفوا
فليتَ الليالى سالمت فيه أمةً … براها الأسى من بعده والتلهف

---

(١) العلهم: الضخم العظيم.
(٢) معد وخندف حيان من العرب؛ يريد أن أصولهم عريقة فى النسب والشرف.

عـرفنـا لـه بِـرَّ الـوفيّ بعـهـدهـا إذا خـان قـومٌ عهـدَ مصر فلم يَفُـوا
أفـاض عليهـا نفسـه بعـد مـالـهُ ومـالَ بهـم عـنهـا مـتـاعٌ وزُخـرف
ولـولا رجـال مؤمنـون نَجَـوْا بهـا لـراحت بهـا ريـح من الغـدر زَفْـزَف[1]

يندد بالفرقة والانقسام، ويدعو إلى الوحدة

وحين حدث الانشقاق فى الوفد سنة ١٩٢١ وقام الخلاف بين سعد وعدلى وانقسمت الأمة تبعا لذلك، نظم قصيدة يندد فيها بالفرقة والانقسام، ويدعو إلى توحيد الصفوف قال فِيها:

كنـا أشقـاء الإخـاء فـما لنـا صِـرْنا بنى العَـلَّات والأخياف[2]؟
بـالأمس كـان إخـاؤنـا مثـلا وكـنـا زيـنـة الخـلطاء والأُلَّاف
كنّـا إمـامَ المَشـرقـين، سبيلُنـا قَصْـدٌ ومشْـرعنـا نميرٌ صـافى
يتـرسمون عـلى الحيـاة طـريقنـا لـلحق فى الإيـضـاع والإيجـاف
فـإذا بنا جـارت هَـوَادى رَكْبنـا عـن منهـج الآبـاء والأسـلاف
عَبثتْ بوحدتنـا الخطوبُ وأعلمت فى غَـرْس أيدينـا يـدُ الإتـلاف
والخصم يجـل بيننـا للشـر فى ثـوبين ثـوب مُـوافق ومنـافى
مُتنمّـر يُغـرى العـداوة بيننـا بـالـكيـد والـتفـريـق والإرجـاف
أوَ ليس فيما قد مضى من عِبْرة لـبنى أبى، والأمْـرُ لـيس بخـافى؟
أوَ لم يَرَوْا أو يسمعوا نُذُرَ الردى تَـطْوى إلينـا لُجـةً الـرَّجّـاف[3]
هـذى تُلوِّح بالـوعيد وتلك تـر مينـا بـه فى لهجـة الأجـلاف[4]
جعلوا صحـافتهم مظاهـرَ كيـدهم فتـزاورت جنفًـا عن الإنصـاف
صحف يضيـع الحق فى ألـوانها صـورًا يزبـد بهـا عـلى الآلاف
الحق فيهـا كل مـا شاء الهـوى حُـكْمٌ تـؤيـده بـلا استئنـاف
فليعتبر قومى كفى ما قد جرى من ذات خلف بـينـنـا وتنـافى
لا تُوجِعوا تلك القلوبَ فحسبهـا جـام أصاب من الـزمان الجـافى

(١) زفزف: شديدة الهبوب فى دوام.
(٢) العلات: جمع علة، وهى الضرة. والأخياف: الذين أمهم واحدة وآباؤهم شتى.
(٣) الرجاف: البحر؛ سمى به لاضطرابه.
(٤) الأجلاف: جمع جلف؛ وهو الرجل الجافى.

عشر كواملُ فى الخلاف فهل بها   من ذلك الداء المبرّح شافى
شربت من الأيام كل مرنّقٍ   من كل مر بالخطوب زُعاف
أبنى أبى، ردوا القلوب إلى الهدى   وتنبهوا فالدهر ليس بغافى
الوفد منا والحكومة بعضنا   هذا أخو هذا بغير خلاف
والنسر غايته البوار ومن أبى   فالله للشعب المروَّع كافى

* * *

أحمد زكى أبو شادى

ولد سنة ١٨٩٢



هو الشاعر المجدد، والأديب الحر المفكر، الدكتور أحمد زكى أبو شادى.

ولد سنة ١٨٩٢ بالقاهرة، من أسرة عريقة فى الوطنية، وأبوه المرحوم محمد أبو شادى أحد كبار المحامين الذين نالوا المكانة الرفيعة فى عالم المحاماة وممن جاهدوا فى الحركة الوطنية، ووالدته السيدة أمينة نجيب من السيدات الأديبات الشاعرات، وكان أخوها المرحوم مصطفى نجيب[1] أديبًا وطنيًا وصديقًا ونصيرًا للمرحوم مصطفى كامل.

أتم دراسته الابتدائية ثم الثانوية فى المدارس المصرية، وظهرت مواهبه الشعرية والأدبية فى هذه المرحلة من الدراسة، وكان من تلاميذ مصطفى كامل فى الوطنية، ودخل كلية الطب بالقاهرة، ولم تصرفه الدراسات الطبية والعلمية عن الاستمرار فى دراساته الأدبية، فأحب الشعر وتذوقه، وأقبل على نظمه وهو فى هذه السن المبكرة، وشعره رقيق ممتع، يمجد الوطنية وينزع إلى الحرية والتجديد والخروج على الأساليب القديمة، واحتفظ بهذا الطابع على تعاقب السنين، وأكمل دراسته الطبية فى انجلترا، وتعمق فى الآداب الإنجليزية إلى جانب دراسته من قبل للآداب العربية، وازداد تعلقًا بالتجديد فى الأدب والشعر، ولما عاد إلى مصر تنقل فى مناصب الحكومة وصار أستاذًا للبكترولوجيا بكلية الطب بجامعة الإسكندرية ومديرًا للمعمل البكترولوجى بالمستشفى الحكومى بها.

كان ولا يزال يصدر فى شعره عن إلهامه وعقيدته وإيمانه، وفى ذلك يقول عن نفسه:

وهل كان شعرى غير إيمان مهجتى ... وعِشقْى وإحساسى ولَحنى المردَّد

وكون مدرسة أدبية تزعمها ترمى إلى الثورة على القديم والدعوة إلى الحرية فى الفكر

---

(١) والد الأديب الأستاذ سليمان نجيب.

والأدب والفن، وكان لهذه المدرسة مجلة أدبية تسمى مجلة (أبولو) النعرية الأدبية، أصدرها أبو شادى فى القاهرة سنة ١٩٣٢ وكانت ندوة لأنصار الجديد من الشعراء والأدباء، وتكاد تكون المجلة الشعرية الوحيدة التى ظهرت فى العالم العربى، وقد استمرت نحو ثلاث سنوات ثم احتجبت.

وقد صادف أبو شادى فى حياته الحكومية والأدبية عنتا وأذى من رؤسائه وأنداده، واستهدف من أجل نزعته الحرة لشتى ضروب المناوأة، فاعتزم الهجرة من مصر، وهاجر فعلا إلى نيويورك فى سنة ١٩٤٦، وهناك رحبت به الدوائر الأدبية والعلمية ترحيبًا عظيما، وأخذ ينشر فى الصحف والمجلات العربية والأفرنجية فى أمريكا ثمار أدبه وشعره، ونفحات آرائه وأفكاره، كما أخذ يذيع من «صوت أمريكا» مرتين فى الأسبوع، وأسس فى نيويورك (رابطة مينرفا) الشعرية الأدبية على غرار (جمعية أبولو) وقدرته الحكومة الأمريكية والجامعات والمعاهد والمؤسسات الثقافية فى العالم الجديد، وانتخب أستاذًا للأدب العربى بمعهد آسيا بنيويورك، وهو يتولاه إلى اليوم[1] بجدارة تفخر بها مصر، ويعد أبو شادى رائدًا من رواد النهضة الأدبية والفكرية الحديثة، وهو رغم هجرته إلى العالم الجديد دائم الصلة بوطنه بواسطة الصحافة فى أمريكا وفى مصر، وبواسطة مريديه وتلاميذه الممتازين الذين اقتبسوا من روحه التقدمية وتعلقه بالحرية وإيمانه بما يقول ويكتب.

وهو فى أحاديثه ومحاضراته لا يفتأ يذكر مصر ويناضل عنها ويحن إليها ويشيد بها وبعلمائها وأدبائها وكتابها وتاريخها، وهو فى غربته خير سفير أدبى لمصر فى العالم الجديد.

وله عدة دواوين من الشعر نحى فيها منحى التجديد والابتكار. وحلّق فى سماء الفن والخيال والسمو الفكرى.

نذكر منها ديوان «أنداء الفجر» وهو أول دواوينه ومختارات من نظمه سنة ١٩١٠. و «أنين ورنين» وهو صور من شعر الشباب. و «الشفق الباكى» وقد ظهر سنة ١٩٢٤. و «الينبوع». و «أشعة وظلال» وقد نشر سنة ١٩٣١. و «أطياف الربيع». و «فوق العباب» وقد طبع سنة ١٩٣٥. و «عودة الراعى» وقد ظهر سنة ١٩٤٢.

ومن آخر دواوينه «من السماء» وقد ظهر فى نيويورك سنة ١٩٤٩ ويضم معظم شعره من سنة ١٩٤١ إلى سنة ١٩٤٩.

هذا ماعدا ما أخرجه من الكتب والمؤلفات والقصص والمسرحيات.

---

(١) وقت ظهور الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٩٥٤.

رثاؤه لمصطفى كامل

قال من قصيدة له فى فبراير سنة ١٩٠٨، وكان ما يزال طالبًا بالمدرسة الثانوية يرثى مصطفى كامل:

يا مصر حلّق طيرُ اليأس فى أفق ... داج بأحزان شعب كان ساليها
مات الرئيس فماتت بعده هِمم ... قد كان نبراس فكر منه يجليها

إلى أن قال:

سارت به أمة أحيا مداركها ... حتى إلى القبر وارت فيه حاميها
ودّت لو أن صروف الدهر تأتيها ... وتلكم النفس هذا الشعب يفديها
والكلّ يلبس ثوبا للحداد أسى ... على الفقيد ومامن ثمت يهديها
أبصارها نكست من فوقها كتبت ... عبارة كان صدق الحس يمليها
يامصر الفتاة مرور العمر تذكره ... لروحه لم تزل تعدو أمانيها

مفخرة رشيد

وله فى سنة ١٩٢٥ قصيدة وطنية من نيف وستين بيتا، نظمها تمجيدًا لذكرى معركة رشيد التى وقعت يوم ٣١ مارس سنة ١٨٠٧ بين المصريين والإنجليز وفاز فيها أبطال رشيد على الجيش البريطانى الذى زحف على مدينتهم يريد احتلالها، فصمدوا له وقابلوه فى الشوارع واستبسلوا فى الدفاع عن مدينتهم حتى صدوه عنها وهزموه وارتد عن المدينة بعد أن فقد فى المعركة ١٧٠ قتيلا و٢٥٠ جريحًا و١٢٠ أسيرا[١]، وكانت هذه المعركة حقا مفخرة لرشيد وأشاد أبو شادى أيضًا فى قصيدته بالمعركة الثانية التى وقعت فى (الحماد) وانتهت كذلك بهزيمة الجيش البريطانى.

قال:

رَوِّحينا بأحاديث الجلال ... وَبِنَفْحٍ من هواهم غيرِ بالِ
وَاسْمَحِي (يامصرُ) أن نُزجى لهمْ ... مُنْتَهى فَخْرِ رجالٍ برجالِ
ما عَرَفْنا قدرَنا إنْ لم نَحُزْ ... سيرةً منهم تُغَذّينا بحالِ
وبآمالٍ لِآتٍ غالبٍ ... إنَّ آتى المَجْدِ من ماضى الخيالِ

(١) راجع فى تفصيل معركة رشيد كتابنا (تاريخ الحركة القومية الجزء الثالث - عصر محمد على).

خاطئٌ مَنْ ظَنَّ ماضيه بلا مُرْشِدٍ يهْدِى إلى غالى المآلِ
ماغنا شعبٌ بلا جهْدٍ مضى وَتَبَقَّى فيه تَذْكارُ الفعالِ
هى أحلامٌ وَأعمالٌ بَنَتْ فى سنينٍ وسنينٍ كلَّ غالِ
هو مَهْدٌ وُلِدَتْ فيه العُلَى بأناةٍ وكفاحٍ ونوالِ
لم تجىءْ طَفْرَةً جيلٍ لاعبٍ إنما جاءت على طُولِ اللّيالى
كابرٌ عن كابرٍ قد صانَها بمراعاةٍ وأخلاقِ المعالى

إلى أن قال محييا ذكرى أبطال رشيد الذين صدوا جيش الغزاة المستعمرين:

رَوّحينا (مصر) مِنْ ذكراهمو تلكَ ذكرى عن بُلوغٍ لِمُحَالِ!
بلّغينا كيف أوْدَى عَزْمُهمْ بصعابٍ قُمْنَ أقْسَى من جبالِ!
كيف هَزُّوا قُوَّةً أكبرَها عالَمُ القوَّةِ والحربِ الضلَّالِ!
كيف ضَحْوْا للرمال دَمهمْ فى دفاعِ العزِّ عن تلك الرّمالِ!
كيف أفْنَوْا من جُنودٍ صَوّبَتْ نحوهم أقوى مُعدّات القتالِ!
كيف كيف استبسلوا فى وَاجب وَأقاموا المُلكَ وضَّاءَ الخلالِ؟!

* * *

يا(رشيدُ)الذكرُ حَيُّ خالِدٌ لعظيم الجُهْد معدومِ المثالِ
أنتَ ثَغْرٌ ناطقٌ فى رَسْمِهِ حُرْمَةَ الماضين (للنيلِ) الزّلالِ

إلى أن قال:

مثلَ ما أذكى لها شُبانها فتحدُّوا خَصْمَهُمْ قبلَ السؤالِ
كالجرادِ نَشْرُهُمْ فيكَ على رَبَوَاتٍ يرقبون وتلال
فإذا العادونَ جاءوا ما بهمْ ثقةٌ إلا وضاعت فى مَلَالِ
وأتتْ فرقتهمْ فى نَشْوَةٍ عَنْكَ فارتدّتْ خيالاً فى خيالِ![1]
بين قَتْلَى وَحيارى هربوا وَضحايا لإسارٍ وعقال
ثم جاءوا فى جميسٍ لجبٍ وعَوَادٍ لم يكنْ جالتْ ببالِ[2]

---

(١) يقصد معركة رشيد.

(٢) يقصد معركة (الحماد) التى تقع جنوبى رشيد بين النيل وادكو؛ وقد وقعت فيها المعركة الثانية بين الإنجليز والمصريين يوم ٢١ إبريل سنة ١٨٠٧؛ وكانت أشد وأقوى من معركة رشيد، وهزم فيها الجيش البريطانى أيضا هزيمة ساحقة، انتهت بفشل الحملة البريطانية وجلاء الإنجليز عن الديار المصرية فى سبتمبر سنة ١٨٠٧.

مِنْ متاريسٍ كَفَتْ رؤيتها ... لحساب وَعقابٍ ونكال !
وعديدٍ بين باغى مَدفعٍ ... أسودِ الوَجْهِ وإمْدادٍ مُوَال !
وَأبَوْا إلا حصارًا هائلًا ... فدفعت الحَصْرَ دفْعًا بالعوالى !
وَغنِمت كلَّ ما كان لهمْ ... من شُموخ وَإباءٍ قبلَ مال
رحلوا رحلةَ جانٍ ضائع ... بئس يومُ الخُسْر من يوم ارتحال

* * *

هكذا بالبأسِ تحيا أمّةٌ ... لا بخوفٍ أو غلوٍّ أو خَبَال
هكذا بالوَحْدَةِ الحسناءِ لا ... يعْدَمُ الإصباحَ أبناءُ الهلال
إنَّ شعبًا يتحدَّى (انجلْترا) ... فى مجالِ الحَقِّ شعبٌ لا يُنال
وَبَنْين ينشدون مثل ما ... أحسن الآباءُ أوْلَى باكتمال
إنما الأمّةُ مِن أفرادِها ... فى ثباتٍ ووفاءٍ ونزال

إلى أن قال:

إيهِ قومى قُمْتُ فيكم ذاكرًا ... (نافرين) الأمسَ فى مُشْجى المقال
وأنا اليومَ طَرُوبٌ ذاكر ... دُرَّة التاريخِ شعّتْ كاللآلى
فلنا كلتاهما عنوانُ ما ... يحفظُ التاريخُ من غالٍ وحالٍ
أيُّ مصرىّ درى ما لَقِنَا ... مِنْ عظَاتٍ ثمّ أضْحى وهو سالٍ ؟
أىُّ جَمْعٍ مِنْ خصالٍ خرَّةٍ ... لم تكرّمْ جَمْعَ هاتيك الخصال ؟
أىُّ شعبٍ فى جلالٍ وسنىً ... يدّعى أنّا عبيدٌ وَمَوَال ؟
كُلُّنا فَرْدٌ له أمّتُهُ ... حَظُّهُ بل قصْدُه فى كلّ حال
لا سُباتٌ - هانَ أم طالَ بنا - ... ما يُؤدّى بِعُلانا لانحلال
فى طلابِ المجد - أن تمضى بنا ... فترةٌ للهَو أو دوْرُ انتقال
خابَ مَنْ ظنّ الرقادَ ميتةً ... كم أسودٍ رقدتْ تحت الظلال !

* * *

آن رَجْعُ الجهْدِ قومى فانفضوا ... سِنَةَ اللّهْو وهيَّا للمَجال !
بسلاحِ العلمِ قبل السَّيف قدْ ... صارتْ الحرْبُ أعاجيبَ اشتغال

رُبَّ خيطٍ من نسيج القطن لا ... يبلغُ المدفعُ منه كفعالِ
عالمٌ فيه الفنونُ قوّةٌ ... والصناعاتُ، وليستْ للجدالِ
عملٌ مُسْتَتْبَعٌ لا ينقضى ... لاقتصادٍ وانتفاعٍ واشتمالِ

* * *

أمّتى ! أحْلَى دُعائى دعْوَةٌ ... لكِ مِنْ قَلْبى بها أسمى ابتهالى ؟

رثاؤه لفريد

قال سنة ١٩١٩ من قصيدة له فى رثاء محمد فريد :

سلوا (برلين) عمن حل فيها ... يفتت كبده المرض العنيد
مضى يستوهب الأيام عمرا ... تتم به المساعى والجهود
فلم يذهب بعلته طبيب ... ولم يكتب له عمر جديد
وخرّ على السرير وحب مصر ... على تبريح علته يزيد
فيا لهفى عليك وأنت كهل ... غريب عن أحبته بعيد
تموت فلا ترى مثواك أم ... ولاأخت ولازوج ودود
ولا يروى ثراك أخ شقيق ... بدمعته ولاطفل وليد

الحياة كفاح

قال سنة ١٩٢٣ من قصيدة له عن (المجاهد الجريح) يصف الحياة وأنها كفاح وجهاد :

شهدتُ من الدنيا المعارك والمُنَى ... تشوق الفتى نحو المعارك والخَطْب
فصرتُ كجندىٍّ جريحٍ مضمَّد ... يئن ولكن كم يحنُّ إلى الحرب
ويهرب من حكم الحجا فى وثوبه ... إلى ساحة الهيجاء والموقف الصعب
توالت جراحاتى وأوذيتُ دائما ... وهيهاتِ أُلْقِى من سلاحى ومن دَأْبى

يدعو الشعب إلى مجاهدة الفساد

وقال من قصيدة له فى ديوانه (عودة الراعى) سنة ١٩٤٢ :

يا شعبُ قمْ وانشد حقو ... قك فالخنوع هو الممات

تشكو الغريب وعلة الشـ ـكوى الزعامات الموات

* * *

قد عمت الفوضى وقد دب الفساد بكل شئ
فإذا سكنت فلن تُعـ ـدَّ ولن يفى لك أىّ حىّ

* * *

ما دمت تقبل أن تكـ ـون من الضحايا كالعبيد
سيسُومُك القُوَّام والأسـ ـياد ألوانَ القيود

* * *

يا شعبُ كيف تطالب الغُـ ـرباءَ بالبرِّ السخىّ
وتطيق مُلكَك فى محا باةٍ وفى نهب وغَىّ

* * *

هيهات يُعطى الحقَّ من ألف التهاون فى الحقوقْ
هذا هو العدل الصحيح وغيره عَيْن المروقْ

* * *

انهضْ وحاكم بائعيك إلى الهوى وإلى الفساد
أو متْ ذليلا لا يُقا س بذُلِّه حتى الجماد

يودع مصر

وقال يودع مصر ويذكر أسباب هجرته فى قصيدة له عنوانها (لم أرتحلت ؟):

سألونى لم ارتحلت؟ كأنى لم أجبهم بسيرتى نصف قَرنِ
شاديًا بالطليق من شعرى الباكى أغنى لمجدهم ما أغنّى
وحياتى لعزهم فى كفاح ككفاح الشعاع فى وسط دجن
مُثُل لن تخد نوعا وعدا كنجوم السماء فى كل فن
وتبلغت بالعذاب وبالبؤس مرارا وكل حظى التجنّى.

وكأني وحدى المسيء بإحسا … ني لعصرى أو أنه لم يسعنى
ما كفاهم أنى أعانى وجودى … فى وجود بقاؤه محض غبن
ما كفاهم أنى أواصل ليلى … بنهارى لأجلهم وسط مَنّ
ماكفاهم أنى أضحّى بروحى … حينما عز من يضحى ويفنى
ما كفاهم أنى تناسيت نفسى … فوق نسيانهم حقوقى وأمنى
ما كفاهم أنى لهم ذلك الرا … ئد يشقى كالراح فى أسر دن
ما كفاهم أنى ارتضيت شقائى … لى جزاء ويهدمون وأبنى
ماكفاهم هذا وهذا فنادوا … بعقوقى وماراعوا حق سنى
ثم حالوا بين المثالية العلـ … ـيا لفكرى وبين شعبى وبينى
فترحلت حيث تحترم الأحرار … وحيث الهواء طلق لذهنى
وأظل الوفىّ رغم اغترابى … لبلادى ما غيبت قط عنى

القلب الباكى

ومن قصيدة نظمها فى عيد ميلاده عام ١٩٤٨ يناجى فيها الوطن قائلا:

يامصر لولاك ما فارقت فى حرقى … أزكى الجنان، ولاعوقبت، لولاك
أهواك فى غربتى أضعاف ما سمحت … به المقادير فى قربى، وأهواك
ما العيد عندى فى مباهجه … أنا الغريب فعيدى يوم ألقاك
على سلام وفى حرية شملت … لا أن أعود لأغلال وأشراك
الثلج حولى أحنى فى تحرره … على فؤادى من ضيم بدنياك
والنفى أسعد أيامى إذا فرضوا … ذل الجباه لمألون وأفاك
ياربّ مقترب فى حكم مغترب … وضاحك كل ما فى قلبه باك

الحنين إلى الوطن

قال يصف حنينه إلى الوطن وتعلقه به فى غربته:

نَفْيان: نفى مغرَّب عن أمتى … عانٍ، ونفى معذَّب فى وحدتى
وحيالى الأفراح شتى مالها … حدٌّ، فلا ألقى النعيم بنعمتى
قالوا فررتَ وما فررتُ وإنما … كافحت فى وطنٍ به حريتى

وضربت بالحرمان أمثال الهُدى ... للعاملين وكم شقيتُ لأمتى
لم أعن بالأشكال قدر عنايتى ... بتمسكى بمبادئى فى ثورتى
حرق البخور لمن أذلّ بلاده ... وحَرقتُ فى إعزازها من مهجتى
وجعلتُ ما عانيتُ قربانا لها ... وأظلّ فى سقمى وفى شيخوختى
وطنى! رضيتك منصفًا فى قدره ... جهدى وإخلاصى وغاية غيرتى

يتشوق إلى مصر

ومن قصيدة له فى حفلة أقيمت لتكريمه فى نيويورك سنة ١٩٥٠:

تركتُ مصر وقلبى لوعة ولظىً ... لجنّةٍ ضُيّعت فى نَوْم جَنّان
فِدًى لها - لو أباحت - كلُّ ما ملكتْ ... نفسى وما وهبت فى حبها الجانى
تركتُها وبودى غير ما حكمت ... به المقادير فى أشجان لهفان
وقلت عَلِّى على بُعْدٍ أشارفها ... وأنفخ الصورَ إن فاتته نيرانى
اثْنان خُلِّدت الدنيا لأجلهما ... الحبُّ والنيل مذكانا بإنسان

الوطن بأبنائه

قال فى اعتراف المواطنين بأقدار الرجال وأنه من مظاهر الوطنية السليمة:

إذا عرف الرجال حقوق بعضٍ ... لبعضٍ نُزِّهوا عن كل ضعفِ
فتنتظم البلاد بهم وتسمو ... ويغدو الفرد معدودا بألف

تأملات

ومن قوله فى قصيدة له بعنوان (أقصى الظنون):

ما الخلقُ، ما هذه الدنيا ومنشؤها؟ ... ما الفكرُ ما الجوهر الباقى وما العدم؟
مسائلٌ هى للأحقاب باقيةٌ ... كما سيبقى الردى والشك والألم
أجلُّ فرضٍ لها وَهْمٌ وأيسره ... وَهْمٌ وقد يستوى الدهماء والعلم

الوطنية والعروبة

ومن قصيدة له يعبر فيها عن وطنيته وعروبته:

إن العروبة والكنانة ملتقى ... دين يوحّده الوفىّ العابد
فلموطنى روحى وكل جوارحى ... ولكم حنينى والشعور الماجد
يكفى لنا النسب العتيد مجمعًا ... فجميعنا صَيدٌ رماه الصائد

نداء الحرية

ومن قصيدة له سنة ١٩٥١ يناجى الشعب ويمجد جهاده ضد الاحتلال فى معركة القتال:

بوركت يا شعب الكنانة ثائرًا ... حرًّا وياوطن البطولة قاهرا
أزجى إليك تحيتى من خاطرٍ ... دامٍ ومن قلب يذوب مشاعرا
يأبى النفاق ولا يبوح بغير ما ... جعل الحياة نفائسا وذخائرا
ليس الصديق هو المُقرَّب وحده ... ولَرُبَّ مهجور يُظن الهاجرا
إن كان غَيَّبنى العتاةُ فمهجتى ... لك أين كنت مكافحًا ومناصرا
آبى مساومة الطغاة وإن أذق ... شر الأذاة، مواليا لك ذاكرا
إن كان يُعوزِنُا السلاح فربما ... خلق الإباء بنا السلاح الباترا!

* * *

وحشٌ للاستعمار يمعن شره ... باسم الحضارة والتقدم ساخرا
وكأنما حسب العقول نفاية ... للناس، أو بعض الهواجس دائرا
هل يصلح المذياع من آثامه ... حين الرصاص بصيح أرعن كافرا؟
حين الفظائع قد خَطَبْن بألسن ... للنار واعتلت الجراحُ منابرا؟
حين الأساطير التى يدلى بها ... سبت بصائر للورى وسرائرا؟
حين الخرائب صارخات حوله ... مثل اليتامى لا تمثل عامرا؟

* * *

إن كان حسن الظن ذنبا أولا ... فيه، فكيف يعد ذنبًا آخرا؟
هو غاية الإجرام للوطن الذى ... عانى وعانى من أذاه خسائرا
لن يمنح الوطن المفَدَّى صفحة ... لفتى يخادع أو يخادع صابرا
ويرى بالاستعمار بعض خلاصه ... هل كان الاستعمار إلا جائرا؟

قرنٌ من التغرير عَلَّم نشأنا ... أن يحذروه مفاوضا ومشاورا
حذرًا بنى وطنى! فذاك عدوكم ... مهما تقلب فى المظاهر ما كرا
لا تمنحوه سوى القطيعة وحدها ... فمن القطيعة ما يكون الزاجرا
أو ما يكون به الخلاص ليومكم ... وعد نؤمل فيه بعثًا باهرا!
حذرًا بنى وطنى وكونوا وحدة ... فعّالة، لا ضجة وحناجرا!
ليست سلامتكم مجالا هيِّنًا ... إن السلامة قد تكون مَخاطِرا
لا تأسفوا - مهما حزنتم - للألى ... ذهبوا الضحايا فى (القناة) حرائرا
حمل الأديم من النجيع وصية ... تبقى لأحقاب تدوم ذواكرا
خَلُّوا التغني بالجدود وفضلهم ... مهما تلألأ روعة ومفاخرا
فهو الغنيُّ بذاته عن ذكره ... إلّا ليُلْهِم غافيًا أو شاعرا
وخذوا بأسباب لِمَنْعة حاضر ... إن الحقيقة ما تمثل حاضرا
كونوا من الشهداء فى إعجازكم ... بثباتكم، لا تجعلوه العابرا
لا عُذْرَ بعد اليوم عند تهاون ... إن التفوق لا يطيق معاذرا!

يهاجم فاروقًا قبل خلعه

ومن قصيدة له نشرها فى مجلة (الشهداء) التى تصدر فى حلب - عدد ابريل سنة ١٩٥١، يهاجم فيها فاروقًا قبل خلعه بعام، ويشبهه بالكركدنّ، وهى من بليغ شعره الوطنى، قال:

مِنْ دَمعة الشعب ومن كدِّهِ ... ومن دم الأمة فى نَرْدِهِ
مُلِّك الحد على صفوها ... ياليتها تملك من حَدِّه
كم يجعل الدين حبالاته ... ليخنق المصلح فى مهده
قد عَضَّها النحس، وما عضه ... إلّا فم يرشف فى وجده
يمرِّغ الأمة فى رجسه ... ويسرق الأمة فى رنده
عانت به وبأوشابه ... فى قُرْبه الجانى وفى بعده
منتفخًا، يمزح مستغرقًا ... فى، اللهو كالصائد فى صيده
كالكركدن الذى يزدهى ... فى قبحه يسخر من قده
لم تعطه غانيةٌ قبلةً ... إلا كمن تهزأ من رشده
أو بادلته نكتة حلوة ... إلّا ومغزاها مدى نقده

* * *

حتام يا قوم ضلالاتكم تمكّن الفاجرَ من قصده؟
كنا نرجيِّه مثال الهدى فأصبح الغاشم فى حقده
كنا نغنيه أغانى العلى فأصبح المبدل من حمده
كنا نفديه بأرواجنا فى روحه العالى وفى زهده
ما باله أضحى فتى ماجنًا الشارد الخادعِ فى وعده؟
حتام يستهزىء من مجدكم؟ حتام؟ والخسةُ من مجده
حتام يسترسل فى غيِّه؟ حتام؟ والسوقة من جنده
حتام أعلاكم له صاغرٌ؟ حتام؟ بل أهون من عبده
أعقلكم دون دفين الثرى لو يعقل الميِّت فى لحده

يحيى ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢

وقال سنة ١٩٥٢ من قصيدة له محييا ثورة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢:

بوركت يا وطنى العزيز محررًا سَمْحًا، وفى كل القلوب حبيبا
لو أستطيع كتبت شعرى من دمى حتى أزيد بشعرى الترحيبا
لو أستطيع سألت كل خميلة وبعثت بالشعر المنوَّر طيبا
لو أستطيع زففت ما أنا عاشق ليكون قربانا أعز قريبا
لو أستطيع بعثت من ضحك الضحى كنزا، ومن لهف الغروب نسيبا
لو أستطيع وهبت كل مكافح عمرًا تكرر فى الخلود عجيبا
لو أستطيع أعدْتُ أعوامًا مضت لتقصَّ أحلاما رأت ووجيبا
لو أستطيع بذلتُ أضعاف الذى حُملت فى إيثارى التعذيبا
لو أستطيع غسلت ساحة دوركم بمدامعى، ورششتها تطييبا
لو أستطيع هربت من شيخوختى ورجعت أرفل فى الشباب قشيبا

ينادى بإلغاء الملكية

من قصيدة له فى أكتوبر سنة ١٩٥٢ يدعو إلى إلغاء المَلَكية:

اقطعوها وانبذوا من دعاها نعمةً، إنا شبعنا مِنْ أذاها
قد خُدعنا فى الذى قالوا لنا عن جَنَاها، بئس ما يُجنى جناها

أثَـرُ أحـيـا قـرونـا سلفـت ... وأمـات العصـرَ[١] فى بَغْيٍ تناهى
قلتُ «أحيـا» ليتـه الحُلم الـذى ... كان أحيا الأمس إصلاحا وجاها
إنمـا أحـيـا شـرورا سلفـت ... زَوَّقُـوهـا كـى يَـعـدّوه إلهـا
خـدعـونـا حقبـةً واستسهلوا ... أن يُضلّوا الشعب فى الذل فتاها[٢]
كـم تـغـنّـيـنـا بـحـب صـادق ... فـرأينـا مَنْ هَـوَى فيمن تباهى
سـلطة الـشـعـب هـى الأمُّ الـتى ... أنجبت الأحرار، لا دعوى سواها

يحيّى الجمهورية المصرية

وقال من قصيدة له فى ١٩ يونيه سنة ١٩٥٣ يحيى الجمهورية المصرية بعد إعلانها[٣]:

إذا الحـكمُ لـلجمـهـور أصبـح رائـدًا ... أبى الحـقُّ أن يَلْقَـى بـه العـارَ والـظُّلْما
فيـه أمـة (النيـل) المبـارك حـاذرى ... - وقد نلْتِ ما تَهْوَيْنَ - أن تَخْلُقِى الضَّيْما
ولا تقبـلى الـتفـريـق فى أى مـظهـر ... فمن يقبل التفريق يستأهل الـرَّجما

* * *

أعـيـذكِ مـن وَهْـمٍ يـصـير عـقـيـدةً ... فكم أمـة هـانت بـإعـزازهـا الـوهـمـا
أعيـذ (جمـالا[٤]) والـزعيم (محمـدا[٥]) ... بِحِـذْقهما مِن حَـدِّ مـطلبـك الأسمى
قـد انتـزعـا من قيـل حَـظك عنُـوةً ... ومـا برحـا والـدهـر كـالطائش الأعمى
تَجَـبرَّ واسـتـعـلى فـردَّاه صـاغـرا ... وقـد كـان كـالمحموم سكـران بـالحُمَّى
وهـا أنتِ بـالعهـد الجـديـد طليقـةٌ ... ومُـنْـجـبـةٌ أعـلام نهضـتـك الـشُّـمَّا
فـفـى كـل شـبر مـن ثـراك خميـلةٌ ... وقـد كـانت الـويـلات تغتـالـه قَضْمـا
وفى كـل ركـن من ربـوعـك ملجـأ ... تـلوذُ بـه خـيرُ المـواهـب أو تُحْـمَـى

* * *

(١) أى العصر الحاضر.
(٢) فتاة، أى فضل.
(٣) أعلنت الجمهورية فى مصر يوم ١٨ يونية سنة ١٩٥٣.
(٤) جمال عبد الناصر
(٥) محمد نجيب.

فيـا (مصر) عَضِّى بـالنواجـذ حُـرَّةً ... على ما كسبتِ اليومَ واغتنمى اليوما

وهـيَّـا أعـدِّى للغـد المـرتَجَى عُـلَىً ... تـبـزُّ بـإعـجـاز لهـا كـلَّ مـا تَمَّـا

إخـاء وتـنـظيـما وعـلما وهمـة ... وفـنًّـا تهـزّ الـغـافـلين أو الـصُّـمَّا

ولا تشتكى من لاعـج اليُتْمِ بـعـدمـا ... أزلتِ بهـذا النَّصـر من دَمِـك الـيُتْـما

ألا فى سبيـل المجـد مـا قـد غَنمِتـه ... وهـا هو قـد أضحى لكل الـورى غُنـما

فـإنـك لـلأقـوام أمثـولـة الهـدى ... ومـا خصَّ شعبـا يستفيـق ولا قَـوْمـا

***

تـبـارك ربِّى حـين يُـنـصـف أمـةً ... تعـافُ ذليـلَ العيش واليـأس والنَّـوْمـا

عـزيـزٌ عـلى مِثلى البِعـادُ وقـد زَهَتْ ... منـائـرك الـزهـراء تستقبـل السَّـلْما

عـزيـز وفى قـلبـى حـنـان مـؤرق ... وحسبى - على رغمى - مفـارقتى الأمَّـا

إذا جئـت هـذا اليـوم أزجى تهـانئى ... فـمن قـلب محـروم تهلل إذ يُـدَمـى

ولـكـنّ نـفس الحـر نـفسٌ عـجيـبـةٌ ... تعيشُ عـلى الأضداد مهـما تكن غُـرمـا

يذكر مصر ويحن إليها

وقال من قصيدة أخرى يذكر مصر ويحن إليها:

لاتنهـروا روحى لـفـرط ولـوعهـا ... دَمْعى الـذى تـأبـون بعض مـودعهـا

أَلْقَتْ بى الأحـداثُ دون ربـوعهـا ... وأظـلُّ أحيـا فى صميم ربـوعـهـا

تثب الـرُّؤَى حـولى بـأنفـاس الـربى ... ونـوافـح الغـدران حـول ربيعهـا

وتهـزنى الـذكـرى فـأشرق بـالأسى ... والـذكـريـات وهـو بهـا كمنوعهـا

***

كـم واهـمٍ أنى سـلـوت ومـا درى ... معنى الـسلوّ وحـرقـتى لجـمـوعـهـا

إن الـفتى الـوافى بـكـى حـصبـاءهـا ... كـبكـائـه لـسمـائـهـا وزروعـهـا

دنـيـا الصبـاحـة والجمـال تـلألأت ... بـحنـانها، وتـراقـصت بـولـوعـهـا

أجـد الخضـوع لهـا أحبَّ عـبـادة ... شتـان بـين عبـادتى وخضـوعـهـا

***

لـو أستطيـع طـردت عن أزهـارهـا ... غـير النـدى والشمس غب طلوعهـا

وحميتها مما أغار تجنيًا — وجعلت أضلاعى أبرّ دروعها
وبعثتها من نومها، وجعلتها — فى عزمها كالشمس بعد هجوعها
وَأثرتها لعظائم ومفاخر — سيان بين وَضيعها وَرفيعها

* * *

مصر الحبيبة جنةٌ لا أشتهى — منها الخيار، فخيرها بجميعها
أهوى لها الإعزاز كيف تمثلت — بحياتها وتصورت بصنيعها
إن كان عاقبنى الزمان بغربتى — فلقد أفاء علىّ حلم بديعها
أو لم تتل عينى شعاع سنائها — فلقد جنت عينى طيوف نزوعها
وتركننى فى حيرة لا تنتهى — والنفس حيرتها أشد صدوعها
ركعتْ بمحراب الجمال بوهمها — وَتبتلّت فى حبها وَركوعها
وَأذابت الأحلام فى ألحانها — وَالدمع وَالتقبيل يوم رجوعها!
لا تنهروا روحى لفرط ولوعها — دمعى الذى تأبون بعض دموعها

ذكرى الشهداء

وقال فى (ذكرى الشهداء):

ذكرى يرددها الزمان الوافى — ألق الشموس لها من الأفواف
شعَّت على مرٍّ السنين، وعمرها — عمر البطولة بآل كل شغاف
متغلغلا بنهى الفوارس، دافعا — من يجمحون إلى الخلود الصافى
اليوم يوم صلاتنا لجلالها — واليوم نقرؤها الحنان الوافى
وعلى الثرى نَجْثُو، تقبل ترَبة — عبقت بحر شعورها الرفاف
ما كان بالخافى على مستلهم — شهم، وليس على الأبىّ بخاف

* * *

إنا بنى الأحرار نعرف قدرها — ونشيمها فى النور والأطياف
وبكل معنى للعظائم شامخ — وبكل نبع للحقيقة صاف
لانجد غير الحق يبقى ناصعا — سمحا على رغم الردى المتلاف

* * *

هـذى مقـابـرهم وتلك دمـاؤهم — مثـل النجـوم ونـورهـا الشفـاف
هيهـات يـدركهـا الـطغـاة وربمـا — سجـدوا لهـا رغـما عن الآنـاف
سيجىء يـوم للحسـاب، قضـاتهـم — تلك العـظام، بغضبـة الإنصـاف!

* * *

يـا أمـة الأحـرار دومى حـرة — والتضحيـات لـك الجـلال الكـافى
وبحسبـك الشهداء ضمـخ ذكـرهم — هـذا الأثـير، وشـاع فى الألـطاف
يـوم كهـذا اليـوم تهتف عنـده — مهـج الشعـوب العـانيـات هتـافى
وتـعـزه الـدنيـا الـتى حلمت بـه — حـلمـى، وتـزأر وثـبـة الآلاف!

يهاجم الإستعمار وينادى بالثورة عليه

ومن قصيدة له يهاجم فيها الاستعمار وينادى بالثورة عليه، نظمها سنة ١٩٥٢ لمناسبة الصراع بين الحرية والاستعمار فى تونس، قال فى مطلعها:

ثـوروا عـلى الـظلم العتىّ جهـارا — لا تـرهـبـوه وإن يـكـن جـبـارا!
الـنـار لم تخـلق لـغـير مجـاهـد — طلب العـظائم حين خـاض النـارا
لابـد من صَهْـر الـيقـين بشعلة — حـتى يخلص رائـعًـا قـهـارا
خَلُّو الـرصـاص مَـدوِّيًـا من حـولكم — لابـد أن يَهْـوَى وأن يـتـوارى
هـذى البـدايـة للنهـايـة، لم يـدم — حكم أسفّ بـه الـدخيـل فـبـارا
مُـرَّاكش ثـارت عـليـه، وفى غـد — سنـرى الجـزائـر تصفـع الجبّـارا

* * *

أمَـم الـعـروبـة نـخـوة وأرومـة — وثـقـافـة، أتقـدس استـعـمـارا؟
خسئـوا وضلوا، والخسيس بـطبعـه — يـلقى الـكـرامـة والمكـارم عـارا
يـاويلهم، ومن الضحـايـا حـولهم — لُسُنٌ تحـدث فى الصـمـوت مـرارا

* * *

«فـرحـات»[1] ليس بـأول أو آخـر — لجـرائـم روعـنـنـا تـكـرارا

(١) الزعيم العمالى التونسى الذى اغتاله الفرنسيون.

مـا كـان الاسـتـعـمـار إلاَّ سُبَّـة ولـو أنها لـبـسـت حـلى ووقـارا
يلهـو بـه المستعمـرون كـأن نسـوا عقبى الـذين يـلاعبـون النـارا
قـالـوا: «هـو النعم الجـزيلة فيضـه» واسـتـنـطقـوا الأدهـار والآثـارا
فتضـاحكت منهم، وفـاضـت عبـرة ودمـا، وآلامـا حـوت، وشـرارا

إلى أن قال:

إن قـدر المستعمـرون خضـوعهـا أبـدا فـقـد فـقـدوا لهـم أعـمـارا
ومن الشعـوب السـاكنـات ثـوائـر فى حـين يسمـع غيـرهـا هـدارا
لن يستـطعَ الـذلَّ من تجـرى بهـم تـلك الـدمـاء وتخـلق الأحـرارا

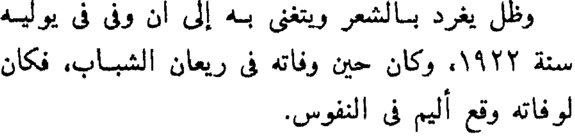
* * *

عبد الحليم المصرى

١٨٨٧ - ١٩٢٢

من الشعراء الضباط. ولد فى مايو سنة ١٨٨٧، وبعد أن أتم دراسته الابتدائية دخل المدرسة الحربية وتخرج منها سنة ١٩٠٦ فى التاسعة عشرة من عمره، وألحق ضابطًا بالأورطة السادسة عشرة من المشاة فى كسلا.

تعشق الشعر والحرية منذ صباه، فغاد بقصائد رقيقة فى التغنى بالوطنية والحرية.



وظل يغرد بالشعر ويتغنى به إلى أن وفى فى يوليه سنة ١٩٢٢، وكان حين وفاته فى ريعان الشباب، فكان لوفاته وقع أليم فى النفوس.

كانت له فى الشعر مكانة ممتازة، عبر عنها حافظ إبراهيم بقوله فى رثائه:

لكَ الله قد أسرعت فى السير قبلنا ... وآثرت يا «مصرىُّ» سكنى المقابر

وقد كنتَ فينا يا فتى الشعر زهرةً ... تفتح للأذهان قبل النواظر

فلهفى على تلك الأنامل فى البِلَى ... فكم نَسَجَتْ قبل البلى من مفاخر

ويا ويح للأشعار قبل نَجِيِّها ... وويح القوافى ساقها غير شاعر

تزودت من دنياك ذكرًا مخلَّدا ... وذاك لعمرى نِعْمَ زاد المسافر

وللمصرى ديوان شعر من ثلاثة أجزاء.

فجر الأمل

من قصيدة له نظمها سة ١٩٠٩:

ترعرع عهد اليمن واخضلَّ جانبُهْ ... وردَّ علينا اللّهُ ما الدهر سالبهُ

مضى زمنٌ كنا فريسة حربه ... وجاء زمانٌ ما نزال نحاربه

فلم يغلبِ الدهر العصىُّ مجاهدا ... من الشرق إلا قام ألفٌ يغالبه
فيا شرقُ قد جاشت بنفسك أنفسٌ ... فعدِّدْ لها بالله ما أنت طالبه
فإما أصابت من مُناها طليبة ... وإما تمشت للقضاء تطالبه
تقول له إما احتسبت جزاءنا ... وإما محونا اليوم ما أنت كاتبه
جزاكنَّ عنى الله يا خير أنفس ... ورواك من ماء المجرة ساكبه
إذا ما النفوس الطاهرات تضامنت ... على فوزها أبدى لها الفوز حاجبه

إلى أن قال مخاطبا الزعيم محمد فريد:

(محمد) لا يَلْو الكرى لك عزمةً ... عن البأس حتى أن ترن نوادبه
نهزت بأنباء البلاد ولم تمل ... عن الجد حتى نظم الدر ثاقبه
طلعت بهم فى باسم الصبح عابسا ... فقالوا أبو حفص بَدا وكتائبه
كأنى وأنت اليوم تدعو إلى الهدى ... وأكتب ما يملى الرسول وكاتبه
فجرد شَبا تلك اليراعة صارما ... وضارب به من لا نطيق نضاربه
لقد روعت منا الهموم جوانحا ... وفرت من الجفن الحريص سواربه

ثم قال مخاطبا الكتابة:

فيا غادة فى الشرق قد غار نجمها ... أطلِّى على واد نَمتْكِ جوانبه
لقد كان روضا وارف الظل فى العلى ... بلابلهُ تشدو وتصفو مشاربه
فأصبح تذروه الرياح عواصفا ... ترامى نواحيه وينهال كاتبه
إلى أن دعا داعى الصلاح حياله ... فألفى رجالا كالأسود تجاوبه
دعوتُ أناسا ليس يدعو هو امرؤٌ ... إلى رغبة إلا وتمت رغائبُهْ

يصف قصر أنس الوجود ويشيد بعظمة مصر

وَقْفٌ عليك دموعى أيها الطلل ... عينى إليك وقلبى للأولى رحلوا
أرسلت بالعين فى سقياك هامية ... وفى الطلول البوالى ترسل المقل
لولا بقية أطلال لما عَرَفت ... عيوننا أين كانت دورُنا الأُوَل
ليت الأحبة حين البعد طاح بهم ... أدناهم الشوق أو أقصانى الأجل
يا عالما بالهوى أرشد فتاك إلى ... غير البكاء فقد ضاقت به الحيل

تبكى على دورهم مثلى وتعذلنى ... أن أبكها وكلانا خطبه جلل
يا أيها الطلل المزورّ جانبه ... هوِّن عليك كلانا بعد هم طلل
وقفتَ باليم رسما لاحراك به ... واليم مضطرب والموج مقتبل
رَيَّاك من جنة الفردوس سارية ... وأنت كالركن فيه تحمد القبل
الدهر ملّ وآى الدهر كامنة ... فى وجهك الطلق لا يبدو بها ملل
قرأت فيهن سر العالمين فيا ... شتان ما بين من قالوا ومن عملوا

وختمها بقوله:

فمن يجاريك فيما شدت يا (أنس) ... المرء مرتحل والذكر مقتبل

يكرم الشيخ عبد العزيز جاويش بعد خروجه من السجن

ومن قصيدة له سنة ١٩٠٩ فى حفلة تكريم الشيخ عبد العزيز جاويش لمناسبة خروجه من السجن بعد استيفائه مدة الحبس (ثلاثة أشهر) التى حكم بها عليه فى أغسطس سنة ١٩٠٩ عن مقالة له فى (ذكرى دنشواى):

تصف السجون وما بها ... من جائر للمستجير
أيام كنتَ تخال نفسـ ... ـك بين سكان القبور
متقلبا فوق الفرا ... ش تَقلُّبَ العانى الأسِير
وتود رؤية زائر ... يحنو على ذاك المزور
ما خفتَ من سجن الخيا ... ل وخفتَ من سجن الضمير
فى جانب الوطن العزيـ ... ـز تهون هائلة الأمور

أسود النيل

من قصيدة قالها سنة ١٩٠٩ فى الاحتفال برأس السنة الهجرية سنة ١٣٢٧:

مالى أرى السودان طعمة آكل ... هل أطعمتهم مصر فى السودان؟
أنَسَوْا أسود النيل يوم تضرجوا ... بدم العدى حين التقى الجيشان
متسابقين إلى الحصون كأنها ... أوكارهم شيدت على الأفنان
متقاسمين العاديات كأنهم ... فى الحرب مشتركان مختصمان

صوت الشعب

من قصيدة له يخاطب الخديو عباس الثانى ويطالبه بالدستور:

رُدَّ الوديعة لا مالا ولا شانا ... لم نرجُ فى جانب الدستور إحسانا
لولا ولاؤك لم نبسط إليك يدا ... من الرجاء ولم نسألك غفرانا

يناجى الحرية

من قصيدة له فى مناجاة الحرية سنة ١٩١٠:

حَلاَّها البينُ فانجابت عن المقل ... ولم تودع قبيل السير من رجل
كأنما لم يضفها القوم فى بلد ... ولم يؤهل بها فى منزل حفل

إلى أن قال.

عودى أطِلّى علينا إننا نفر ... إن حِلْت عنا فإنا عنك لم نحل
الدهر غيّرنا حتى إذا بصرت ... بنا الديار غدت منا على دخل
رُدِّى علينا عهودًا منك ناضرة ... يارُبَّ عهد تولى ثم لم يؤل
كنا وكنتِ وكان الدهر، فانقرضت ... أيامنا وتولينا على عجل
أصبحتِ فى غير وادى النيل ثاويةً ... والشمس فى الحوت غير الشمس فى الحمل
أيسجنون يراعا لم يُثر فِتَنا ... ويعقلون لسانا غير منعقل[1]

وختمها بقوله مخاطبا المواطنين:

أتى زمان نهوضٍ وانقضى زمنٌ ... كان البكاء يُرى فيه من الحيل
فراقبوا الله يومًا فى كنانته ... إن الكنانة أضحت مطمح الدول

(١) يشير إلى تقييد حرية الصحافة.

عزيز فهمي

شاعر الحرية والشباب

١٩٠٩ - ١٩٥٢



هو الدكتور عزيز فهمى، من أعلام الحرية والأدب، وأبطال الوطنية والجهاد.

ولد سنة ١٩٠٩ بطنطا، وهو نجل الأستاذ عبد السلام فهمى جمعه رئيس مجلس النواب السابق ومن المجاهدين فى الحركة الوطنية.

تلقى علومه الابتدائية والثانوية فى المدرسة الإبتدائية ثم فى المدرسة الثانوية بطنطا، ثم انتقل إلى مدرسة الجيزة الثانوية حيث نال منها شهادة البكالوريا.

وبدت عليه منذ أن كان يتلقى التعليم الثانوى ميوله نحو الحرية والأدب والشعر وأنشأ وهو فى مدرسة الجيزة الثانوية مجلة أدبية كان ينشر فيها آراءه وأشعاره.

وانتقل إلى التعليم العالى بالقاهرة، وجمع بين دراسة الحقوق فى كلية الحقوق ودراسة الأدب بالانتساب إلى كلية الآداب، فنال ليسانس الآداب سنة ١٩٣٢، والحقوق فى سنة ١٩٣٣، وكانت رسالته التى قدمها إلى كلية الآداب فى المقارنة فى الشعر العربى بين العصر الأموى والعصر العباسى.

وكان طموحًا إلى الاستزادة من العلوم والآداب، فسافر إلى باريس سنة ١٩٣٣، والتحق بجامعتها وحصل منها سنة ١٩٣٨ على الدكتوراه فى القانون وكان موضوع رسالته (الامتيازات الأجنبية فى مصر ومعاهدة مونترو)، وكانت أول رسالة من مصرى عن هذه المعاهدة، والتحق فى الوقت نفسه بالسوربون للحصول على الدكتوراه فى الأدب.

وقد شبت الحرب العالمية الثانية وهو فى باريس، فعاد إلى مصر سنة ١٩٤٢ مملوءًا وطنية وتضحية، مستكملا دراساته العلمية والأدبية.

وشغل منصب وكيل نيابة بالمحاكم المختلطة وقتا قصيرا، ثم ضاق صدرا بالقيود الحكومية، فاستقال مؤثرا العمل الحر والجهاد الحر، واشتغل بالمحاماة والصحافة، ووقف قلمه ولسانه، وقلبه وجنانه، على الجهاد في سبيل الحرية، ومكافحة الاستعمار والطغيان والفساد.

كان أديبا شاعرا، وخطيبا مفوها، يجمع بين بلاغة العبارة وسلاسة الأسلوب، وقوة التفكير، وغزارة المادة، والشجاعة الأدبية، كان يدافع عن الحرية بقلمه ولسانه على صفحات الجرائد، وبلسانه فوق المنابر، وفى ساحات القضاء، وتحت قبة البرلمان.

وقد اعتقل وحقق معه غير مرة بتهمة العيب فى الذات الملكية، أو التحريض على الإخلال بالنظام، وكان فى المحاماة يدافع عن الحرية وعن المتهمين فى جرائم الرأى، ويهاجم الطغيان والقلم السياسى والإجراءات التعسفية.

دخل البرلمان سنة ١٩٥٠ نائبًا عن دائرة الجمالية بالقاهرة فكانت صفحته فى دار النيابة أقوى صفحات حياته التى قضاها فى الكفاح الوطنى، وعلى أنه انتخب مرشحًا من الوفد، فإنه لم يتقيد بسياسة الحكومة الوفدية، وعارضها فيما يستحق المعارضة من تصرفاتها، وله فى ذلك المواقف المشرفة، وظهرت مواهبه البرلمانية كخطيب ومناضل برلمانى من الطراز الرفيع، كان يناضل عن الحرية فى كل مناسبة، وله المواقف المشهودة فى معارضة نظام الاشتباه السياسى، ومعارضة القانون المعدل لنظام مجلس الدولة وهو القانون الذى قدمته الحكومة الوفدية إلى البرلمان للانتقاص من سلطات المجلس واستقلاله، ودوّى صوته مجلجلا معارضًا مشروعات تقييد حرية الصحافة سنة ١٩٥١، وكان لمعارضته لهذه المشروعات دوىّ كبير وصدى استحسان عظيم فى الرأى العام، وبلغت مكانته الوطنية والبرلمانية ذروتها فى معارضته لهذه المشروعات حتى انتهت بسحبها من البرلمان، فكانت هذه النتيجة أعظم انتصار للفقيد فى حياته السياسية والوطنية.

ولما شبت معركة القنال بين الفدائيين والإنجليز عقب إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ فى أكتوبر سنة ١٩٥١، سافر إلى منطقة القنال، وساهم فى حركات المقاومة ضد القوات البريطانية، واستهدف للقتل غير مرة، فكان ذلك منه غاية البذل والتضحية.

وكانت وفاته يوم أول مايو سنة ١٩٥٢ فى حادثة فاجعة، بل مأساة أليمة، إذ كان يعتزم السفر إلى الفشن فى صبيحة ذلك اليوم ليترافع أمام محكمتها فى إحدى القضايا، وكان ينوى السفر بالقطار، ولكن مواعيد السفر كانت قد تغيرت ابتداء من أول مايو لحلول الصيف، وقد فاته أن يعرف الموعد الجديد للسفر، فلم يدرك قطار الصباح، فاستأجر سيارة ركبها قاصدًا الفشن، وفيما هى تسير فى الطريق الزراعى وقع لها قبل العياط ببضعة كيلو مترات حادث فجائى، قلبها رأسًا على عقب وهوى بها فى الترعة المحازية للطريق، فمات الفقيد غريقا،

وكانت وفاته فجيعة للوطن وبنيه، إذ فقدوا بوفاته مجاهدًا صادقًا بين المجاهدين الأحرار.

كانت وطنيته فوق حزبيته، وعقيدته أساس شخصيته، كان يرى فى الحياة السياسية رسالة يؤديها، لا يبتغى منها لنفسه مغنما ولا نفعا، ولا يقصد إلا وجه الله والوطن، فلا غرو أن حزنت الأمة لوفاته حزنا عظيما.

اسلمى مصر

قال رحمه الله من قصيدة له سنة ١٩٣١ بعنوان (اسلمى مصر):

اسلمى مصرُ على مرّ القرونْ ... حسْبــكِ اللّهُ نصيرًا ومعــينْ
لن تُضَامى أنت يا مهد الخلو ... د وهذا بعض أشبال العرين
من تكن ليلاه مصر لا يَهِنْ ... ساعة البذل ولو ذاق المنون

إلى أن قال:

لا رعــاكَ الله يا عهـدًا مضى ... عهــد بغى وافتئـات وأفــون
محنــة لا عهـد للنــاس بهــا ... جزع الصبر لها، والصابـرون
عصفت بـالحرث والنسـل معا ... وأعــادت عهد كسرى ونرُون
ونضت سيفـا بَتــوكـا كلما ... هبّ، ذُقنـا حـدَّيـة المنــون
دولـة الحجاج أن قيست بهـا ... مَثَلٌ فى الرفق عنـد المنصفين

وهوى الأوطان للاحرار دين

إلى أن قال فى تمجيد التضحية:

فى يمــين الله مــا ضحيتمــو ... لا يُضيـع الله أجْـرَ المخلصـينْ
فى هوى مصر يضحى عن حِجًا ... ورضــاء كـل مُسْتَبْقٍ ضنــين
لن يَضيع العُرفُ عند الله إنْ ... ضَيَّـع الخير أصيــل وهجـين
هـو عند النـاس جودٌ ووفـا ... وهـو عنـد الله إيمــان ودين
ولبــانـات الهـوى شتى كنـا ... ر، سلِ التاريخ عنها والمنون
فهــوى ليــلى قيس متعــة ... وهوى الأوطان للأحرار دين

هى ليلانا جميعا فانظروا هل قسطنا ما علينا من ديون؟
هل جمعنا من أفانين المنى ما تمنته على مرّ السنين؟
ليتنى أحيا إلى يوم أرى فجرَ مصر فيه وضّاء الجبين
لا أبالى أعظامى بعده فى سهوب[1] من ثراها أم حزون
لا سقاك النيل يا مصر إذا لم نقرب من أمانيك الشطون
ونُعِدْ مجدًا سليبا غابرا ونُعَيِّرْ بِلِواكِ العالمين

لا يخشى الموت

كان رحمه الله يتنبأ بأن لا يطول به العمر وأنه سيموت فى ربيع الحياة، فكان يستعد للقاء الموت، ولا يهابه ولا يخشاه، وينشد الخلود.

قال فى هذا المعنى من قصيدة له سنة ١٩٣٣ بعنوان (لحن الموت):

أيها العرّافُ هل عند النجوم سرُّ هذا الكون أو عند المنون؟
كاذبٌ عِلْمكُ ما لم تُنْبِنى جِرْتُ والله ولَجَّتْ بى الظنون
جَهَلَ السرَّ أناسٌ قبلنا وجهلْنا فوق جهل الأولين
حملوا العبء وقد ناءت به أمم من قبلِ عادٍ و(أمون)
ولكم ساءلتُ نفسى حائرًا حيرة السارى بليل ذى دجون:
ما وجودى؟ ما سبيلى؟ من أنا ما جهادى؟ ما مصيرى بعد حين؟

* * *

يا بنى أمى لقد جَدّ نوىً وغدا يجمعنى واد شطون[3]
لا تقولوا مات فى شرخ الصبا ذلك الحق تجلَّى واليقين
ليس مِنى مَن بكانى فارعَووْا لن يردّ الدمعُ محتومَ المنون

* * *

(١) السهوب، كالسهول: الأراضى المستوية؛ والحزون؛ جمع حزن وهى الأرض الصلبة.
(٢) الشطون: البعيد.
(٣) الشطون: البعيد.

لا تقولوا ليته عاش! فقد ... فارق الأصفادَ عصفورٌ سجين
شاقنى الخلد كما شاق القطا ... سلسبيل فى عقاب وقرون[١]

يا قارئ الكف

وقال فى هذا المعنى سنة ١٩٤٤ من قصيدة له بعنوان (يا قارئ الكف):

يا قارئ الكف ماذا أضمر القَدَرُ؟ ... ولا عليك إذا لم يَصْدُقِ الخَبَرُ
وما اهتمامك باسمى؟ هَبْهُ عنترةً ... وهبه زيدًا.. وجدى عمرو أو عمر
عليك بالكف فاقرأ بين أسطرها ... ماذا يدل عليه الخط والأثر؟

* * *

أطالِعُ اليمن أن الخط متصل ... وَآية النحس أن الحد منبتر؟
وما الشيات[٢] على جنبى ثمانية ... تبدو كوشم وتخفى حولها غرر؟
خبرٌ عن الفأل لا تجفل فسانحةٌ ... عندى كبارحة والشر ينتظر
هل أنْسأَ الله فى عمرى إلى أجل ... يلحّ فيه علىَّ الهمُّ والكِبَرُ؟
وهل أُبَلّغ آمالى؟ وأبعدُها ... عندى كأقربها ناءٍ ومحتضرُ
هبْنى ظفرت بآمالى على ظمأ ... إذا ارتويت فماذا يعقب الظفر؟
وهل أُوسَّدُ حَزْنا حَرَّةً وحصى ... فى جوف هاوية أغوارها حجر
أم هَوْجلاً[٣] قَذَفا[٤] تنبو براكبها ... لا البيدُ عبَّدها يومًا ولا الحضر
قفراء جرداء لم تكلأ حشائشها ... إلّا السواقى ولم يعلق بها مطر
أم تُقْدَحُ النار من حولى فتطعمنى ... حيًا وأشوى بها أيَّان تستعر
أم أن فى مسبح الحيتان منقلبى ... يوم الرحيل إذا نادانى السفر[٥]

* * *

(١) [illegible] جمع [illegible]: طريق فى الجبل وعر، وقرون: جمع قرن: القطعة من الجبل.
(٢) السيات، جمع شية: العلامة.
(٣) الهوجل: المفازة البعيدة لا علمَ بها.
(٤) القذف: البعيدة.
(٥) كأنه فى هذا البيت كان يتنبأ بموته غرقا، وقد توفى رحمه الله غريقا سنة ١٩٥٢.

قل ما بدا لك واهرفْ غير مبدع ... فالرجم بالغيب – لو تدرى – هو الهذر
اللحد كاللحد والأكفان واحدة ... ولا خيار لْميت حين يدَّثر
والمال كالعُدْم لولا أنه أَمل ... إن الغنى إلى الأموال مفتقر
والسعد حال على الإنسان طارئة ... (وعند صفو الليالى يحدث الكدر)
لولا التشابه فى الأقدار ما صدقت ... عرَّافةُ الحىّ من تُوفىَ لها النُّذُر

الشورى

قال من قصيدة له سنة ١٩٤٣:

بنى مصر هذا الحق أبلج واضح ... وهذا صراط يستوى عنده القصدُ
إذا شئتم الشورى فذلك حكمها ... وإن شئتم الفوضى فليس لها حدّ
تولى زمان الحاكمين بأمرهم ... ولم يبق فى الدنيا مسودٌ ولا عبدٌ
تولى زمان الفرد لا عاد عهده ... وبدل بالدستور سلطانه الفرد

الضمير

وقال يصف الضمير من قصيدة له سنة ١٩٤٤:

صاحبٌ وسنان من طول السهرْ ... إن تنم ناداك أو تنس ادّكرْ
كلما غافلته فى سكرة ... من أمانيك تجنّى أو عذرْ
فإذا كُفّرت عن وزر عفا ... وإذا عدت إلى إثم ثأر
ليس ملموسًا فتدرى كنهه ... وهو ما كُتّمت يدرى ما تسر
وتواريه فيغضى ساعة ... ثم يستيقظ فى لمح البصر
ليس عقلا أو شعورًا خالصًا ... بل تُراثًا من شعور وفكر
فهو عقل باطن أو ملهم ... وهو إحساس قديم مدخر
كم جرعت الصاب من ترياقه ... واستسغت الشهد مما قد هصر
أنتما الدهرَ طريدٌ آبق ... وغريمٌ طاردٌ أو منتصِرْ
أينما وليتَ أحصى مُرْجئًا ... موعدًا حتما فأيّان المفر؟

* * *

يتراءى شاحبًا أو إمَّعا　　فهو كالظل إذا الظل انتشر
وهو جبارٌ عنيف تارةً　　وهو أحيانًا ضعيف يأتمر
وهو إعصار وريح صرصر　　وهو كالسيل إذا السيل انهمر
وهو كالبحر إذا البحر طغى　　وهو كالموج إذا الموج انحسر
وهو كالسهم إذا السهم رمى　　وهو كالسيف إذا السيف بتر
آمرٌ ناهٍ وعاصٍ طيعٌ　　وهو الآمر وهو المزدجر
لا ينام العمر إلَّا ساعة　　فترقبها وبالغ فى الحذر
ساعة إن نمت عنها غافلا　　عدت كالمخمور أو كالمحتضر
أيها الساهر نم أو لا تنم　　وترفَّق وتجلد واستبعِرْ
إن جنينا فعلينا وزرنا　　وإذا نحن أبنْنا فاعتذِرْ

ومصر تناديهم وصوتى يردد

وقال فى يونيه سنة ١٩٤٦ وهو معتقل فى سجن الأجانب:

كفاك عزاء أنك اليوم أوحد　　وقد يسكن الغمد الحسام المجرد
يهون عذاب السجن والليل موحش　　ويذهب عنك الحزن فيه تجلد
وقد يؤسر الليث المنيع عرينه　　ويرهب منه الصوت وهو مصفد
أهبت بقومى أن يذودوا عن الحمى　　ومازلت أدعوهم ومازلت أشهد
أهبت بقومى والخطوب زواحف　　تلم بهم طورًا وَطورًا تهدد
وَأنذرت حتى بح صوتى وَلم أزل　　وَمصر تناديهم وَصوتى يردد

نذرت نفسى قربانًا لفاديها

وَمن قصيدة أخرى نظمها وَهو فى سجن الأجانب سنة ١٩٤٦:

شكت إلى الله من عدوان أهليها　　وعاث غاصبها فى أرض راعيها
واحرّ قلباه من يأس يصارعها　　يكاد لولا بقايا الصبر يرديها
فزعت من غدها علما بحاضرها　　ورضت نفسى على نسيان ماضيها
وَقفت قلبى عليها فى شبيبته　　فشاب منها ومن عدوان ساليها

لما أفقت من الماضى بلا أمل نذرت نفسى قربانا لفاديها

* * *

ذكرت مصر فهاجتنى مواجعها وَعزنى الدمع حتى كدت أبكيها
يا لائمى وَأنا الجانى على كبدى دع عنك لومى فإن اللوم يغريها
كلٌ يغنى ليشجى سامرا وَهوى وَقد يغنى لأوطار يرجيها
وَليس لى سامر فيها وَلا وَطرٌ وَلا زعمت جوادى من مذاكيها
وَإنما هى آلامى أكتمها حتى يضيق بها صدرى فأحكيها

* * *

نزحت عنها فلم أعدل بها وطنا وبات قلبى أسيرًا فى مغانيها
وصنت شعرى إلَّا عن مفاتنها وهمت فى الأرض مسحورًا بواديها
ورق شعرى كما رقَّت جداولها وراق وصفى كما راقت مجاليها
وما رأيت كناسًا فيه جؤذرُهُ إلا ذكرت غزالا فى مراعيها

* * *

لما رُدِدْت إليها رد لى أملى عند اللقاء وأحيانى تدانيها
وقد طويت إليها اليم واقتربت بى السفينة من أولى موانيها
فكاد يظفر قلبى من توثبه وقد تنسم ريحًا من نواحيها
وحال قلبى دموعا عند ما اتأدت فرحت أنثر دمعى فى ضواحيها
سجدت لله عرفانًا لنعمته لما حللت رفيقًا من روابيها
فكيف حالت حياتى عندها سقرًا وكيف أصليت نارًا من سواقيها!

* * *

جارت عليها صروف الدهر واختلفت أيدى الرماة فآها من أعاديها!
راشوا لها السهم مسمومًا فشتتها وكاد لولا يد الرحمن يصميها
واثخنوها جراحا فى مقاتلها ياللجريمة من عدوان آسيها

إلى أن قال:

فزعت من شرك يلقيه غاصبها قبل الجلاء لعل (الوعد) يغريها

وما الجلاء إذا شدت[١] بسلسلة ... من القيود و (شرط الحلف) يمليها

تشعب الرأىُ والأحزاب سادرة ... ومصر صابرة والصبر يضنيها

وكيف تنهض من أسر يكبلها ... والقيد آمرها والقيد ناهيها

بنى وطنى أهبت بكم زمانًا

وقال فى نوفمبر سنة ١٩٤٦ يندد بالإنجليز على أثر الاعتداءات الدامية التى وقعت منهم فى القاهرة والإسكندرية، ويدعو المواطنين إلى البذل والتضحية:

سلوا من سامها[٢] هذا العذابا ... ومن شرع الأسِنَّة والحرابا

سلوا جلادها تبَّتْ يداه ... بأى شريعة فرض العقابا

أما ينهاه عقل أو ضمير ... يرد له المحجة والصوابا

ضلال أن يعاتَبَ مستبدٌّ ... وَ أولى بالمسوَّد أن يعابا

وجهل أن يخاطب غير أهل ... فلا تحزن عليه إذا تغابى

يصعِّر خده صلفًا وحمقًا ... ويوردها على ظمأ سرابا

وكم أسدت إليه وكم تجنى ... ولم يحسب لعاقبة حسابا

بأى جريرة وبأى عدل ... تجرع مصر كأس النصر صابا؟

ولولا مصر ماغنموا فلاة ... ولو مصر ما غلبوا ذبابا

* * *

سلوا (دنكرك) هل نهضوا بعبء ... وقد غنموا السلامة والإيابا

سلوا (الصحراء) عنهم كيف طاروا ... وهل تخذوا النعام لهم ركابا

سلوا (العلمين) هل نبتوا بأرض ... وقد سبقوا مع العَدْو السحابا

فكيف تعاظموا بعد انكسار ... وكيف تبدلوا أسْدًا غضابا

سلوا (الميثاق)[٣] هل وأدوه صبحًا ... وهل نسجوا من الكفن الإهابا

وكيف جرى على فمهم كذابا ... وسال على سواعدهم خضابا

---

(١) الإشارة هنا إلى مصر.

(٢) يقصد الإنجليز

(٣) ميثاق الأمم المتحدة.

وكيف استبدلوا شرعًا بشرع فأضحى الحق عندهم اغتصابا
كذلك تلذع الأفعى كريمًا جزاء صنيعه وتمد نابا
وبين الناس رقط وابن آوى وذؤبانٌ ومن غلب الذئابا

إلى أن قال:

ويا وطنى فديتك من جراح إذا نكأت حملناها عذابا
وهل يأسو الجريح سوى جريح يشاطره الفجيعة والمصابا
وكم من قسور ورد المنايا يروع ببطشه السبع السغابا
إذا كرت عليه الخيل فرّت وإن سام الجياد حمى العرابا
روى دمه ثراك ففاح مسكا وأينع روضة وزكا ترابا
وآخر فى (الجنوب) ثوى شهيدًا فضج النيل واجتاح الرحابا
لحا الله الخوارج والمطايا ومن أضحت نفوسهم خرابا
ولا كان الجلاء إذا أحلوا مع الحلف المرافق والرقابا
وطوبى للأولى ذهبوا فداء إلى الرضوان واستبقوا الثوابا

* * *

بنى وطنى أهبت بكم زمانا فلما بح صوتى قيل هابا
ولو نطق الجماد كما نطقنا لأسمعه الصدى عنكم جوابا

* * *

علي الغاياتي



من شعراء الوطنية ومن المجاهدين القدامى، اعتنق مبادئ مصطفى كامل منذ أن استمع إلى خطبته الكبرى التي ألقاها بالإسكندرية فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧، وصار من تلاميذه وأنصاره الأوفياء الحافظين لعهده طوال السنين.

انضم إلى أسرة الصحافة منذ صباه. وعمل فى صحف الحزب الوطنى المتعاقبة. واتجهت نفسه إلى الشعر، فنظم قصائد تفيض وطنية وإخلاصا. وقد جمعها فى ديوان أصدره سنة ١٩١٠ بعنوان «وطنيتى» وله مقدمتان، إحداهما بقلم محمد فريد، والثانية بقلم عبد العزيز جاويش. وكان لهذا الديوان قضية أثرت فى مجرى حياة الشاعر. فقد أقيمت عليه الدعوى العمومية وحوكم على قصائد من هذا الديوان عدتها الحكومة وقتئذ عيبا فى ذات ولى الأمر (الخديو عباس الثانى) وتحريضا على كراهية الحكومة والإزدراء بها، وتحبيذًا للجرائم (السياسية)، وحكم عليه من محكمة جنايات القاهرة فى أغسطس سنة ١٩١٠ بالحبس سنة. وقد صدر الحكم عليه فى غيبته، إذ كان قبل محاكمته قد ارتحل إلى الاستانة، ثم إلى سويسرا حيث أقام فى (جنيف)، وأصدر بها سنه ١٩٢٢ جريدة (منبر الشرق) بالفرنسية، وجعلها وقفا على الدفاع عن قضية مصر وقضايا الشرق عامة. وظل فى منفاه حتى عاد إلى مصر سنة ١٩٣٧ واستأنف فيها إصدار صحيفته (منبر الشرق) بالعربية حتى اليوم[١] – مد الله فى حياته – وهى صحيفة وطنية شرقية إسلامية أخلاقية، تدافع عن القضية الوطنية وقضايا العروبة، وتناضل عن الحرية والاستقلال للشعوب الشرقية جمعاء.

إلى مصطفى فى حياته

من أول شعره الوطنى قصيدة نظمها سنة ١٩٠٧ وقدمها إلى مصطفى كامل عقب خطبته بالإسكندرية، قال مخاطبا الفقيد:

(١) أى حتى وقت ظهور الطبعة الأولى من الكتاب سنة ١٩٥٤.

اصدع بقولك إن أردت مقالا فالقوم جندك إن دعوت رجالا
لم تدر مصر سوى حماك تؤمه فترى به آلامها آمالا
أقبل على الوطن العزيز بصارم لا تدرك الأعداء منه كلالا

وختمها بقوله

فادأب على إنهاض أمتك التى ترجو وراء خطاك الاستقلالا

وطن يناجى ربه

قال من قصيدة له بهذا العنوان:

رب أن البلاد أرهقها الظلم وحاقت بأهلها البأساء
رب إلى الصدور أحرجها الوجد وأودت بحلمها الأرزاء
فتدارك بلطفك النيل حتى لا تجارى حياة مصر دماء

قصائد حوكم من أجلها سنة ١٩١٠

من قصيدة بعنوان (طيف الوطنية):

وعداة ملكوا الأمر ولم يحفظوا للشعب فى حقٍّ ذماما
وولاة أقسموا أن يسجدوا كلما رام العدا منهم مراما
رب ماذا يصنع المصرى إن جاوز الصبر مدى الصدر فقاما
طال يوم الظلم فى مصر ولم نَدْر بعد اليوم للعدل مقاما
هل يرى المحتل أنا أمة مذ عرفنا السلم لاندرى الخصاما
أو يرى الظالم فينا أننا نحمل الخسف ولانبغى انتقاما
زعموا زورا، فما من أمة سامها العسفَ ظلومٌ ثم داما
كتب النصر لشعب ناهض فى سبيل المجد لا يخشى الحماما

ومن قصيدة له يندد بالخديو عباس الثانى:

أعباس هذا آخر العهد بيننا فلاتخش منا بعد ذاك عتابا
أيرضيك فينا أن نكون أذلة ننال إذا رمنا الحياة عقابا
ونيأس من آمالنا فيك كلما قضيت علينا أن نكون غضابا
وأرضيت أعداء البلاد وأهلها وأصليتنا بعد (الوفاق) عذابا
رويدك يا عباس لا تبلغ المدى ولا تستمع للظالمين خطابا

فما يبتغى (جورست) إلا مكيدة   تحول أقلام السلام حرابا
وها قد رمى حرية القول رمية   بسهمك تجنى للبلاد خرابا

يهاجم الوزارة

وقال فى هذه القصيدة يهاجم وزارة بطرس غالى التي كانت تتولى الحكم وقتئذ:

ألا أمطر الله الوزارة نقمة   ولا بلغت مما تروم مراما
تحاول أن تقضى علينا بإثمها   ولكن ستلقى دون ذلك أناما
وزارة خدّاع أقامته بيننا   يد الحاكمين الآثمين فقاما

ومن قصيدة أخرى له يندد بهذه الوزارة على أثر امتناعها عن حضور جلسات مجلس شورى القوانين فرارا من مناقشات الأعضاء:

يا أيها الوزراء ماذا نابكم   حتى هجرتم صورة النواب

إلى أن قال:

فتزلزلت أقدامكم من هولها   وهرعتمو فزعا إلى الأبواب
ورضيتمو الهرب المعيب لأنه   خير من الإفلاس عند حساب
عارٌ عليكم أن يقال وزارة   لم تدر إن سئلت بيان جواب

ومن قصيدة أخرى له سنة ١٩١٠:

طال ليل البلاد والشعب سار   لايرى غير هذه الظلمات
ظلمات من المظالم أودت   بضياء الحياة بعد الحياة
يشتكى الشعب والقضاة خصوم   فلمن يشتكى خصام القضاة

ومن قصيدة له يخاطب الشيخ عبد العزيز جاويش عندما حكم عليه لأول مرة سنة ١٩٠٩ ونشرها فى ديوانه (وطنيتى):

يا ساكن السجن الكريم وأنت نعم الأكرم
ما السجن للشرفاء إلا   رفعة وتنعم
أنت البرىء ومن يخا   لك مجرما هو مجرم

* * *

هذا ما وعته الذاكرة وما وسعنى الجهد فى استقصاء الشعر الوطنى، ولعلى بإخراج هذا الكتاب أحقق أمنية كانت تجول فى خاطرى منذ عدة سنوات. ولا زلت أكرر اعتذارى عما عسى أن يكون قد فاتنى تدوينه من الشعر الوطنى. وإنى لمتدارك هذا النقص فى المستقبل القريب إن شاء الله[١].

* * *

راجع هذا الكتاب

الأستاذ حلمى السباعى شاهين

المستشار بإدارة قضايا الحكومة

(١) لم أستطع تدارك هذا النقص كما وعدت القارئ فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب بسبب ما ألم بى من مرض مازلت أعانيه، أدعو الله الشفاء.

وفاة المؤلف

وعقب الانتهاء من مراجعتي هذا الكتاب بأيام معدودة كان يوم مصر الحزين، يوم ٣ ديسمبر سنة ١٩٦٦. حيث فقدت مؤرخها الوطني المحقق. فروع الشرق لوفاته. وخرجت جموع الشعب ظهر ٤ ديسمبر سنة ١٩٦٦ تودعه إلى مقره الأخير. إلى ضريح زميليه في الكفاح المرحومين مصطفى كامل ومحمد فريد بميدان القلعة بعد أن أدى الفقيد الكريم رسالاته في جميع الميادين التي خاضها – محاميا صادقًا ونقيبًا للمحامين وأبًا روحيًّا لهم، وبرلمانيًا جريئًا، ووطنيًا مخلصًا ثابتًا على مبادئه. ومؤرخًا حرًّا محققًا – جمع لمصر تاريخها القومي في مؤلفاته العديدة، في مختلف عصورها، فإليك أيها الفقيد العظيم بكائي، بل دعائي، وما أنت في حاجة إليه، بل نحن أحوج ما نكون إلى تسجيل تاريخك وكفاحك، ليكون هاديًا ونبراسًا للجميع، وهو دين في عنقي لعلني أوفيه لهذه الأمة العظيمة، أما أنت فمثواك الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء والأبرار... !

ابنك الروحي
حلمي السباعي شاهين

١٩٦٦/١٢/٢٥

فهرست الكتاب

للمؤلف

حقوق الشعب :

يتضمن شرح المبادئ والنظريات والقواعد الدستورية وحقوق الإنسان . طبع سنة ١٩١٢ .

نقابات التعاون الزراعية :

يتضمن تاريخ التعاون الزراعى ومنشآته فى أوروبا ، ونشأة التعاون فى مصر وتاريخه ونظامه ، وعلاقته بالنهضة الاقتصادية والاجتماعية . طبع سنة ١٩١٤ .

الجمعيات الوطنية :

صحيفة من تاريخ النهضات القومية يتضمن تاريخ الانقلابات السياسية والنهضات القومية فى طائفة من البلدان مع شرح أصول الدساتير ، والنظم البرلمانية فيها والمقارنة بينها . طبع سنة ١٩٢٢ .

تاريخ الحركة القومية (فى جزأين) :

الجزء الأول : يتضمن ظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث وبيان الدور الأول من أدوارها وهو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر . وتاريخ مصر القومى فى هذا العهد (الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩)

الجزء الثانى : من إعادة الديوان فى عهد نابليون إلى عهد ولاية محمد على(الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩) .

عصر محمد على :

يتناول تاريخ مصر القومى فى عهد محمد على (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٠)

عصر إسماعيل (فى جزأين) :

الجزء الأول : يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢)

الجزء الثانى : وفيه ختام الكلام عن عهد إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢) .

الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٧) .

مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال :

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٢) .

مصطفى كامل : باعث الحركة الوطنية

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨ (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٩) .

محمد فريد : رمز الإخلاص والتضحية
تاريخ مصر القومى من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤١) .

ثورة سنة ١٩١٩ فى جزأين :
تاريخ مصر القومى من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١ (فى جزأين) الطبعة الأولى سنة ١٩٤٦ .
الجزء الأول : يشتمل على شرح حالة مصر وحوادثها التاريخية أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) وبيان الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة . وتطور الحوادث من بعد انتهاء الحرب إلى شبوب الثورة فى مارس سنة ١٩١٩ ثم وقائع الثورة فى القاهرة والأقاليم .
الجزء الثانى : وفيه الكلام عن مهادنة الثورة واستمرارها ومحاكمات الثورة ولجنة ملنر . والحوادث التى لابستها ومفاوضات ملنر واستشارة الأمة فى مشروع ملنر . والتبليغ البريطانى بأن الحماية علاقة غير مرضية . ونتائج الثورة فى حياة مصر القومية .

فى أعقاب الثورة المصرية (ثورة سنة ١٩١٩) : فى ثلاثة أجزاء :
الجزء الأول : تاريخ مصر القومى من أبريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة سعد زغلول فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧)
الجزء الثانى : تاريخ مصر القومى من وفاة سعد زغلول سنة ١٩٢٧ إلى وفاة الملك فؤاد سنة ١٩٣٦ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨ – سنة ١٩٤٩) .
الجزء الثالث : تاريخ مصر القومى من ولاية فاروق عرش مصر فى ٦ مايو سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٥١ (الطبعة الأولى سنة ١٩٥١) .

مقدمات ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ :
(الطبعة الأولى سنة ١٩٥٢)
الكفاح فى القنال سنة ١٩٥١ – حريق القاهرة سنة ١٩٥٢ .
وزارات الموظفين – أسباب الثورة – فاروق يمهد للثورة .

ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ :
تاريخنا القومى فى سبع سنوات ١٩٥٢ – ١٩٥٩ (طبع سنة ١٩٥٩)

تاريخ الحركة القومية فى مصر القديمة :
من فجر التاريخ إلى الفتح العربى (طبع سنة ١٩٦٣)

تاريخ مصر القومى .
من الفتح العربى حتى عصر المقاومة والحملة الفرنسية طبع بعد وفاة المؤلف

مذكراتى (١٨٨٩ – ١٩٥١) :
خواطرى ومشاهداتى فى الحياة .

شعراء الوطنية فى مصر :
تراجمهم . وشعرهم الوطنى . والمناسبات التى نظموا فيها قصائدهم الطبعة الأولى سنة ١٩٥٤

أربعة عشر عامًا فى البرلمان :

مجموعة أقوالى وأعمالى فى البرلمان :
فى مجلس النواب سنة ١٩٢٤ – ١٩٢٥
وفى مجلس الشيوخ من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٥١ (طبع سنة ١٩٥٥) .

كتب مختصرة

مصطفى كامل :
باعث النهضة الوطنية (طبع سنة ١٩٥٢)
بطل الكفاح . الشهيد محمد فريد : (طبع سنة ١٩٥١)

الزعيم الثائر أحمد عرابى :
(الطبعة الأولى – يناير سنة ١٩٥٢)

جمال الدين الأفغانى : (طبع سنة ١٩٦٦)

بحث وتحليل معاهدة سنة ١٩٣٦ :
استقلال أم حماية (طبع سنة ١٩٣٦)

كتب لطلبة المدارس الثانوية :
(طبعت سنة ١٩٥٨ – ١٩٥٩)

مصر المجاهدة فى العصر الحديث :
فى ست حلقات تشتمل على كفاح الشعب فى عهد الحملة الفرنسية ثم كفاحه فى العهود التالية إلى بداية ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ .

(تحت الطبع)
مختاراتى من دواوين الشعراء فى الجاهلية والإسلام .

رقم الإيداع		١٩٩٢ / ٩٠٤٢
الترقيم الدولى	977 – 02 – 3873 – 4	ISBN

١ / ٩٠ / ٧٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذه الأعمال الكاملة

ينظر إلى عبد الرحمن الرافعي على أنه جبرتي مصر الحديث . فقد عكف طوال عمره على كتابة التاريخ المصري فبداه بتاريخ الحركة القومية في عصر المماليك والحملة الفرنسية حتى ثورة ٢٣ يوليو في سبع سنوات . وإلى جانب هذه الحقبة التاريخية نجده يكتب أيضا مؤلفات أخرى هامة

وكتابات الرافعي تتسم بالصدق والدقة والحيدة فهو يبدأ بذكر أسباب الحادث ثم سرده ثم رأيه فيه ومن ثم فان فكر الرافعي يسود هذه المؤلفات ويعبر عن كفاح الشعب المصري في مواجهة القوى المختلفة والملابسات التي أحاطته

ودار المعارف تقدم هذه الأعمال الكاملة للقارئ العربي حتى يقف على تاريخ وطنه العظيم وكفاحه المشرف ومطالبته الدائبة بالحرية والحق والديمقراطية

